جورجي زيدان وروايات تاريخ الإسلام
دراسة تحليلية

بحث مقدم إلى جامعة الخرطوم لنيل درجة دكتوراه الفلسفة في اللغة العربية

إعداد الطالبة:

هويدا محمد الريح الملك

بكالوريوس- جامعة أمدرمان الإسلامية- 1993م

ماجستير- جامعة الخرطوم- 1999م

إشراف الدكتور:

عبد الله محمد أحمد

كلية الآداب قسم اللغة العربية

أبريل- 2010م

بسم الله الرحمن الرحيم

((والعصر ( ) إن الإنسان لفي خسر ( ) إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر))

صدق الله العظيم

إهـداء موصول بالدعاء

إلى روح والدي الحبيب (رحمه ا) إلى والدتي الحبيبة (حفظها ا)

إهداء موصول بالوفاء

إلى زوجي العزيز (خالد الطيب) الذي كان لـه الفضل بعد ا في انجاز هذا البحث ، إلى أبنـائي الأعزاء (محمد والطيب وعبد الرحمن وإستبرق)

شـكر

عز وجل الشكر والحمد والثناء من قبل ومن بعد .

أتقدم بالشكر الجزيل لأستاذي الدكتور / **عبد ا   محمد أحمـد ،** لمـا تفضل به من إشراف رافقه بمتابعة لكل فصول ومباحث هذه الرسالة ، وفي ذلـك كله كانت له توجيهاته السديدة التي كان لها الأثر الفاعل في إثرائها .....

الشكر الجزيل لأختي وزميلتي الفاضلة البروفيسور / ورد المحمدي حيث لم تضن علي بوقتها وعلمها وكتبها وسديد رأيها .

شكري كذلك لزملائي بجامعة الطائف بالمملكة العربية السعودية ، كليـة الآداب ، قسم اللغة العربية ، حيث لم يضنوا علي بعلمهم وسديد رأيهم .

شكري لأسرة مكتبة جامعة الخرطوم ، وأخص بالشكر أسرة مكتبـة الشنقيطي ، والشكر كذلك لأسرة مكتبة جامعة امـدرمان الإسـلامية ، ومكتبـة الدراسات العليا ، جامعة النيلين ، ومكتبة أفريقيا العالمية . وأسرة مكتبات جامعة الطائف بالمملكة العربية السعودية .

مستخلص

جورجي زيدان وروايات تاريخ الإسلام

هويدا محمد الريح الملك

جاءت هذه الدراسة في بابين تحتهما فصول تحتها مباحث . واتبعـت فيهـا المنهج التاريخي الوصفي التحليلي الاجتماعي النفسي (أي المنهج التكـاملي) . وكان من أهم أهدافها تحليل روايات زيدان التاريخية والبحث عن الأسباب التـي دعته لتأليفها وبيان موقفه من تاريخ الإسلام ، وبيان آراء النقاد فيه ، وما له وما عليه .

ومن أهم نتائج الدراسة

- إن زيدان كان متأثرا في نظرته لتاريخ الإسلام بنظرة المؤرخين الغربيين إلـى العالم الإسلامي . كما انه لم يتجه إلى التاريخ الإسلامي بهدف إبراز أمجاده .
- افتقاد زيدان للروح العلمية والحيدة الموضوعية في رواياته التي غضت الطرف عن أمجاد المسلمين وبطولاتهم . وسلطت أضوائها على المواقف السلبية بهـدف الحط من قدرهم وصرف الأنظار عن حضارتهم .
- أما من ناحية الشكل والمضمون نجد أن أحداث الروايات تقوم على علاقة بـين بطلي القصة وتحول الدسائس دون التقائهما ، ومن حيث المضمون لم يلجأ زيدان إلى الفترات المشرقة من التاريخ الإسلامي ، واتجه إلى الفترات التي تمثل صراعا بين مذهبين سياسيين .
- وما يتعلق بالشخصيات في الروايات نجدها في جملتها شخصـيات متشـابهة نمطية فزيدان لا يهتم برسم شخصياته .
- أما الزمن في الروايات نجده يسير في خط تصاعدي له بداية ونهاية .
- أما أسلوبه فهو الأسلوب الصحفي البسيط الخالي من الشاعرية والجمال .
- أما عناصر التشويق فأننا نلاحظ افتقار الروايات لعناصر التشويق واعتمادهـا على المفاجآت وعنصر اللغز أو السر.

Abstract

H uida Mohammed Alriah

Georgie Zidane and Novels of Islam Historey

` This study was attended in two sections embody the chapters below sections. It followed the method of historical descriptive analytical psychosocial (integrated approach).One of the main objectives of study, analysis of Zidane's historical novels and the search for the reasons that let him formation and statement his position from the history of Islam, and statement of the critics views to him, One of the main results of the study:

- Zidane was influenced in his view of Islam history of Western historians look to the Islamic world, lIe also, did not turn to Islamic history to highlight the glories.
- Zidane's lack of the spirit of scientific and impartiality of objectivity in his novels, which ignored the glories of the Muslims and their heroism. She lights to the negative attitudes due to the degradation of their fate and divert attention from their own civilization.
- In terms of form and content, we find that the events of novels based on the relationship between the champions of the story and turning machinations without having met, and of Islamic history, and turned to the periods in which represent a conflict between politicians sects.
- And related to the figures in the novels, we find them, inier alia, module similar personalities but Zeidan is not interested in drawing his characters.

- We find the time in the novels is moving in the ascending line that has a beginning and an end.
- Zidane’s style is simple journalistic style devoid of poetic and beauty. where the content Zidane’s did not resort to brilliant periods
- The elements of suspense, we observe the lack of the novels to elements of suspense and reliance on surprises and puzzle or mystery.

فهرس الموضوعات

الموضوع

مقدمة

الحمد الذي وسع كل شيء علما، والصلاة والسـلام علـى أشـرف الأنبيـاء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فإن الرواية التاريخية الإسلامية بالمفهوم الفني المعاصر للرواية، تكتسب أهميتهـا من أهمية أحداث التاريخ الإسلامي، ثم من المستوى الفني الذي يحدثـه الكاتـب الروائي، مع مراعاة الكثير من المقاييس النقدية المتفق عليها في هذا المجال ومن أهمها: وجوب مراعاة صحة دلالة الحدث التاريخي بحيث تسلم أحداث التاريخ من التحريف والتغيير في أصل روايتها. فعلى الكاتب أن يراعي حقائق التاريخ وان يوائم ما بينها وبين الجانب الخيالي في العمل الروائي.

ولعل هذا ما دفعني لاختيار الرواية التاريخية عند زيدان .

ومن دوافع اختياري لهذا الموضوع أيضا انه لم تفرد رسالة علمية لجرجي زيدان ورواياته التاريخية إلا بإشارات مبثوثة في أنحاء الكتب مثل كتاب للدكتور عبـد المحسن بدر " تطور الرواية العربية الحديثة" ، وكتاب الدكتور محمد يوسف نجم " القصة في الأدب العربي الحديث".

كما أن اختياري لهذا المؤلف يعود إلى قراءتي وفي فترة مبكرة من حياتي لرواية (أرمانوسة المصرية) لجرجي زيدان، وقد شغفت بها، ولكنني كنت اشـعر في قرارة نفسي بشيء من الغرابة والتعجب إذ كيف يكتب عن التاريخ الإسـلامي ويسجل أحداثه كاتب مسيحي نصراني.

ولقد شغلت نفسي بزيدان أو شغلني هو زمنا ليس بالقليل فقرأت رواياته التاريخية ثم زاد شغفي به وبسيرته عندما وجدت فيه نموذجا رائعا للعصامية التي تقفز بصاحبها من الفقر والحرمان إلى ذروة المجد والشهرة.

هذه الروايات التي نبحثها إحدى وعشرون رواية بدأها زيدان برواية (المملوك الشارد) عام 1891م ثم تتابعت حتى بلغت إحدى وعشرين رواية تاريخية، وهذه الروايات لاقت رواجاً واسعاً وترجمت إلى عدد من اللغات منها الفارسية والتركية والأذربجانية وغيرها من اللغات.

ومما يزيد من أهمية هذا البحث أن هذه الروايات تتناول التاريخ الإسلامي منذ فجر الإسلام إلى العصر الحديث، وذلك إذا علمنا أن زيدان ركز في رواياته على الفترات التي تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين أو كتلتين متصارعتين على السلطة.

وقد جاء البحث في بابين، الباب الأول : (زيدان حياته وعصره) وقسمته فصلين، الفصل الأول إطلالة على العصر، وقسمته ثلاثة مباحث، تناولت في المبحث الأول سبل الحياة السياسية والاجتماعية والدينية في الشام في تلك الفترة، وتناولت في المبحث الثاني الحياة الأدبية، وفي الثالث عرفت بأهم أعلام الأدب في هذه الفترة.

الفصل الثاني زيدان سيرة وآثاراً قسمته ثلاث مباحث. عرفت في المبحث الأول منه مؤلف روايات تاريخ الإسلام (جرجي زيدان)، المبحث الثاني تناولت فيه ثقافته، وفي المبحث الثالث تناولت أهم أعماله الأدبية.

الباب الثاني: روايات تاريخ الإسلام وقسمته خمسة فصول، الفصل الأول بين يدي الروايات وقسمته مبحثين، عرفت في المبحث الأول منه الرواية في اللغة والاصطلاح، وبينت تطورها التاريخي حتى العصر الحديث. وكان المبحث الثاني تعريفا بعناصر بنائها.

عرفت في الفصل الثاني روايات زيدان التاريخية، وقسمته مبحثين، المبحث الأول تعريف بزمان تأليف روايات زيدان التاريخية، المبحث الثاني وضحت فيه الأغراض التي من اجلها وضع زيدان رواياته.

جعلت الفصل الثالث لعناصر القصة الزيدانية وقسمته ثلاثة مباحث، المبحث الأول تناولت فيه الشخصيات، المبحث الثاني تناولت فيه الحوار، وجعلت المبحث الثالث للأحداث.

أما الفصل الرابع فقد أفردته بكامله لدور العناصر الدينية في الروايـة وأفـردت الفصل الخامس للنظر في آراء النقاد في روايات تاريخ الإسلام.

لقد اخترت هذا الموضوع على ما فيه من صعوبة تمثلـت فـي قلـة المصـادر والمراجع وصعوبة حصولي عليها، إضافة إلى أن هذا الموضوع لم يسبق أن كتب فيه احد بصورة منفصلة وتناوله بشرح أو تحليل، الأمر الذي ألقى على عـاتقي الكثير من جهد التحليل والاستنباط.

ثم ختمت البحث بالإشارة إلى النتائج التي توصلت إليهـا ، وذكـرت المصـادر والمراجع وأشرت إلى محتويات البحث.

المبحث الأول

سبل الحياة السياسية والاجتماعية والدينية

الحياة السياسية :

كان القطر الشامي في القرن التاسع عشر جزءا من السلطنة العثمانية ، كما كانت مصر والعراق والحجاز ، ويعتبر الشام مهبط للقبائل العربية النازحة من الجنوب " وقد هاجرت هذه القبائل العربية إلى هذه البلاد فرارا من قسوة العيش في الصحراء وبسبب بعض الكوارث الطبيعية التي حلت بهم "(1)

والملاحظ على الدولة العثمانية في ذلك الوقت أنها وبرغم قوتها لم تستطع أن تجاري تطور الزمن وعوامل الارتقاء ، فبينما نرى دول الغرب قد أخذت خطوات في طريق التقدم المادي والفكري ، نرى تركيا توقفت مكتفية بما أحرزته من توسعات ، ومن هنا أصابها الضعف وفقدت مكانتها وأصبحت مطمع الطامعين .(2)
ويعتبر الحكم العثماني للشام في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ، حكما إقطاعيا . قائما على الاستبداد ، فالإقطاعيون كان همهم الوحيد سلب الشعب ، وكان هذا واقعا على القطرين سوريا ولبنان . قال في ذلك ميخائيل مشاقة : الرعية كانت تحكم بالجور وكان الحكام لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الأهلية(3)

وكان أحمد باشا الجزار أظلم إقطاعي عرفته الشام ، حيث عانى الناس من ظلـــمه واستبداده قال عنه محمد كرد علي : ((أهم وزير مسموع الكلمة في الأستانة قوي الشكيمة في ظلم الرعية بالشام " (4) .توفي الجزار عام 1804م وكان قبل وفاته

---

(1) أبو عبيدة بن عبد الله عبد العزيز البكري : معجم ما استعجم ، ط لجنة التاليف والترجمة والنشر ، 1945م ، ص، 23.

(2) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها في عصر النهضة الحديثة ، دار العلمين للملاين ط5، يوليو 1990م ص12 .

(3) ميخائيل مشاقة : مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، ط1 ، مصر 1908م ، ص، 22-23.

(4) محمد كرد علي : خطط الشام ، ج3 ، طبعة دمشق 1925 بدون رقم للطبعة ، ص ، 53.

أمر أن يغرق جميع المسجونين في البحر. (1)

وكان خبر وفاته على الباب العالي قاسيا على عكس ما كان وقع الخبر على الرعية . قال في ذلك جميل بيهم : " هذا الخبر كان قاسيا على الباب العالي ولكنه كان سارا للرعية ولا سيما أمراء المقاطعات الذين بين أصابعه "(2). ويقول المقدسي : " وبذهاب تلك القوة التي كانت تكبح جماحهم تنفسوا جميعا من مشايخ وأمراء الصعداء وعادوا إلى ما كانوا عليه من مظالم وفتن " (3) وهكذا استمر الحال على ما هو عليه قرابة الستة عشر عاما والظلم والاستبداد ديدن كل وال تركي وكل إقطاعي .

أما بالنسبة لحكومة لبنان فقد كان عليها في ذلك الوقت الأمير بشير الشهابي الذي نال ولايته من محمد علي 1785م – 1840م وكان عهده عهد ظلم واستبداد ، قال أحمد فارس الشدياق واصفا هذا الظلم : " في بلادنا – حرسها الله --- إن ناظر المدابغ جدير بأن ينظر في جلود بني أدم ويسبغها بلون الدرة والسوط............وللشرطي أن يقبض على أي شخص كان ولضابط العسكر أن يخترط سيفه على أي عنق سنحت له ...." (4) ويقول مارون عبود عن هذا العهد :" عهد كانت النفوس فيه أرخص متاع ، عصر إرهابي شريعته قوة وغدر وسنته نهب وقتل) .(5)

---

(1) حيدر احمد الشهابي : لبنان في عهد الأمراء الشهابين ، ج2، طبعة المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1933م ، ص409.

(2) جميل بيهم:الحلقة المفقودة في تاريخ العرب،ط2،بيروت ، 1950م ، ص52 .

(3) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها في عصر النهضة الحديث ، ص11.

(4) أحمد فارس الشدياق : كشف المخبأ عن فنون أوربا، ط2 ، بيروت، 1885م،ص151.

(5) مارون عبود :صقر لبنان، ط2،دار العلم ، بيروت ، 1957م،ص19.

طوال هذا العهد والشام محط أطماع محمد علي باشا التوسعية فاستطاع الاستيلاء على بيت المقدس وطرابلس وبيروت ، وسقطت في يده عكا ودخل دمشق دون مقاومة ، واستطاع ابنه إبراهيم هزيمة الجيش التركي في حمص وحلب ، وقابل أهل الشام جيش إبراهيم أو الجيش المصري بالترحاب فقد رأوا فيه الخلاص مما هم فيه . تلك كانت حالة البلاد عندما دخلها الجيش المصري سنة 1830م بقيادة إبراهيم باشا فكان دخوله بدء عهد جديد دام نحو عشر سنوات ، ومن أول الأعمال التي قام بها في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية وإقامة مجلس الشورى وغيرها من النظم الحديثة ، وترتيب المالية ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل ، إلا أن الأمراء والمشايخ وأرباب النفوذ كانوا يتمنون رجوع العثمانيين ، حتى يعودوا لسابق عهدهم .(1) يقول في ذلك الكولونيل تشرشل في كتابة (الدروز والموارنة : ((في سنة 1832م دخلت سوريا تحت حكم محمد علي فعهد إلى ابنه إبراهيم بإجراء الإصلاحات تنفيذا لسياسته العامة . وقد لقي مقاومة شديدة من أرباب السيادة لما وضعه ونفذه من قوانين للمساواة بين المذاهب ولكنه سار بحزم وعزم فقضى على كل مقاومة واخضع الجميع للنظام والعدل ، ومنع التفريق بين المسلمين والمسيحيين ، وهكذا عم البلاد جو من الطمأنينة فأخذت تسير في العمران والازدهار. (2)

إلا أنه لم تقع حوادث مهمة في السنين الأولى التي قضاها إبراهيم باشا في الشام ، ما عدا بعض الفتن بين المسيحيين ، وعصيان النصرانية فانتدب بشير الشهابي الذي كان عضدهم القوي لتأديبهم . ومن حسنات محمد علي في الشام أنه وضعت في عهده الإدارة والجباية إلا أن ذلك لم يستمر لأكثر من عشر سنوات ، كان الشام فيها يتمتع بضرب من الحكم الذاتي خاصة لبنان ، وأوشك الأمير بشير

---

(1) راجع محمد كرد علي : خطط الشام : ج3 ، ص ، 57.

(2) راجع : أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص15.

الشهابي أن ينادي بلبنان بلدا مستقلا ، بل أنه بدأ يخطط لذلك لولا تألب الدول الأوربية عليه فكان مصيره النفي إلي الأستانة عام 1840م ، وخرج إبراهيم ابن محمد وأتباعه ؛ عند ذلك اضطرت تركيا بعد خروج إبراهيم باشا إلى إعادة الحكم في جبل لبنان إلى آل شهاب ، فتم تعيين الأمير قاسم شهاب الذي أساء معاملة الأهالي .

وعند انسحاب الجيش المصري من سوريا ولبنان عمت الفوضى البلاد وعادت إلى ما كانت عليه من فساد وتنازع بين الإقطاعيين واستبداد طائفي ، فأصبحت البلاد تعاني من الفوضى وعدم الأمن والاستقرار ، فلا نظام يحفظ حقوق الأفراد والجماعات ، وما زالت البلاد تسير من سيء إلى أسوأ وخصوصا في لبنان ودمشق .(1)

في عام 1841م وقعت حرب بين الدروز المسلمين والنصارى المارونيين في دير القمر ، فأدت تلك الأحداث إلى فرض نظام جديد على لبنان ، وذلك بتقسيم لبنان إلى قسمين يفصل بينهما طريق أ حداهما ماروني والآخر درزي ، يستمد كلاهما سلطانه من الوالي التركي ، إلا أن ذلك لم ينه المشاكل بين الفريقين ، بسبب التداخل بين المسيحيين والدروز ومجاورة بعضهم لبعض مما أدى إلى وقوع كثير من الصدام بين الطرفين ؛ حتى وقعت فتنة كبرى وحرب ضروس بين الدروز والمسيحين في عام 1860 م نتج عنها تدخل الدول الأجنبية في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية الأقلية المسيحية ، واستطاعت إيقاف القتال ، ثم عقدت مؤتمرا في أكتوبر من نفس العام في بيروت ، شاركت فيه تركيا وانجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا ومن قرارات هذا المؤتمر بالنسبة للبنان أن يكون الحاكم المطلق مسيحيا وأن يكون الثاني بعده

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص16.

من الدروز ، وأن يستقل لبنان في شؤونه الداخلية تحت سيادة الباب العالي .

وهكذا أصبحت لبنان تتمتع بالأمن والحرية والاستقرار ومن ثم أخذت الإقطاعية تضعف وتموت لا في لبنان فحسب بل في سائر الأنحاء الشامية . " ومما ساعد على ذلك تحسن طرق المواصلات وأسباب المخابرات بين عاصمة تركيا وسائر الحواضر في الدولة ، مما سهل على الباب العالي ضبط الولايات ، بواسطة الولاة والمتصرفين الذين كانت تعينهم عادة من الأتراك " .(1)

والذي لا خلاف عليه أن القوى الأجنبية لعبت دورا بارزا في إشعال الفتنة الطائفية ، حيث عمل الفرنسيون على احتضان قضية الموارنة ،القائمة على أساس القضاء على الدروز ، فعملوا على إشعال نار الفتنة بين سكان الجبل ، واستطاعوا أن يتبنوا قضايا الموارنة مما دعا الموارنة إلى المجاهرة بولائهم لفرنسا ، وعلى ذلك أسرع العثمانيون إلى استقطاب الدروز ، مما أدى إلى تأزم الأوضاع بين الطائفتين واتسعت الهوة بينهما فاستفاد من ذلك الأتراك وعملوا من خلالها على استعادة سلطتهم ، بعد أن كادت تنتقل إلى أيدي الإفرنج . أما الانجليز فقد رأوا أن مصلحتهم تقوم على مساندة الدروز بعد أن رأوا مساندة فرنسا للموارنة وحتى لا ينفرد الفرنسيون بالعمل في لبنان .

ثم دخلت لبنان في ولاية داود باشا (1864- 1868م) وهو أرمني المولد كاثوليكي المذهب ، استطاع القضاء على المعارضات الداخلية خاصة تلك التي تقع من جانب الدروز ، وشهد عهده بعض الإصلاحات والمشاريع .

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص 17-18.

ثم خلفه " فرنكو" باشا (1868-1873م) وهو أوربي الأصل حلبي المولد ، في عهده ظهرت مطابع جديدة وولدت صحف عديدة ، جاء بعده " رستم " باشا (1873- 1883م) إيطالي المولد عانت خزينته من العجز المادي المستمر فخفف رواتب الموظفين للنصف فأدى ذلك إلى تفشي الرشوة إلى حد بعيد حتى اتهم هو نفسه بها ، وقد تميز عهد ولايته بهجرة أعداد كبيرة من المواطنين اللبنانيين إلى مصر وأمريكا ، وبعض الأقطار الأخرى ، وخلفه نعوم باشا (1892- 1902م) وفي عهده سار الحال كما كان عليه ، ولم يتميز حكمه بشيء يذكر. (1)

أما بالنسبة لبقية أنحاء سورية في أواخر القرن التاسع ، فقد حكمها السلطان عبد العزيز ، وكانت فترة حكمه (1861- 1866م) ، ومن أهم الأحداث في عهده أنه أوقع الخزينة تحت أعباء الديون من الخزينة الأجنبية ، وقاسى أهل البلاد ويلات الجوع والفقر والقتل ؛ نتيجة حتمية للأوضاع السيئة والديون الكثيرة ، فاضطر الأتراك إلى خلعه وتعيين عبد الحميد الثاني 1867م . الذي أعلن دستورا وأنشأ مجلسا نيابيا في بداية حكمه ثم تنكر لقراره فعطل الدستور وألغى المجلس النيابي ؛ اشتهر بجبروته وأبهته وكثرة جواسيسه(2) ، وفي عهده قامت مذبحة بين المسلمين والأرمن سنة 1895م حيث قتل فيها نحو خمسة عشر ألف شخص واجتاحت البلاد مجاعة وأمراض كثيرة (3) . واستمرت الأحوال على ذلك حتى دخول القرن العشرين .

---

(1) النظام كله مأخوذ بتصرف عن – فيليب حتى : تاريخ العرب ، ج1 ، ترجمة أنيس فريحة ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ، 1959م ص،539 ، 544 .

(2) ولي الدين يكن : المعلوم والمجهول ، طبعة مطبعة الشعب ، القاهرة 1909م ص52 .

(3) سليمان البستاني : عبرة وذكرى ، طبعة مطبعة الأخبار مصر ، 1908م ،ص، 120-122.

والذي لابد من الإشارة إليه في ختام هذا المبحث ما كان للوضع السياسي من علاقة بحياة رواد النهضة وإنتاجهم الفكري والأدبي ، ففي العهد الإقطاعي أي قبل أن تصبح الحكومة المركزية في الأستانة ذات سلطة مباشرة فعالة في إدارة المقاطعات العربية ، كان الأدب في سوريا ولبنان وسائر البلدان العربية يعيش على أبواب الأمراء والمشايخ . ولم يكن يعنى بالشعب ومشاكله . ولكن مع اليقظة التي حدثت في أوائل القرن الماضي ما لبثت أن ظهرت طبقة من المفكرين والأدباء الذين كان اتجاههم بالأكثر نحو الحياة العامة . (1)

---

(1) راجع : أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص 16.

الحياة الاجتماعية

كانت بيروت خلال الربع الأول من القرن الماضي بلدة صغيرة مسورة ، شوارعها ضيقة جدا كثيرة الاعوجاج ، ولم تعرف بيروت في ذلك الوقت العربات ولا المركبات البخارية ، أما الماء فقد كان يستخرج من الآبار . وهكذا كان حال لبنان بالنسبة إلى سواها من الحواضر السورية ، متأخرة اجتماعيا . [1] وكان ذلك حال المجتمع الشامي عامة فقد غلب طابع الحياة الريفية الفقيرة على المجتمع الشامي ؛ فسكانه كانوا يعتمدون في موارد رزقهم على الفلاحة وتربية بعض الحيوانات الأليفة ، أما المنازل فقد بنيت من الطين أو الحجارة ، والمنزل مكون في الغالب من غرفة واحدة تفرش الحصر والبسط على أرضه وتعلق المناجل والفؤوس والغرابيل والمذاري وكل حاجيات الفلاح على جدرانه . قال جورج يزبك واصفا أحد منازلهم في تلك الفترة : في وسطه يوجد موقد كبير ، في إحدى زواياه يوجد سرير الطفل الرضيع ، وتوجد نملية في الجانب المحاذي للموقد تضع عليه الزوجة الأطعمة في صحون فخارية ، وفي إحدى جوانب المنزل يوجد معجن للخبز ، وتتدلى من السقف ضمات البصل وربطات الذرة ؛ وفي مكان آخر خارج المنزل توجد حظيرة في مكان منخفض تحفظ فيها الدواب والبقرات وفي فصل الشتاء تدخل هذه الحيوانات إلى داخل المنزل وتجلس قرب موقد الفلاح ، وتتدفأ الأسرة مع حيواناتها شتاء بنيران الموقد .

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص21.

أما الإضاة فتكون بأسرجة من الزيت ، أو بخشب الصنوبر المطلي بالقار ويدعى "اللقش" .(1).

أمـا الفلاحـة فقـد قامـت علـى أسـاليب بدائيـة فقـد كـان الاعتمـاد فيهـا علـى الحيوانـات مـن ثيـران ، وحميـر، وبغـال . أمـا ثيـاب الفـلاح فمصـنوعة مـن الخلـع والأقمشة السميكة من صوف المواشي ، وقد حكيت بأيدي النساء .

وإذا تحدثنا عن القرية الشامية في ذلك الوقت فأننا نجدها تتكون من منـازل شبيهة بمنزل الفلاح الذي وصفناه ؛ مـا عدا بيت الإقطـاعي الـذي شيد مـن الحجـارة على شكل عنقود وسقفه من القرميد ، أما النوافذ فمن الزجاج الملون والبيت أكثر سعة . أما شوارع القرية فهي عبارة عن أزقة ضيقة ؛ ويوجد في وسط القرية ساحة كبيرة قرب المسجد أو الكنيسة يلتقي فيها سكان القرية في المناسبات .

وعنـدما دخلـت المدنيـة بـلاد الشـام وخاصـة بيـروت عرفـوا المسـامير وآلات الخياطـة عـام 1854م ، وعرفـت بيـروت البتـرول عـام 1866م ، واسـتخدمت فيهـا مركبات الخيول ، إلا أن أسباب المدنية لم تدخل بيروت دفعة واحدة بل تدرجت مع الـزمن ، وبجـر المـاء إليهـا وإقامـة مرفأهـا وتسـهيل المواصـلات بينهـا وبـين المـدن الداخليـة ، ازداد عمرانهـا ، فبعـد أن كانـت تابعـة لصـيدا ودمشـق أصـبحت منـذ عـام 1886م ولاية عظيمة الشأن .

" كما أنشئت فيها شركة لتوزيع المياه عام 1873م ، وأول شركة سكة

---

(1) جورج يزبك : بيروت في التاريخ ، طبعة دار الثقافة ، بيروت ، 1925م ، ص : 24- 26.

حديد مدت بين بيروت ودمشق عام 1895م ثم مدت فروعها المختلفة إلى حمص وحماة وحلب " .(1)

أما من حيث المعتقدات العامة فقد شاع في المجتمع الخرافات والأباطيل والتقاليد غير المألوفة ، وكان ذلك نتيجة حتمية للجهل الذي ساد المجتمع في ذلك الحين . وعن شيوع ظاهرة السحر والشعوذة والخرافات والأباطيل حتى في أوساط المتعلمين يقول المقدسي : « وقد شغلت مسالة السحر ، والمعتقدات الخرافية أقلام الكتاب وشاعت المناظرات بسببها على صفحات الجرائد . (2)

لدرجة أن هذه الخرافات شاعت حتى بين الأمراء والأعيان وأهل الشرف وظل الأمر على ما هو عليه حتى قيام الحرب العالمية الأولى . فالقرن الماضي كان على العموم ذا عقلية تميل إلى الاعتقاد بالخوارق والخرافات .

أما من حيث الحياة العائلية فقد كانت المرأة وبحكم التقاليد مكبلة بقيود من الجهل ، وكانت في حالة يرثى لها من المكانة فلا تذكر إلا بالتحقير ، أما من حيث علاقة الآباء بالأولاد فقد كانت متأثرة بالنظام الإقطاعي الذي كان سائدا في ذلك الوقت ، فصاحب البيت كان سيدا فيه طاعته واجبة على الجميع ، أو بمثابة شيخ عشيرة يتصرف بشؤونها كما يراه مناسبا لتقاليد العشيرة أو مصلحتها ، فقد يزوج الابنة لمن يشاء من الخطاب وعليها القبول ، فالإقطاعية لم تكن فقط نظاما سياسيا يستخدمه الأمراء لحكم رعاياهم بل كانت أيضا تقليد ا عائليا يحترمه الكبير والصغير. (3)

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ، 22 - 23.

(2) نفسه، ص ، 23.

(3) أنيس المقدسي : ص، 27.

وبالرغم من الفقر الذي كان سائدا وسط المجتمع الشامي إلا أننا نلمح الكثير من الصفات والمناقب التي كان يتحلى بها أفراد المجتمع من مثل الكرم والوفاء والأنفة كما نجد التماسك الأسري يسود الأسر، ورب العائلة هو صاحب الكلمة العليا . قال في ذلك الشيخ ناصيف اليازجي : ((يغلب عليهم كرم النفس والحمية وصيانة اللسان عن الفحش في حال الرضا والغضب واحتمال الأثقال والمكاره وحفظ المواثيق والمودات مع الأصدقاء والأنفة من الغدر بالأعداء))(1)

وهذه الأوضاع الاجتماعية المتردية من فساد حكومي وأوضاع اقتصادية حرجة ، أدت إلى هجرة ألاف اللبنانيين والسوريين وأبناء الشام بصورة عامة إلى خارج البلاد بحثا عن الرزق وفرارا من ظلم الحكام .

فبلاد الشام في أوائل القرن التاسع عشر وقعت فريسة للولاة المستبدين كالجزار وغيره من الحكام والأمراء الطامعين في لبنان وغيرها من بلاد الشام ، وعندما استتب الأمر على يد إبراهيم باشا ومعاونه الأمير الشهابي أوقفتهم الدول هناك ، ورجعت السيادة للدولة العثمانية فتوالت القلاقل لفساد الحكام واضطراب الأحوال مما أدى إلي المذابح الشهيرة وأخرها مذبحة عام 1860 والتي على إثرها هجر اللبنانيون أوطانهم ونزل البعض منهم ببيروت ، وفضل البعض الهجرة إلى خارج البلاد فهاجر بعضهم إلى أوربا ، وبعضهم إلى الأستانة ، ((وفي الثلث الأخير من القرن الماضي أصبحت وجهتهم أمريكا ثم مصر ولا سيما بعد الاحتلال الإنكليزي ، وتمكن الفساد من الحكومة العثمانية)).(2)

---

(1) ناصيف اليازجي : رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي ، حققها ونشرها الخوري أنطوان باشا، وهي مؤرخة في1833م ، ط1، بيروت ، 1851م ، ص : 16-17 .

(2) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ،ط2 ، 1978م، دار مكتبة الحياة ، ص 373.

ونستطيع أن نقول إن البلاد ضاقت بأهلها ففضلوا الفرار ولا سيما لبنان يقول في ذلك أوغست أديب : " فالسبب الأول في مهاجرة الألوف من اللبنانيين هو ذلك القانون الأساسي الذي وضع سنة 1861م . فإن أشد ضرر جلبه على لبنان هو حصر ذلك الجبل في حدوده الحالية ، ولولاه لما كنا رأينا ذلك المشهد المؤلم ؛ مشهد أناس في ضنك شديد يرمون من أعالي صخوره نظرات اليأس إلى سفح جبلهم ، من السهول الواسعة الخصبة التي يقصيها عنهم اختلال الأمن واستبداد الحكام ".(1)

واستطاعت طائفة من أبناء الشام في دول المهجر أن تكون جمعيات وروابط أدبية ، وكانوا في غالبيتهم أدباء ومفكرين وشعراء ، فأخرجوا الصحف وأصدروا الدواوين الشعرية ، وكونوا جمعيات وروابط أدبية تؤلف بينهم وتعوضهم عما فقدوه في وطنهم من روابط أسرية واجتماعية ، ومن أشهر هذه الروابط الرابطة القلمية ، التي تكونت في نيويورك وأعلنت الثورة على الشعر التقليدي ودعت إلى التجديد ومن أهم شعرائها جبران خليل جبران ، وإيليا أبو ماضي . (2)

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص31.

2)

) حسين محمد علي : الأدب العربي الحديث ، مكتبة الرشد ، ط4، 2002م ،ص 103.

الحياة الدينية

في بلاد الشام كان للدين تأثير فعال في حياة الناس الفردية والاجتماعية ، والاختلافات والمنافسات المذهبية جعلت من شتى الطوائف في هذه البلاد جماعات متضاربة المقاصد متنافرة القلوب [1] فالشام ومنذ أمد بعيد كان موطن نزاع بين الديانتين الإسلامية والنصرانية فقد((عرف عرب الشام النصرانية واتصلوا بها قبل غيرهم من العرب ، فاتخذت بعض القبائل هذا الدين ، كتميم وقضاعة وربيعة وتغلب)) [2]

فالديانة المسيحية دخلت البلاد حوالي القرن الأول الميلادي ، ثم دخل الإسلام لبنان على فترات متعددة بدأت في عهد الأمويين وتوالت بعد ذلك آخذة في الازدياد . ومع ذلك فقد ظل طابع لبنان العام مسيحيا حتى القرن الثالث عشر ، وأصبح للمسلمين كيان واضح بعد غزو الجيوش الصليبية للشرق الأوسط ، واستطاع المماليك إرسال قواتهم المسلمة لتحاربهم وتحول دون اتصالهم بمسيحي لبنان ، والذين كانوا يمدون يد العون للصليبيين في أثناء الهجوم على سوريا وخاصة طائفة الموارنة . [3]

وبذلك استطاع الدين الإسلامي التغلب على الديانة النصرانية واعتنقت الغالبية العظمى الدين الإسلامي ومنذ ذلك التاريخ ظهرت النعرات والعصبيات الدينية ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبخاصة في جبل لبنان الذي كان مسرحا لهذه الصراعات والحروب الطائفية . وخلال فترة الحكم العثماني

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص 28 .

(2) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج1، ترجمة عبد الحليم النجار ، طبعة دار المعارف ، مصر 1960م ، ص124.

(3) د/ حمدي الطاهري : سياسة الحكم في لبنان ، المطبعة العالمية ، ط2، 1976م، ص46.

للبنان كانت طائفة الدروز والموارنة تتحكمان في البلاد وظلت الحرب مشتعلة بين الفريقين لم تخمد على مر التاريخ . يقول في ذلك أنيس المقدسي : ((أما في جبل لبنان فالتوتر الطائفي كان بارزا بين الدروز والنصارى ، ولا سيما الموارنة منهم وما زال يشتد حتى انقلب إلى فظائع دموية في حوادث السنة الستين على أن التعصب الديني لم ينحصر بين المسلمين من جهة والمسيحيين من جهة أخرى ، أو بين هؤلاء والدروز بل اتسع نطاقه حتى شمل المذاهب الفرعية المنتمية إلى دين واحد ....فتركيا عملت على إثارة النعرة الإسلامية فحل التعصب الطائفي محل التحزب السياسي)) . (1)

أما من حيث الاختلاف بين الطائفتين – الدروز والموارنة – فإننا لا نلمح ثمة اختلاف يذكر من حيث نظم الحكم أو أساليب المعيشة واللهجة والعادات والآداب العامة ، والدليل على ذلك الود والترابط والعطف الذي يسود ما بين العائلات الدرزية والمارونية التي كانت تعيش على جنب حتى دخول إبراهيم باشا للشام ووقوف الموارنة بجانبه ضد الدروز مما ولد الضغائن بين الطرفين .

ولكن ما لبث الدروز والنصارى أن عادوا ثانية واتفقوا على الوقوف ضد إبراهيم سنة 1840م في اتفاقيتهم المشهورة التي وقعوها في انطاليس في نفس العام وأقسموا الأيمان المغلظة ألا يخونوا وألا يقفوا مع عدوهم . لكن هذا الود لم يدم طويلا بسبب سياسة تركيا وتدخل الدول الأجنبية مما أدى إلى مذابح دموية ودمار شامل . وربما خروج الجيش المصري من الشام عام 1840م أدى إلى تأزم الموقف فقد كانت سياسة قائده إبراهيم مدة احتلاله للبلاد إزالة الفواصل بين الطوائف المتحاربة ، بإرساء مبادئ المساواة والعدل ، ولكن عندما اضطر للانسحاب عاد

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص 29.

التعصب إلى شدته وبرزت البغضاء من مكامنها .(1) وعلى ذلك واصل الموارنة سياستهم التخريبية التعصبية ، بل نجدهم لم يقفوا في وجه الدروز بل وصل عدوانهم

إلـى كـل مـن يخالفــهم حتـى ولـو كـان نصـــــرانيا ، ممـا أدى إلـى إهـدارهم لحقـوق البروتسـتانت وغيـرهم مـن الطوائـف الأخـرى ، ووصـلت مطـامعهم إلـى التفكيـر فـي امتلاك البلاد كلها معتمدين في ذلك على المساعدات الفرنسية التي كانت ترسل إليهم بصـورة علنيـة . وقـد أدى ذلـك إلـى وقـوع مصـادمات قويـة ومجـازر بشـرية بـين الموارنـة والـدروز وقعـت فـي ديـر القمـر 1841م ، ويعلـق ((محمـد كـرد)) علـى هـذه الأحداث وما سبقها من أحداث قائلا : ((سبع عشـرة سـنة مضـت علـى الدولـة التركيـة وهـي تحـرك النعـرة الدينيـة لتضـرب الـدرزي بالمسـيحي والمسـيحي بالمسـلم ، حتـى وصلت إلى هذه النتيجة الممرضة من إهلاك من أهلكت وإضعاف من أضعفت))(2) .

" وبهذه الدسائس ساد الهياج في جميع أنحاء لبنان وظهر مـا تكنـه صـدور سكانه مـن الأحقاد الجنسية والدينية حتى تعدى الـدروز علـى المارونيـة سـنة 1841هـ ودخلـوا دير القمر ..... ولولا تدخل الجيوش ....لامتدت الثورة " (3)

و كان من نتائج هذه المذابح عزل بشير قاسم الذي كـان علـى الجبل وتعيين حاكمان من الدروز والآخر من الموارنة ، وكل ذلك لم يحل المشكلة ؛ بـل إن الأمـور ازدادت تعقيدا وزاد سـلب الأمـوال ودمـار الكنـائس والمسـاجد ؛ وعـم الاعتـداء فـي سنتي 1858- 1859م وانتهت الأمور بفتنة الستين التي اندلعت نيرانها بين الطائفتين ، وكان ذلك بإيعاز من الدولـة العثمانيـة التـي أمـرت الـدروز وحثـتهم علـى أن يقطعـوا دابر المسيحيين من بلاد الشام ، ظنا منهـا أنهـا تكـف بـذلك أيـدي الـدول المسيحية عن التدخل في شئونها ؛ إلا أن الأمر انقلب عليها بالتدخل الكامـــل للـدول

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ، 30.

(2) خطط الشام : ج3 ، ص ، 94.

(3) محمـد فريـد بـك المحـامي : تـاريخ الدولـة العليـة العثمانيـة ، تحقيـق إحسـان حقـي ، دار النفائس بيروت ، ط2 ، 1983م .

الأوربية ، وبعد هذه الفتن أصبح المـارونيون هـم أصـحاب النفـوذ الأكبـر والسيطرة التامة وقد حلوا محل الأمراء والمشايخ .(1)

وهكذا كان الدين في الدولة التركية فاقدا لروحه وصار شعائر ظاهرية لا تمس القلب ولا تحيي الروح ، وسادت الخرافات وانتشرت الأوهام .(2)

وحتى المسلمين لم يكونوا أقل تعصبا حيث جنى عليهم علماؤهم الذين صاروا يبثون فيهم روح العصبية ، ولم يكن لعلمائهم شغل سوى أن يزهدوا الناس في الدنيا ، ويبثوا في عقولهم أن السلطان هو ظل الله في الأرض وأن الملوك ملهمون(3)
هذا ما كان من اضطرابات الشام خلال القرن التاسع عشر ، من نزاع بين الطوائف ، إلى ضعف في الإدارات ، إلى تنافر بين أفراد الشعب الواحد ، وتغلغل للنفوذ ؛ على أن الحال ومنذ أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن أخذ يتغير تدريجيا . فالطبقة المستنيرة في المجتمع أخذت تبث في الناس روح التعاون والتسامح ، وتنمي فيهم الروح الوطنية مهما اختلفت المذاهب وطرق العبادة فهم أبناء وطن واحد . وكانت تلك حركة فكرية نيرة . ولكنها لم تكن واسعة النطاق .

---

(1) بولس مسعد : لبنان والدستور العثماني ، ط2، دار المعارف ، مصر 1909م ، ص42ومابعدها

(2) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ط2، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، 1975م ،ص ، 4-5 .

(3) عبد الرحمن الكواكبي : طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ،طبعة مطبعة المعارف ، مصر ، بدون رقم للطبعة ، ص: 117،114.

وفي ختام هذا المبحث نشير إلى أهم الطوائف الدينية في المجتمع اللبناني :

أ- المسلمون السنة وهم أتباع السلف الصالح من أئمة الدين ، ويوجد معظمهم في بيروت وطرابلس .

ب – الشيعة وهم أتباع الإمام علي بن أبي طالب" *رضي الله عنه* " وهم من الشيعة الاثنا عشرية ويقيمون في بعلبك والهرمل .

ج – الدروز وينسبون إلى محمد بن إسماعيل الدرزي ، ومن هنا جاءتهم التسمية وإن كانوا يفضلون أن يسموا بالموحدين ، وهم طائفة مسلمة كانت لها القوة والكلمة في ذلك الوقت ، ويقال إنهم أصلان من الطوائف الشيعية والإسماعيلية وفدت على لبنان لمخالفتها لدين الدولة السني(1) وينقسم الدروز إلى طائفتين الطائفة الأولى طائفة الروحانيين ، والطائفة الثانية طائفة الجسمانين . أما طائفة الروحانيين " العقال " تتكون من العقلاء والرؤساء والأجاويد ، وهم الذين بيدهم مفاتيح أسرار الدرزية ، وهؤلاء العقلاء بيدهم أسرار التنظيم الداخلي للمذهب ، والأجاويد بيدهم مفاتيح الأسرار الخارجية .

أما طائفة الجسمانين " الجهال " فتتكون من الأمراء وبيدهم شؤون الحرب والزعامة ، ولا يسمح للجسمانيين بالانتظام في صفوف الروحانيين إلا بعد اختبار طويل يظهر فيه الشخص استعداده لتلقي أصول المذهب الدرزي (2)

---

(1) حتى : سورية والسوريون من نافذة التاريخ ، طبعة نيويورك 1962م ، ص 50-51 .

(2) د/ حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام الديني والثقافي والاجتماعي ، النهضة المصرية، ج4 ، ط1، سنة 1967م ، ص262.

ويتمركز الدروز في محافظة جبل لبنان .

د – الموارنة وهي الطائفة النصرانية ومرجعهم إلى العنصر الآرامي ، وقد دخلوا سوريا في أواخر الألف الثاني قبل الميلاد واستطاعوا أن يؤسسوا فيها ملكا ضخما وان يحافظوا على لغتهم إلى ما بعد الفتح العربي . وما تزال لغتهم السريانية إلى الآن لغة الطقوس الدينية . (1)

أما مناطق الموارنة فقد نزحوا منذ القدم إلى شمال لبنان وأصبح موطنا دائما لهم . وظهر في موطنهم الجديد" القديس يوحنا مارون " صاحب المارونية الحديثة . ودخل الموارنة في العديد من الخلافات العقدية مع الكنائس المسيحية حتى عقد مجمع القسطنطينية عام 680م لمناقشة فكرة الموارنة ، مما انتهى بطردهم وحرمانهم . ثم تقاربت مرة أخرى بعد إجراء بعض التعديلات في الطقوس بيد البطريك ارميا العمشيتي عام 1213م وبلغ التقارب نهايته عام 1736م ، وأصبحت الكنيسة المارونية من الكنائس الأثيرة لدى باباوات روما ، وكان لويس التاسع أول صديق فرنسي للموارنة إذ تقدم إليه عندما نزل إلى عكـــــا وفد مكون من" 15 ألف" ماروني بالمؤن والهدايا ، وقد سلمهم رسالة تاريخية تعهد فيها بحمايتهم ، واستمر هذا التعاطف الغربي مع الموارنة في الأجيال التالية حتى أرسل نابليون الثالث فرقة فرنسية لتهدئة الجبل عام 1860م . (2)

وهذه المعارك الدائمة ما بين الدروز والموارنة والتي أفضت إلى مذابح دير القمر الشهيرة أو مذبحة الستين لم يمتد أثرها على الدروز والموارنة بل أنها عمت كل

---

(1) حتى : سورية والسوريون من نافذة التاريخ ، ص 30-31.

(2) د/ حمدي الطاهري : سياسة الحكم في لبنان ، ص 50-51.

البلاد وكان من نتائج هذه المذبحة أن عقدت دول أوربا في عام 1860م مؤتمرا في باريس ضم كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا ، ثم انضمت إليه تركيا ، وقرر المؤتمر شرعية التدخل العسكري لإحباط الفتنة القائمة . وبالفعل نزل الجيش الفرنسي مدينة بيروت ، وعقد مجلس ضم قناصل الدول في أكتوبر من نفس العام.

وانتهى إلى وضع " بروتوكول لبنان " وكان من أهم قراراته أن يصبح لبنان إقليما واحدا بدلا من منطقتين إحداهما للدروز والأخرى للموارنة ، وكان من نتائج هذا الاتفاق أن فصلت بعض المناطق عن لبنان ومعظمها إسلامية ، حتى يظل وجه لبنان مسيحيا . (1)

---

(1) حمدي الطاهري : سياسة الحكم في لبنان ، ص ، 54، 55 .

المبحث الثاني
الحياة الأدبية

مرت بلاد الشام بظروف قاسية أدت إلى التدهور في شتى نواحي الحياة ، ورغم عن ذلك استطاعت البلاد أن تنهض نهضة أدبية وعلمية حقيقية وقد كانت هنالك العديد من الظواهر التي تدل على هذه النهضة .

وفي مقدمة هذه الظواهر :

أولا : معاهد العلم والدراسة :

كانت منحصرة في بلاد الشام في القرن الماضي في المدارس البسيطة التابعة لبعض المساجد والأديرة والتي انحصر التعليم فيها على مبادئ القراءة والكتابة ومبادئ الحساب . ثم المعاهد الدينية العالية والتي كان هدفها تخريج خدمة للدين مثل " عين ورقة في لبنان " وبعض الحلقات الدينية في دمشق وحلب .(1)

وتعتبر مدرسة الجامع الأموي في دمشق في ذلك الوقت من أكبر المدارس الإسلامية وكان في دمشق وحلب وحمص وغيرها مدارس أخرى إسلامية في غير المساجد . كما كانت للشيعة مدارس . أما المدارس النصرانية فأقدمها في لبنان للطائفة المارونية ، كما كان للموارنة فضل السبق في إنشاء المدارس في لبنان في عهد بعيد .

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ، 35 .

وأشهر المدارس المارونية التي أنشئت في القرن الثامن عشر (مدرسة عين ورقة) وكان للروم الكاثوليك مدارس ، وكذلك كان للروم الأرثوذكس مدارس صغيرة في الكنائس والأديرة .(1)

ولقب الباحثون هذا العهد بعهد الجهل والظلام لان الشعب كان أميا ، والعالم إما كاهنا وإما شيخ دين .(2)

إلا أن المدارس لم تنتشر والنهضة لم تعرف في البلاد إلا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر حيث أسست مدرسة (عين طورا) سنة 1834التي تعلم فيها عدد من زعماء النهضة اللبنانية .

وفي الربع الثاني من القرن التاسع عشر انتشرت المدارس وعمت النهضة عندما دخل إبراهيم باشا البلاد واستطاع تأسيس الكثير من المدارس الابتدائية والكليات الثانوية في المدن الرئيسية ، كما أنه أفسح المجال أمام البعثات التبشيرية والأجنبية للوفود إلى البلاد ليبدأ نشاطها الفعلي في الأربعينات ، ويزداد بعد سنة 1860م. (3)

زيادة على ذلك أن تركيا لم تكن تعنى بأمور المعارف كما يجب وكان همها فقط استغلال الرعية ماليا ، ولذلك لم تخصص للتعليم في بر الشام إلا جزءا يسيرا جدا مما تجنيه من أهل البلاد . فكان المجال واسعا أمام البعثات الأجنبية

---

(1) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4، ص ، 395- 396 .

(2) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ، 3

(3) جورج أنطيوس : يقظة العرب ، ترجمة ، حيدر الركابي ، ط1 ، مطبعة الترقي ، دمشق 1946م ، ص ، 31 – 32 .

الأوربية والأمريكية فأسست المدارس الكثيرة . [1]

وبانتهاء النصف الأول من القرن التاسع عشر أخذت حركة التعليم في التقدم والازدهار على يد الأجانب والبعثات الدينية ، وبذلك فتحت العديد من المدارس والمعاهد العلمية من ذلك : أنشأ اليسوعيون والمبعوثون الأمريكيون مدرسة عين طورا بلبنان سنة 1834م ، ثم انشأ القس وليم طمسن الأمريكي مدرسة في بيروت عام 1835م ، ثم أنشئت أقدم مدرسة في لبنان سنة 1860م أنشأتها مسز بويت طمسن ، ثم الكلية الإنجيلية الأمريكية للبنات أنشئت سنة 1861م .[2]

ولعله كان لهاتين المدرستين الأخيرتين أثر عظيم في النهضة ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن تعليم الأم كان أول خطوة في تعليم الشعب .[3]

وكذلك ظهرت معاهد التعليم الأهلية وبدأت عندما أسس بطرس البستاني سنة 1863م المدرسة الوطنية في بيروت ، وهي من أوائل مدارس البنين وقد أنشأها بجهوده الخاصة واستطاع من خلالها أن يغرس في الطلاب المحبة الوطنية ، كما دعا إلى نبذ التعصب وكان له الفضل في تخريج جيل مستنير حمل راية الرعيل الأول . [4]

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ، 36 .

(2) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص ، 396 – 397 .

(3) جودت الركابي : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ،دار الفكر المعاصر ، بيروت- لبنان ،ط2 ، 1996م ، ص ، 266 – 267.

(4) شفيق البقاعي : أدب عصر النهضة ، ط1 ، دار العلم للملايين ، بيروت 1990م ، ص116 .

ثم ظهرت معاهد أهلية أخرى مثال المدرسة البطريركية عام 1863م في بيروت . ومدرسة الثلاثة أقمار 1866م ، ومدرسة الحكمة عام 1874م ، والكلية العثمانية عام 1895م وسواها . (1)

أما إذا تحدثنا عن التعليم العالي فنجده تمثل في ذلك الوقت في الكلية الأمريكية والكلية اليسوعية ؛ والأولى أنشأت ببيروت أيضا عام 1866م .والثانية ببيروت أيضا عام 1874م. (2)

ثانيا : التأليف والنشر :

وهما من آثار التعليم وانتشار الثقافة ، والتأليف والنشر إنما يتوقفان على الطباعة والصحافة . فالطباعة ظهرت في القطر الشامي قبل القرن التاسع عشر ، إلا إنها لم تكن ذات شأن يذكر ولم تقدم للعلم ونشر المعارف شيئا يذكر ، إلا بعد نصف القرن الثامن عشر . (3)

فالطباعة من العوامل المؤثرة في النهضة الحديثة و كان لها كبير أثر في نقل الفكر ونشر الثقافة . فلولا الطباعة ما كانت الصحافة . ولعل أقدم مطبعة عرفت في بلاد الشام هي مطبعة قزحيا في لبنان أنشأها الرهبان الموارنة سنة 1610م ثم غيرها من المطابع . إلا أن أول مطبعة طبعت الكتب العربية المختلفة هي مطبعة الأستانة سنة 1728م ،وقد كان للمطبعة اليسوعية في لبنان أثر كبير في النهضة الأدبية في الشرق العربي .

---

(1) جودت الركابي : الأدب العربي من الانحدار على الازدهار ، ،ص266-276.

(2) شفيق البقاعي : أدب عصر النهضة ، ، ص116 .

(3) عمر الدسوقي : نشأة النثر الحديث وتطوره ، ج2، طبعة دار الحمامي للطباعة والنشر ، مصر ، 1976م ، ص29.

ولعل غالبية الذين أسهموا في حركة الطباعة وإنشاء المطابع هم أنفسهم الذين يعملون على تأليف الكتب وترجمتها وتوزيعها أمثال اليازجي والبستاني والشدياق وغيرهم مما لا حصر لهم . وقد أدى انتتشار المطابع إلى انتشار الصحافة .

ثالثا : الصحافة :

وبدأت في الشام على أيدي البعثات الأجنبية عام 1851م وقد كانت عاملا من عوامل النهضة الأدبية والعلمية الحديثة . كما كانت سببا في انتشار الفصحى وجعلها لغة للجميع.

و ظهرت في بيروت عام 1851م صح
يفة دينية مسيحية شبيهة بالمنشورات ، حررها بعض الأدباء على رأسهم القس« عالي سميث » اسمها « مجموع الفوائد » وتبحث في الدين والعلوم والتاريخ والجغرافية ، وقد احتجبت بعد أربع سنوات من صدورها . (1)

أما أول صحيفة وطنية قامت في سوريا فهي (حديقة الأخبار) . (2) لمنشئها خليل الخوري اللبناني عام 1858م « ومن أشهر صحف هذا العهد المقتطف و «الهلال ....أما المقتطف فقد أصدرها يعقوب صروف في أول أمرها في بيروت عام 1876م أما الهلال فقد أصدرها في القاهرة جرجي زيدان عام 1892م » .(3)

والذي لا مجال لنكرانه أن هذه النهضة الصحفية كان لها كبير الأثر في تنبيه الشعور القومي وبعث اليقظة الفكرية والسياسية والاجتماعية في الشرق العربي كما

---

(1) لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ج2 ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، ط2، بيروت ، 1926م ، ص69 .

(2) فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، ج2، المطبعة الأدبية بيروت ، ط2، 1913م ، ص75.

(3) جودت الركابي : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، ص 275.

كان لها أثر عميق في اللغة والأدب بشكل خاص فقد ساعدت على بعث الحرية، كما نددت بسياسة الفاطميين والحاكمين وأبانت جشع المستعمرين ، ورسمت طريق الخلاص . كما كانت ميدانا تدرب فيه أكثر كتاب عصر النهضة . (1)

رابعا : الاستشراق :

يعد الاستشراق من العوامل المؤثرة في النهضة الحديثة في ذلك العصر ويعود ذلك إلى ما قام به المستشرقون من جهد في سبيل اللغة وآدابها ، وإحيائهم للثقافة العربية القديمة ، وبحثهم في مناهل الأدب العربي الحديث . قال جودت الركابي في ذلك : ((لا نستطيع نكران فضل المستشرقين على اللغة العربية وآدابها وعلى التاريخ الإسلامي ، واهتمامهم بالكشف عن كنوز هذه اللغة وهذا التراث الضخم من أدب العرب وعلومهم ، وقد ساعدهم على العمل تفرغهم للبحث ، واهتمام أممهم التي منحتهم المال ...... وهيأت لهم المطابع والمنابر الجامعية لتدريس اللغة العربية والبحث العلمي .(2)

وتقع أهمية المستشرقين فيما قدموه للغة العربية والأدب العربي من خدمات تمثلت في فتحهم لمعاهد التدريس والبحث ، كذلك دوائر المعارف الإسلامية التي ألفوها بلغاتهم الغربية ، (3) كما أنهم عملوا على تدريس الأدب العربي في جامعات بلادهم (4) كما نشروا الكتب العربية المذيلة بالفهارس والشروح الممتازة بالدقة والضبط ، المستقاة من المصادر الأولية المخطوطة . (4)

---

(1) الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار : ص 277 .

(2) المرجع السابق : ص ، 301

(3) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، 106.

(4) أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، ط1 ، دار بن زيدون ، بيروت ، 1985م ، ص ، 188.

وغير ذلك كثير ، ولكن ذلك لا ينفي مساوئهم التي تمثلت في محاولاتهم صبغ المجتمع العربي بعاداته وآدابه ومعارفه وثقافته بالصبغة الغربية .

خامسا : الترجمة :

وأيضا من عوامل النهضة الترجمة من وإلى العربية . وقد بدأت حركة الترجمة باستقدام الأساتذة الأجانب للتدريس في المدارس الخصوصية ....لطلاب لا يعرفون اللغة العربية ، فاقتضت الضرورة استقدام المترجمين وكان معظمهم من السوريين والمغاربة والأرمن ، وهؤلاء قاموا بجهد مشكور في إحياء التراث العلمي القديم واستحداث مصطلحات علمية تناسب المصطلحات الجديدة ، وترجمة طائفة من الكتب في العلم والطب والتشريع إلى أن استقر الرأي على إرسال البعثات إلى أوربا لأخذ العلم الحديث من منابعه ، فأرسلت أول بعثة علمية سنة 1826م ، وكان على رأسها رفاعة رافع الطهطاوي ، الذي يعد أول رواد النهضة الحديثة ، . إلى أن اتسعت الترجمة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر نتيجة لهجرة كثير من الأدباء السوريين إلى مصر فرارا من الفتن الطائفية ، ونتيجة لظهور جيل ممن تخصصوا في اللغات الأجنبية ونبغوا فيها ، مما أدى إلى نهضة الترجمة وانطلاقها إلى الميدان الأدبي بعد أن كانت علمية . (1)

((ومن أشهر المترجمين في لبنان سليمان البستاني (1856 – 1925م) الذي نقل إلياذة هوميروس إلى اللغة العربية شعرا ، فاطلع العرب على نموذج من الأدب الغربي)) . (2) وترجمة وديع البستاني ل ((رباعيات الخيام)) الفارسية معتمدا على ترجمة إنجليزية . (3)

---

(1) حسين علي محمد : الأدب العربي الحديث ، ص ، 17.

(2) جودت الركابي : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، ص 283 .

(3) صلاح لبكي : لبنان الشاعر ، ط2، دار الحضارة بيروت 1964م ، ص79.

سادسا : المجامع العلمية والأدبية :

ومن العوامل المؤثرة في النهضة الحديثة المجامع العلمية والأدبية ، والجمعيات الثقافية ومن أول المجامع التي أسست في البلاد العربية ، المجمع العلمي العربي بدمشق ، اسمه الآن (مجمع اللغة العربية) ، فقد أسس سنة 1912م بناءا على اقتراح العالم محمد كرد علي في عهد حكومة رضا باشا الركابي وقد قام بجهود مشكورة في وضع بعض المصطلحات العلمية الحديثة ، وتصحيح بعض أغلاط الدواوين ونشر المؤلفات والمخطوطات وإلقاء المحاضرات وله فضل في بعث نهضة أدبية في دمشق . (1)

وأول الجمعيات الثقافية هي ((الجمعية السورية)) في بيروت عام 1847 م ثم تتابع ظهور هذه الجمعيات بمصر والشام والعراق والمغرب والأردن ، وكان من أشهرها ((جمعية التأليف والترجمة والنشر)) عام 1914م ،وجماعة ((أبولو)) عام 1932م . وكان الهدف من إنشاء هذه الجمعيات تبادل الفكر والحوار بين الأدباء ، في كل مسائل الأدب ومدارسه واتجاهاته ، ونشر الإبداع والدراسات الأدبية . (2)

النثر :

أما إذا تحدثنا عن النثر في هذا القرن فقد كان أقوى سبب لتطور النثر الحديث هو الاتصال ما بين الشرق والغرب ، فقد تعددت أغراضه ومجالاته ، وتناول العديد من مشكلات الحياة ومظاهرها . ومن أنواع النثر التي شاعت في ذلك العصر : المقالة التي ظهرت بظهور الصحافة والتي استمدت مقوماتها من فن الرسالة قديما والمقالة الغربية حديثا ، ثم الرواية . فالقصة لها مكانة معروفة بين الأنواع الأدبية الحديثة وربما عرفت بسيدة الأدب المنثور ولها أنواع عديدة . ثم القصة القصيرة التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر وازدهرت في القرن

---

(1) حسين علي محمد : الأدب العربي الحديث ، 25.

(2) المرجع السابق ، ص، 25 .

العشـرين فتعـددت اتجاهاتهـا . وكثـر كتابهـا فاهتمـت بهـا الدراسـات النقديـة ،ثـم المسرحية التي يقال إن أدبنا العربي لم يعرفها قبل العصر الحديث .

ومن أنـواع النثـر التـي شـاعت فـي تلـك الفتـرة أيضـا ((النثـر الاجتمـاعي)) الـذي يدعو إلى إصـلاح مفاسـد المجتمـع ، وتحريـر المـرأة ، وتعليـم الناشـئة ومـا إلـى ذلـك . وهذا النوع من النثر اعتمد على العبارة الصحيحة بعيدا عن الزينـة والزخـرف ولعـل السبب في ذلك كمـا وضـحه حنـا الفـاخوري بقولـه : ((وذلـك لأن الفكـر منصـرف إلـى تفتيق المعاني لا الجري وراء كلمة أو سجعه)) .(1)

الشعر :

أما الشعر فقد نهض في هذا العصر تحت تـأثير العوامـل المختلفـة التـي أثـرت في نهضة الأدب الحديث . إلا أنه ظل في مطلع هذا القرن تقليديا يميل إلـى الألـوان التقليدية القديمة من مثل شعر المناسبات والرثاء والمدح ، ثم انتقل إلـى مرحلـة جديـدة من التطور صحبها أيضا تطور القوالب الشعرية .

وهـذا اللـون مـن الشـعر التجديـدي كانـت لـه مميـزات أشـهرها أنـه تميـز ((بوضوح الفكرة وجودة الأداء))(2) ورأى أصـحاب هـذا النـوع مـن الشـعر أن الشـعر لا بد أن يصور حال العصر وأن يطبع بطابعه وهذا النوع يضم ثلاث مـدارس ، أولهـا : مدرسة المخضرمين .(3) التي رأت الالتزام بالصبغة العربية القديمة والمحافظة على هيئة القصيدة القديمة .

---

(1) حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ، ط3، المطبعة البوليسية 1960م ،ص ، 937.

(2) جودت الركابي : الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، ص331.

(3) حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ، ص960.

وثـاني هذه المـدارس الشـعرية ((مدرسـة المتطـرفين)) وكـان رصـيدها مـن الشعر شديد التحرر بسبب احتكاكها بالغرب أو بالشعوب الأمريكيـة ، فكـان أصـحابها يستعيرون من الغرب معارض تفكيرهم وشعورهم وصور خيـالهم(1) ودعـا أصـحاب هذه المدرسة إلى هجر الأساليب العربية القديمة والثورة على كل ما هو عربي قـديم ، . وأبرز من مثلوا هذه الاتجاه جبران خليل جبران (1931) وأشهر البلاد التي عرفت بهذا النوع من الأدب لبنان والمهاجر .

ثالث هذه المدارس هي ((مدرسة المبدعين)) التي عملت علـى إخـراج الشـعر من أغراضـه القديمـة إلـى أغراض جديدة ، فوصـف شـعراء هذه المدرسـة المنشـآت المدنية الحديثة ومستحدثات العلم ونوازع العاطفة الوطنية (2) ومن رواد هذه المدرسة احمد زكي أبو شادي وميخائيل نعيمة وغيرهما.

---

(1) حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ، ص، 964.

(2) كمـال اليـازجي : رواد النهضـة الأدبيـة فـي لبنـان الحـديث ((1800-1900)م ، ط1 ، بيـروت 1962م ، ص ، 148 .

المبحث الثالث

أهم أعلام الأدب في هذه الفترة

طائفة العلماء والأدباء التي حاولت النهوض بالأدب في أواسط القرن التاسع عشر ، كانت قد سبقتها طائفة من الأدباء اقل منها شأنا ، طائفة لم تسطع أن تنهض بالأدب ، فقدر لهذه الطائفة أن تنهض بالأدب وتقوم ما اعوج من آدابه .

ومن أدباء الرعيل الأول في هذا القرن :

الشيخ أحمد البربير البيروتي : وهو من أدباء القطرين (مصر والشام)، ولد في مدنية دمياط بمصر عام 1747م ، وقد نشأ في هذه المدينة ، ثم انتقل منها إلى الشام واستقر به المقام في بيروت . وكان أديبا وشاعرا ، أغرم بأدب العرب القديم وكان أثره واضحا في شعره ونثره ، فأنشأ المقامات ونظم البديعيات وله مراسلات كثيرة مع أدباء عصره ، توفي بدمشق 1811م . (1) من آثاره : مقامات البرير ، بديعية شرحها مصطفى الصلاحي ، الشرح الجلي على بيتي الموصلي ، منظومات متفرقة دارت بينه وبين معاصريه نشر بعضها في المشرق (2)

وكان الشعر ضعيفا ، حاله حال مختلف آداب اللغة العربية قبل هذا العهد ، حتى جاء بعده شعر الرعيل الأول الذي كان يسير على طريقة الشعر القديم ، وتقليد فحول الشعراء والأدباء .

---

(1) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، ط دار العلم ، بيروت ، 1952م ،ص36.

(2) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4، 574.

ومن شعراء الرعيل الأول :

بطرس كرامة : الذي ولد عام 1774م في حمص ونشأ ودرس فيها ، وله كتاب ((سجع الحمامة))والذي حاول أن يدخل فيه شيئا من روح الشعر العباسي توفي بلبنان 1851م .(1).

أما أهم الأدباء والكتاب والشعراء الذين نضج الأدب على أيديهم :

اليازجيون :

من العائلات الأدبية الشامية النصرانية التي خدمت اللغة العربية والآداب . وهم الشيخ ناصيف اليازجي وأسرته ، يعود أصلهم إلى حمص ، رحلوا إلى ساحل بيروت وأقاموا بها (2)، وأصل العائلة والأب الروحي والفعلي لهذه الأسرة :

الشيخ ناصيف اليازجي ينتمي إلى العائلات الأدبية الشامية النصرانية التي خدمت اللغة العربية والآداب . ولد بكفر شيماء من قرى لبنان ونشأ في بيت علم وأدب ، استكتبه الأمير بشير الشهابي فكتب له ولزمه اثنتي عشرة سنة حتى أخرج من بلاده سنة 1840م ثم رجع إلى أهله في بيروت وانقطع إلى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء ومساجلة الشعراء ، أولع بالبديع وعالج المقامات فانشأ منها ستين مقامة أجاد فيها التقليد وأتقن الاحتذاء وبلغ من الحلية اللفظية الغاية (3)

---

(1) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، ج3، مطبعة الترقي ، دمشق ، 1957م ، ص ، 54-53

(2) لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ج2 ، ص27 .

(3) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ط 24 ، دار نهضة مصر القاهرة ، ص468 .

الشيخ خليل اليازجي :

هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي وشقيق الشيخ إبراهيم اليازجي . كان شاعرا مطبوعا . درس آداب اللغة العربية منذ نعومة أظفاره ، ودرس الرياضيات والطبيعيات ، جاء إلى مصر سنة 1881م ، وانشأ فيها مجلة مرآة الشرق . ثم عاد إلى بيروت وتولى تدريس اللغة العربية في المدرسة البطريكية والكلية الأمريكية . من آثاره : ديوان شعر بعنوان (نسمات الأوراق) وغير ذلك من الدواوين الشعرية . وله رواية شعرية تمثيلية بعنوان (المروءة والوفاء) ، كما قام بتنقيح كتاب كليلة ودمنة ، وضبطه بالشكل الكامل ، وفسر الغامض من ألفاظه . ووقف على طبعه توفي عام 1889م . (1)

إبراهيم اليازجي :

العلامة اللغوي الناقد الكاتب ،هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي ولد ببيروت سنة 1847م في بيت مشهور بالأدب وتلقي العلم عن أبيه الشيخ ناصيف عميد الأسرة اليازجية ، وتعلم إبراهيم اليازجي الفرنسية والعبرية والسريانية والإنجليزية ، ونظم الشعر في شبابه كما برع ايضا في النثر .

من آثاره ما نشره من مقالات وأبحاث علمية وأدبية ولغوية واجتماعية وتاريخية ، ونقد في مجلات وجرائد زمانه التي شارك في تحريرها كالمصباح والطبيب في بيروت . والتي أنشأها مع الدكتور بشارة زلزل ((كالبيان)) .

---

(1)جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص ، 582 .

أو التي استقل بتحريرها كمجلة « الضياء » ومن الكتب التي قام بتأليفها كتاب «نجمة الرائد في المترادف والمتوارد » وله كتاب سماه « لغة الجرائد » وله ديوان شعر بعنوان « العقد » وله « الفرائد الحسان من قلائد اللسان » في اللغة . كما أنه شرح العديد من كتب والده ونقحها واختصرها ، مات في القاهرة 1906م ونقل جثمانه إلى بيروت ليدفن بالقرب من والده .(1).

ومن أبناء الشيخ ناصيف أيضا :

الشيخ حبيب :

ولد عام 1833م . نشأ وترعرع في حضن أبيه ، وتلقى عليه العربية والشعر . تعلم اللغات الأجنبية وأجاد الفرنسية والإنجليزية والإيطالية كما برع في الحساب والجبر . من آثاره : (اللامعة في شرح الجامعة) ، وهو عبارة عن شروح على أرجوزة والده ، (الجامعة في العروض) ، كما ترجم بعض المؤلفات الأجنبية ، وله أيضا منظومة شعرية . توفي عام 1870م . (2)

البستانيون :

أسرة من الأسر التي نهضت بالآداب العربية في القرن التاسع عشر ، فكانت سببا من أسباب النهضة في هذا العصر ، وعلى رأسهم العالم المعلم

بطرس البستاني :

ولد العالم اللغوي بطرس بولس البستاني الماروني بقرية من قرى

---

(1) عيسى إسكندر المعلوف : تاريخ المشايخ اليازجيين ،طبعة دير المخلص ، بيروت، 1940م، ص ، 66- 81 .

(2) لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ج2 ، ص ، 35-36 .

لبنـان تسـمى الديبـة علـى عهـد الأميـر بشـير ، تعلـم العربيـة والسـريانية واللاتينيـة والإيطالية وتفقه في الفلسفة والفقه وتبحر فـي التـاريخ والجغرافيـة والحسـاب [1] تمتـاز كتابته بالانسجام ، والبساطة في اختيـار الألفـاظ والأسـاليب ، وكـان فـي عهـده زعيم الحركة الأدبية في سوريا ، ومن آثـاره فـي النحـو واللغـة والأدب « دائـرة المعـارف » التي أصدر منها ستة أجزاء توفي بعدها وأكمل أبناؤه وأحفاده عمله من بعده ، وهـي قـاموس عـام لكـل فـن وكـان الأول مـن نوعـه فـي اللغـة العربيـة . ووضـع فـي متنهـا معجمين أحدهما مطول وهو « محيط المحيط » والآخر مختصـر السـابق وهـو « قطـر المحيط » أعتمد فيها أسلوبا سهلا وترتيبا واضحا وميز بـين العـامي والفصـيح وأغنـى اللغة بإضافة كثير من تعابير العلوم . وله مؤلفات أخرى في الرياضيات والاجتمـاع . توفي بناحية بوارج من بقـاع العزيـز 1883م ونقل جثمانـه ليدفن فـي بيـروت .[2] ثم ننتقل بعده إلى ابنه :

سليم البستاني اللبناني :

هـو سـليم بـن بطـرس اللبنـاني ، كـان عونـا لأبيـه فـي مشـروعاته العلميـة فـي إدارة المدرسـة ، وتحريـر الجنـان وإدارة المطبعـة . وكـان يكتـب فـي الجنـان مقـالات فـي السياسة والاقتصاد والأدب . ألف عدة روايات تمثيلية وقصصية ، كروايـة الإسكندر وقيس وليلى ، والهيـام فـي جنـان الشـام ، وزينوبيـا وغيرهـا ، كمـا قـام بترجمـة تـاريخ فرنسا الحديث ، توفي بعد وفاة أبيه بقليل[3]

(1) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ، 474 .

(2) لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ج2 ، ص 110 .

(3) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص ، 612 .

ومن البستانين :

عبد الله البستاني :

هو عبد الله بن ميخائيل بن ناصيف البستاني ، لغوي وأديب ، درس بالمدرسة الوطنية ببيروت ، قضى حياته في تعليم اللغة العربية بمدرستي الحكمة المارونية والمدرسة البطريكية ببيروت ؛ كان عضوا بالمجمع العلمي بدمشق ، من آثاره : «البستان» عبارة عن مجلدين في اللغة واختصره في كتابه « فاكهة البستان » وله روايات شعرية منها « امرؤ القيس » و « وفاء السموأل » وله أيضا روايات تمثيلية وعدة تراجم عن الفرنسية . توفى ببيروت عام 1830م ودفن بدير القمر . (1)

آل المراش :

من العائلات الأدبية النصرانية في ذلك العصر (آل المراش) الذين عرفوا في حلب منذ القرن الثامن عشر، ويعتبرون في القرن التاسع من منارات الأدب واللغة . وعلى رأسهم **فتح الله المراش الحلبي** ، أديب وشاعر شارك في كثير من العلوم من آثاره كتاب « في انبثاق الروح القدس» و « شهادة الطبيعة جود الله والشريعة » ,«وغاية الحق في تفصيل الأخلاق الفاضلة وأضدادها » . ومن آثاره الأدبية ديوان شعر وكتاب« مشهد الأحوال في الأدب المنظوم والمنثور . »(2)

أما ابنه « **فرانسيس** » فقد ولد بحلب سنة 1836م وكان أكثر شهرة من أبيه ، درس بحلب العلوم اللسانية وآداب الشعر والطب. ثم سافر إلى باريس ، إلا أنه عاد منها بعد عام واحد ، وتفرغ للتنصيف ، وكان يراسل أهل الفضل في زمانه كالشيخ ناصيف اليازجي . وله مؤلفات في الطبيعة ومؤلفات في الدين المسيحي ،

---

(1) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص ،589.

(2) حنا الفاخوري : تاريخ الأدب العربي ، ص ، 1087- 1092 .

ومؤلفات أدبية منها ديوان بعنوان « مرآة الحسناء » ورواية بعنوان « در الصدف في غرائب الصدف » وكتاب « رحلة باريس » توفي في حلب عام 1873م . (1)

ومن هذه الأسرة المراشية الحلبية الشهيرة « **ماريانا مراش** » وهي ابنة فتح الله وشقيقه فرنسيس . عرفت في وطنها وبين بنات جنسها بنظم الشعر وكتابة المقالات الأدبية ولدت في حلب عام 1848 م . ودرست مبادئ اللغة العربية والحساب وبعض العلوم . درست الموسيقى بنفسها ، وكانت حسنة الصوت . نشرت مقالات في مجلة « الجنان » وجريدة «لسان الحال » وقيل : إنها أول سيدة عربية سورية أنشأت مقالة في مجلة أو جريدة توفيت بحلب 1919م ، بعد مرض طويل ، ومن آثارها ديوان « بنت فكر. (2)

بعد ذلك ننتقل إلى أبرز أعلام النهضة ، ونبدأ بعلم من هذه الأعلام التي لا يشق لها غبار :

أحمد فارس الشدياق :

من أبرز أعلام هذه النهضة ولد في عشقوت بلبنان من أسرة مارونية ، ثم دخل مدرسة عين ورقة ودرس فيها اللغة والنحو . بدأ يقرض الشعر وهو في العاشرة من عمره . هاجر إلى مصر بعد مضايقة رجال الدين المسيحي له بعد قتلهم شقيقة أسعد ، ثم رحل إلى مالطة وبعدها إلى أوربا وتونس التي اعتنق فيها الإسلام وسمى نفسه أحمد . (3)

---

(1) لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ج2 ، ص45.

(2) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة ، ص ، 92 – 105.

(3) احمد حسن الزيات : تاريخ آداب العربية ، ص ، 470 – 471 .

من مؤلفاته « عبقرية أحمد الشدياق » وهي قصة تعذيب أخيه أسعد وموته على الالكليروس الماروني . « الساق على الساق فيما هو الفارياق » وهو أشبه بالسيرة الذاتية ، حكى فيه ما عاناه في أيامه وأبرز فيه غرائب اللغة العربية ونوادرها ، وذكر محامد النساء ومذامهن ، وسكبه في قالب أقرب إلى المقامات . « الواسطة في أحوال مالطة » كتاب وصف فيه جزيرة مالطة وصفا شاملا لم يغادر شيئا إلا أحصاه ، ووضح فيه أصل اللغة . « سر الليالي في القلب والإبدال » كتاب لغوي كما يدل اسمه . «كشف المخبأ عن فنون أوربا » وفيه وصف عادات الإنجليز وآدابهم وأخلاقهم وتاريخ تمدنهم . « الجاسوس على القاموس » وفيه رصد أخطاء الفيروز أبادي ثم نقده ، « الجو ائب » وهي جريدة صدرت في الأستانة وكان لها شأن في الشرق والغرب . توفى بالقسطنطينية عام 1887م ونقل جثمانه إلى لبنان . (1)

ومن أعلام الأدب أيضا :

خليل الخوري اللبناني :

ولد في لبنان كان متقنا للغة الفرنسية والتركية ، مما أهله لارتقاء المناصب السياسية حتى صار مديرا للأمور الأجنبية في سوريا . كانت له منزلة رفيعة لدى رجال الدولة ، ويعتبر مؤسس الصحافة العربية في سوريا ، فقد أنشأ فيها أول صحيفة عربية سنة 1858م . نعني « حديقة الأخبار » التي ظلت تصدر حتى قبيل وفاته .

وبالإضافة إلى ذلك هو شاعر مطبوع من دواوينه الشعرية « زهر الربا » ، و «العصر الجديد » ، و « الشاديات » ، و « النفحات » ، و كلها مطبوعة في بيروت ، وله روايات أدبية . كما نقل عن التركية كتاب تكملة العبر لصبحي باشا وهي تتمة تاريخ ابن خلدون ، توفي عام 1907م . (2)

---

(1) فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية في القرن التاسع عشر ، ص ، 97-99.

(2) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص ، 589 .

ولا يقل عنه شأن الأديب المعروف :

ناصيف المعلوف اللبناني :

هو من أسرة معلوف الشهيرة في سوريا ومصر ، أتقن اللغات العربية والفرنسية واليونانية والإيطالية . سافر إلى إيطاليا وانتظم في سلك أساتذة اللغات الشرقية في البروبوغاندة ، كان شديد الكلف بدرس اللغات فأتقن الإنكليزية والتركية واليونانية الحديثة . ألف 27 كتابا ، أكثرها كتب تعليمية لغوية . نال وسامات الدولة العثمانية ، وعضوية جمعيات كثيرة ، توفى عام 1865م . (1)

الحاج حسين بيهم البيروتي :

من أسرة عريقة في الحسب والنسب في بيروت ، نشأ في بيروت وفيه ميل إلى العلم والأدب وقريحة شعرية . درس على يد الشيخ محمد الحوت والشيخ عبد الله خالد . عمل أولا في التجارة ، ثم انقطع للعلم . كان عضوا في الجمعية العلمية السورية سنة 1868م ، ثم انتخب رئيسا لها عند وفاة رئيسها الأمير محمد أرسلان ، تولى عدة مناصب في الحكومة العثمانية ،من آثاره : ديوان شعر ، ورواية أدبية وطنية ، توفى عام 1881م .(2)

ومن أعلام الأدب أيضا ((**يوسف الأسير**)) وهو يوسف بن عبد القادر ، والأسير لقب جده . أديب وفقيه وشاعر ولغوي وصحافي ، ولد بصيدا 1815م ثم سافر إلى دمشق ليدرس بالمدرسة المرادية عاد بعد ذلك إلى صيدا وفيها عمل بالتجارة ثم توجه إلى الأزهر فأقام بها سبع سنين عاد بعدها إلى بيروت ثم سافر إلى القسطنطينية فتولى رئاسة تصحيح الكتب وتدريس اللغة العربية ، ثم عاد على بيروت مرة أخرى

---

(1) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص ، 589 .

(2) المرجع السابق : ص ، 581 .

.

كان رئيسا لتحرير جريدة « ثمرات الفنون » وجريدة « لسان الحال » ، من مؤلفاته ديوان شعر بعنوان « الروض الأريض » ، وله مؤلفات في القرآن والفقه كما شرح أطواق الذهب للزمخشري وله رواية بعنوان « سيف النصر » توفي في بيروت 1889م . (1)

ومن أعلام الأدب كذلك « **إبراهيم الأحدب** » عالم وأديب ولد ونشأ بطرابلس ودرس بها ، ثم سافر إلى بغداد وزار مصر ثم عاد إلى بيروت ، خدم الأدب والآداب ، وكانت له منزلة رفيعة بين أدباء عصره ، وعندما نشبت فتنة الدروز والنصارى 1860م عاد إلى طرابلس ، وفي بيروت تولى تحرير جريدة « ثمرات الفنون » التي كان يتولاها قبله صفية الأسير ، ثم انتخب عضوا في مجلس المعارف ببيروت وتقلد كثيرا من الرتب السلطانية . له ثلاث دواوين أحدها « النصح المكي» وثمانون مقامة وله كتاب « كشف المعاني والبيان عن رسائل بديع الزمان » ، وجارى الزمخشري في كتابه « فرائد الأطواق في أجياد محاسن الأخلاق » ومن تأليفه أيضا « فرائد الآل في مجمع الأمثال » و « كشف الأرب عن سر الأدب » ، و «تأهيل الغريب » و « مهذب التهذيب في المنطق » ، توفي ببيروت عام 1891م . (2)
ومن الأدباء الذين عاصروا زيدان وكانوا على صلة به :

يعقوب صروف :

ولد يعقوب في قرية (الحدث) قرب بيروت ، وتلقى العلم في مدارس تلك الأيام ،

---

(1) لويس شيخو : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ج1 ، ص ، 75 .
(2) فيليب طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، ج1 ، ص ، 14 .

التحق بالكلية السورية الإنجيلية لإتمام تحصيله العلمي ، وفي سنة 1870م تخرج فيها برتبة بكالوريوس علوم ، وبعد خروجه قضى ثلاث سنوات يدرس في صيدا وطرابلس ، ثم دعته عمدة الكلية للتعليم فيها ، وعهدت إليه بتدريس العلوم الطبيعية والرياضية والبيان ، وفي تلك الأثناء كان زميله فارس نمر قد نال شهادة هذه الكلية والتحق للعمل بها في هيئة التدريس ، فتمكنت بينهما الصداقة ، التي أفضت إلى شركة دامت بينهما مدى الحياة ، ففي سنة 1876م أسسا معا مجلة ((المقتطف)) وهما لا يزلان مدرسين في الكلية ، وبقيا يصدرنها من بيروت ما يقرب من عشر سنوات . ثم انتقلا بها إلى مصر ، وهنالك أسسا مع شاهين مكاريوس جريدة ((المقطم)) اليومية . فانصرف نمر لتحرير المقطم وتفرغ صروف لتحرير المقتطف . وعن طريق هذه المجلة استطاع خدمة الأدب والحضارة أكثر من خمسين عاما ، من أهم آثاره : أبواب في الأدب تشمل العديد من المقالات والسير ، والروايات وسواها . فالروايات له منها : ((فتاة مصر)) ، و((فتاة الفيوم)) ، و ((أمير لبنان)) .(1)

ومن أعلام الصحافة في ذلك العصر :

سليم وبشارة تقلا اللبنابين :

هما من مؤسسي الصحافة المصرية . ولد سليم في كفر شيما بلبنان سنة 1849م ، وتعلم مبادئ العلم في مدارس القرية ، انتقل مع أهله إلى بيروت ودخل المدرسة الوطنية للبستاني ، ونبغ في التعليم حتى تعين معلما في المدرسة البطريكية ولم تقنع نفسه بذلك ، فرحل مع أخيه بشارة إلى مصر وأنشاءا جريدة الأهرام سنة 1875م أسبوعية بالإسكندرية ثم جعلاها يومية .ولما توفي سليم انتقل بها بشارة إلى

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الأدبية الحديثة ، ص ، 240-251.

القاهرة . وتوفي بشارة سنة 1901م فصارت إلى نجله جبرائيل . ولا تزال تصدر إلى الآن . (1)

غير هؤلاء الذين ذكرنا من أعلام الأدب كثر ؛ إلا إننا نكتفي بهذا القدر منهم . وقد اخترناهم لنبوغهم وتميزهم بين أعلام الأدب في هذه الفترة ، إضافة إلى صلتهم المباشرة أو غير المباشرة بصاحب روايات تاريخ الإسلام - موضوع البحث - جرجي زيدان - .

وقد كان لأعلام الأدب في هذه الفترة فضل كبير على الآداب العربية عامة ، واللغة العربية خاصة ، فقد بذلوا الغالي والنفيس في سبيل الارتقاء بها ، والنهوض بآدابها ، ويكاد يكون المتفق عليه عند المؤرخين أن أركان النهضة في سوريا ولبنان ثلاثة هم : الشيخ ناصيف اليازجي وبطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق . فالشدياق كان زعيم الكتابة الأدبية والبحث اللغوي ، والبستاني حامل لواء الإصلاح العلمي والاجتماعي ، وأما اليازجي فقد امتاز بالصناعتين " النثر والشعر " . (2)

ويتجلى لنا من ذلك كله أن حركة إحياء اللغة العربية لم تكن قاصرة على نفض الغبار عن ذخائرها ؛ بل ساهمت إلى جانب ذلك في جريان دم جديد بعروقها ، فنفض عنها الغبار ناصيف اليازجي ورفاقه ومدها بطرس البستاني وجماعته بدم جديد عن طريق أغنائها بالمعارف ، وبث فيها الشدياق وصحبه روحا زاخرة بتجديد بيانها ، وتطوير أساليبها . فكان عمل هؤلاء الثلاثة في اللغة متكاملا ؛ حيث دون

---

(1) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص ، 613 .

(2) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص ، 55 .

اليـازجي أصـولها ، وأحيـا بيانهـا ، ومـدها البسـتاني بـالعلوم وأغناهـا بالمعـاني ، وفلسف الشدياق أوضاعها وحررها مـن التقليـد . [1] وبـذلك نـهضـت اللغـة العربيـة مـن سباتها العميق الذي كبلها لقرون عديدة .

(1) كمال اليازجي : رواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث ، ص124 .

المبحث الأول

نشأته وحياته

هو جرجي أو جورجي بن حبيب زيدان ، مؤرخ ، صحافي ، قصصي ، لغوي مشارك في بعض العلوم (1). ينحدر من أسرة لبنانية رقيقة الحال كادحة كانت تعيش في ((عين عنوب)) اللبنانية ، ثم حدثت ظروف اضطرت جدته لأبيه إلى الهجرة إلى بيروت مع بنتها وابنيها وأكبرهم حبيب زيدان والد جورج .

ولد جورج في بيروت في 14 ديسمبر (كانون الأول) 1861م، (2) وفي الخامسة من عمره أرسله أبوه إلى مدرسة يديرها القسيس إلياس شفيق ، ثم منها إلى مدرسة الشوام حيث تعلم اللغة الفرنسية ، ثم إلى مدرسة المعلم مسعود الطويل حيث تعلم اللغة الإنجليزية .(3)

ولم يكن هدف والد جورج من إرسال ولده إلى المدرسة تعليم الابن حبا في التعلم ، وإنما كان بهدف أن يتعلم الكتابة والقراءة والحساب حتى يساعده في إدارة مطعمه وضبط حساباته ، فوالد جورج كان رجلا أميا يمتلك مطعما صغيرا يقوم بإدارته بنفسه ، وكان يتردد على هذا المطعم طائفة من رجال الأدب واللغة وطلاب الكلية الأمريكية والتي كانت في أول عهد إنشائها سنة 1866م . (4)

---

(1) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، ج3، ص125.

(2) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ، ج3، دار مكتبة الحياة ، ط2، 1978م، ص645.

(3) الموسوعة العربية العالمية : الناشر مؤسس أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع ، الرياض 1996،ط1، ص689 .

(4) محمد عبد الغني حسن :سلسلة أعلام العرب ، جرجي زيدان ، الهيئة المصرية العامة للطباعة والنشر والتأليف ، 1970، بدون تاريخ طبعة ، ص7.

ثم اضطر زيدان بعد ذلك إلى ترك التعلم بالمدارس ومساعدة والده في المطعم ، ولكن والدته كانت تكره له العمل في المطعم ، فأذعن الأب لإرادتها مكرها فاختاروا له تعلم صناعة الأحذية وكانت سنه يومئذ اثني عشر عاما فمارسها عامين حتى قارب على إتقانها ، ولكنه تركها لأن ملازمة الجلوس على الكرسي لم تلائم صحته. (1)

وبعد ترداد بين العمل في المطعم والبيع في محل للأقمشة كان زيدان يقرأ ويطالع الكتب والمجلات ويأخذ المعارف بنهم ، فعرفه أكثر المتخرجين في الكلية الأمريكية وأكثر أدباء بيروت ، ورجال الصحافة فيها مما مهد له الانتظام ((في سلك جمعية (شمس البر) في بيروت ، وكانت فرعا لجمعية الشبان المسيحيين في بريطانيا ، ووجد نفسه في هذه الجماعة مع فارس نمر ويعقوب صروف وسليم البستاني وغيرهم)).(2) .

وفي سنة 1881م صمم نهائيا على أن يترك العمل ويلتحق بالكلية الأمريكية طالبا في مدرسة الطب بها ، وكان الدخول بمدرسة الطب يحتاج إلى امتحان في بعض المواد العلمية ، فتعلم زيدان مواد الامتحان على أحد أصدقائه ودخل المدرسة الطبية. وكان في السنة الأولى ممتازا على أقرانه على الرغم من قيامه ببعض الأعمال الخاصة لتساعده على سد النفقات وفي أوائل السنة الثانية حصل الاختلال المشهور في الجامعة فغادرها أغلب الطلاب وفي جملتهم زيدان. (3) .
ثم انصرف زيدان بعد ذلك إلى الامتحان في علوم الصيدلة ، فامتحنته لجنة خاصة برئاسة الكولونيل مراد بك حكيمباشي المعسكر .(4)

---

(1) محمد عبد الغني حسن : أعلام العرب ، ص 8 .

(2) الموسوعة العربية العالمية : ص 689.

(3) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج3، ص، 644.

(4) الموسوعة العربية العالمية :ص 689 .

وفي سنة 1883م قرر زيدان السفر إلى مصر لإكمال دراسة الطب في قصر العيني غير أن المدة اللازمة لنيل الشهادة ثنى عزمه عن الدراسة .(1) فعمل في صحيفة الزمان اليومية التي يديرها ألأرمني إلكسان صرافيان ، وكانت الجريدة الوحيدة في القاهرة بعد أن عطل الإنجليز صحافة مصر بعد ثورة أحمد عرابي (2) وعمل زيدان في هذه الفترة في سلك المخابرات البريطانية . (3)

وفي عام 1884م رافق زيدان الحملة الإنجليزية إلى السودان كمترجم بقلم المخابرات الإنجليزية ،(4) وكانت هذه الحملة لإنقاذ غردون وزيدان شارك في المتاعب والمصاعب التي لقيتها الحملة في السودان ووصف زيدان ذلك في كتابه ((تاريخ مصر الحديث)) . وعند عودته إلى مصر أنعم عليه بالميدالية الإنجليزية والنجمة المصرية وغيرها. (5) وفي عام 1885م سافر إلى بيروت فدرس فيها اللغتين العبرانية والسريانية ، ومن ثم انتدب عضوا في المجمع العلمي الشرقي ، ووضع على أثر ذلك كتابه ((الفلسفة اللغوية)) وقدم منه نسخا للمجامع العلمية الشرقية في أوروبا ، فعينه المجمع الآسيوي الملكي في إيطاليا عضوا عاملا فيه، (6) وبعد عام سافر إلى لندن مكافأة له على خدماته في المخابرات المصرية . ولما عاد إلى مصر عمل في إدارة المقتطف (7)، وقضى فيها عاما ونصف عام لم يشترك في التحرير فيه إلا بمقالة صغيرة واحدة ، (8) ثم أنشأ مطبعة التأليف مشتركا مع نجيب متري المؤسس الأول لدار المعارف ، وبعد سنة انفضت الشركة بينهما ؛ واحتفظ جرجي زيدان بالمطبعة لنفســـــه .

---

(1) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، دار الثقافة بيروت لبنان ، بدون تاريخ طبعة ، ص88 .

(2) الموسوعة العربية العالمية : ص689

(3) عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ،ج3، ص125.

(4) محمد عبد الغني حسن : أعلام العرب ، ص11.

(5) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ، ج3، ص646.

(6)المرجع السابق : ص، 646 .

(7)عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ، ج3، ص125.

(8)محمد عبد الغني حسن : أعلام العرب ، ص12.

وأسماها مطبعة الهلال ، [1] ثم انصرف زيدان بعد ذلك إلى الكتابة والتأليف وألف آنذاك « تاريخ مصر الحديث » . وفي أواخر سنة 1889م انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى بمصر ليتولى إدارة التدريس فيها ، فتولاه سنتين وألف أثناء ذلك رواية «المملوك الشارد » ثم ترك بعد ذلك التدريس. [2]

وفي عام 1892م أصدر مجلة الهلال وقام بتحريرها بنفسه إلى أن كبر ولده إميل وصار مساعده في تحريرها ولم يشغل الهلال زيدان عن التأليف المثمر الضخم . [3] وفي سنة 1897م انتخب عضوا في الجمعية الأسيوية ببريطانيا ثم انتدبه المجمع الأسيوي عضوا به . وأهداه باي تونس نيشان الافتخار من الدرجة الأولى . وأنعم عليه عباس الثاني برتبة المتمايز رغم تمنعه في قبولها . وانقطع إلى التأليف فكتب بعد إنشاء« الهلال » مؤلفات عدة ترجم أكثرها إلى اللغات الإفرنجية والتركية والفارسية والهندية وغيرها . [4] توفى بالقاهرة فجأة بالسكتة القلبية في عام 1914م .[5] .

ومن كل ذلك يتضح لنا أن زيدان كان رجلا عصاميا أستطاع بناء نفسه بنفسه ولم تستطع ظروفه الصعبة أن تقف عائقا في سبيل تحقيق كل طموحاته ،بل أنه نحت فوق الصخر حتى استطاع أن يسجل اسمه في سجل الخالدين ، قال عنه محمد عبد الغني : « كان جرجي نمطا رفيعا من الأنماط الإنسانية المثابرة في الحياة وكان المجد العلمي والأدبي الذي بلغه جزاءا وفاقا للجهد العظيم والكفاح الجسيم الذي بذله للتعويض عن معاكسة الحظوظ ومضايقة الأقدار »[6] .

---

(1) محمد عبد الغني حسن : سلسلة أعلام العرب ، ص13.

(2) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، ص 8

(3) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج3، ص646.

(4) المرجع السابق : ص646.

(5) خير الدين الزر كلي : الأعلام : ج2، دار العلم للملايين ، بيروت-لبنان ، ص، 117.

(6) أعلام العرب : ص 33.

وحين عهدت إحدى مؤسسات النشر الأجنبية إلى المرحوم (محمد فريد أبو حديد) أن يترجم كتابا يتناول سير جماعة من الفقراء الذين أصبحوا من المشهورين رأى أن يضم إلى الكتاب كتابا يتناول سير جماعة من الشرقيين العرب الذين وصلوا إلى الشهرة بعد كفاح طويل مع الأيام ، فكان من هؤلاء المكافحين جرجي زيدان . (1)

من صفاته الأخلاقية أنه كان شديد الحياء والخجل مما حبب إليه كل من اتصل به أو لاقاه من قريب ، لم يكن ميالا إلى اللهو ، كان صاحب إرادة قوية ، وتصميم سديد ، محافظا على روح التدين والاعتصام بالدين ، وفيا ، كثير الإنصاف والتواضع ، بعيدا عن الزهو والتفاخر ، صاحب خلق رفيع ونبيل ، سليم الذوق ، صادق اللهجة ، دمث الأخلاق ، معروف بالثبات والمواظبة على العمل .(2)

نظم الشعراء في حفل التأبين الذي أقيم بعد وفاته أجمل القصائد الشعرية ، التي وصفت ما تحلى به الرجل من كريم الخلال والصفات ، من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران وجبران خليل جبران ، وغير هؤلاء من الشعراء والأدباء والمفكرين . ولا يفوتنا أن نتمثل ببعض الأبيات التي نظمها حافظ إبراهيم في رثاء كاتبنا ، والتي قال فيها :

دعاني رفاقي والقوافي مريضة وقد عقدت هوج الخطوب لساني
فجئت وبي ما يعلم الله من أسى ومن كمد قد شفني وبراني
مللت وقوفي بينكم متلهفا على راحل فارقته فشجاني
أفي كل يوم يبضع الحزن بضعة من القلب إني قد فقدت جناني(3)

---

(1) محمد عبد الغني حسن : أعلام العرب ، ص25.

(2) المرجع السابق : ص ، 19 .

(3) حافظ إبراهيم : الديوان ، دار العودة للصحافة والطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ج2، ص 183- 184 .

ورثاه أحمد شوقي بقصيدة أشاد فيها بفضله واصفا ما تحلى به من شيم رفيعة ، قال فيها :

وضعت خير روايات الحياة ، فضع   رواية الموت في أسلوبها العالي

وصف لنا كيف تجفو الروح هيكلها   ويستبد البلى بالهيكل الخـــالي

وهل تحن إليه بـــعد فرقتــــه   كما يحن إلى أوطانه الجـــالي

هضاب لبنان من منعاتك اضطربت   كأن لبنان مرمي بـــزلـــزال

كذلك الأرض تبكي فقد عالمـها   كالأرض تبكي ذهاب النافع الغالي(1)

ورثى خليل مطران المؤرخ العظيم ونادرة عصره بأبيات خالدة منها قوله :

برغم المنى ذاك الختام المحيـــر   كتابك تطويه ومنعاك ينشر

دهاك الردى في الرائحين فراعنا   كأنك غاد في الصبا فمبكر

وقال واصفا نبل أخلاقه :

فواراه قبـر لا بعيــــد قـراره   ولا سقفه فوق الثرى متكبر

وكان أبر الناس بالأهل والحمى   وبالقوم لا يجفو ولا يتغيــر

ونعم الأخ الوافي إذا ما تنكرت   لصاحبه الأيـــام لا يتنـــكر (2)

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات لأمير الشعراء ، ، راجعه وضبطه ، يوسف البقاعي ، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، ط1 ، 2004م ، ج3، ص92 ..

(2) خليل مطران : ديوان الخليل ، ج2 ، الناشر دار مارون عبود 1977م ، ص61 .

وجاء في صدر مجلة المقتطف عقب وفاته : رزئت العربية بفقد كاتب من نخبة كتابها عالم بحث في خزائن كتبها ، وما كتبه الإفرنج عنها ، بحثا مستفيضا ، واستخلص من ذلك كتبا ممتعة في آدابها تشهد له بسعة الإطلاع وأصالة الرأي ، والبراعة في التبويب والتنسيق ، فكان لهذه الكتب شأنا كبيرا شرقا وغربا ، وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية ، هذا عدا اشتغاله بمجلة الهلال التي مر عليها الآن اثنان وعشرون سنة ، وهي تبحث في المواضيع التاريخية والاجتماعية والعلمية والأدبية الصحيحة . (1)

أما جريدة الأهرام فقالت : استيقظت العاصمة فجر أمس على نبأ مروع وخبر مفجع دوى دوي الرعد في جوانبها ، فوجفت النفوس لهوله وأبى الناس لأول وهلة تصديقه ، قائلين : هل هوى ذلك الطود الراسخ ؟ نعم مات وانقصف ذلك القلم الحديدي الذي ملأ الطروس علما ، وبحثا ، وتدقيقا ، وجفت تلك الدواة التي سيبيض التاريخ صحيفة صاحبها ، كما بيض صاحبها صحائف التاريخ بقطرات مدادها الأسود ، لو قاس المؤرخون غدا عمره على آثاره لاعتقدوا أن صاحب الهلال بلغ المائة سنة وهو لم يتجاوز نصف هذه المرحلة من العمر ... وقد رحل اليوم عن دنياه مشيعا بأحسن ما يشيع به الراحل بدموع الأهل والأبناء وحسرات الأخوة والأصدقاء وثناء الكاتب الفاضل . (2)

---

(1) نقلا عن د/ سامي عزيز : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزي ، دار الكتاب العربي ، بدون رقم للطبعة ، سنة 1985م ، ص ' 112 .

(2) المرجع السابق : ص ، 112.

صلاته بالمستشرقين

كانت لزيدان صلات قوية وعلاقات وطيدة بالمستشرقين ، ولا نبالغ إذا قلنا بأن زيدان كان معجبا بهم غاية الإعجاب ؛ بل أنه كان يرى فيهم المثل الأعلى الذي لابد أن يحتذى ، فهم أهل المعرفة والعلم ، وهم الباحثون في مختلف الآداب والعلوم ، ولذلك نراه في أغلب مؤلفاته يذكرهم ويشيد بفضلهم وبسبقهم في العلوم ، ففي كتابه تاريخ آداب اللغة العربية عقد لهم فصلا جعل عنوانه (المستشرقون واللغة العربية) قال في أوله : من العوامل الرئيسة في إحياء آداب اللغة العربية في هذه النهضة ، اشتراك الإفرنج في درسها ونشر كتبها ، والتنقيب عن تلك الكتب في مظانها . وليس اهتمام الإفرنج بالآداب العربية حديثا ، فإنه يرجع إلى الأجيال الوسطى قبل نهضتهم الأخيرة لإنشاء تمدنهم الحديث ، ويقسم عملهم في هذا السبيل إلى دورين : الأول اشتغالهم بنقل العلوم الطبيعية والرياضية في أول نهضتهم ، والثاني اشتغالهم باللغات الشرقية وآدابها .ثم نجده يسرد ترجمة لكل واحد من المستشرقين بادا من القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر . (1)

ومن ذلك أيضا ما نجده في مقدمة كتابه ((تاريخ التمدن الإسلامي)) التي ذكر فيها أسماء المستشرقين حسب الترتيب الهجائي .

الأستاذ دي جوية - ليدن

الأستاذ ديرنسيرج - باريس

الأستاذ روزون - بطرسبرج

الأستاذ جولد تسهير – بودابست

الأستاذ جويري - روسيا

الأستاذ مرجليوث - أكسفورد (2)

---

(1) جرجي زيدان تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص507 .

(2) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، مطبعة الهلال ، الناشر مؤسسة المنشورات الحديثة ، 1959م ، ج1 ، مقدمة جرجي للكتاب .

نضف إلى ذلك أنه في تأليفه لهذا الكتاب اعتمد على عدد من كتب المستشرقين منها كتاب :

1- تمدن العرب للمستشرق جوستاف لوبون.
2- تاريخ تمدن الشرق للمستشرق فون كريمو.
3- تاريخ الدولة الرومانية البيزنطية للمستشرق لينو .[1]

ولعل أول صلة لزيدان بالمستشرقين كانت في عام 1881م عندما أدى امتحانا في علوم الصيدلة أمام لجنة تألفت في بيروت وكان من أعضائها الدكتور كرنيلوس فانديك الذي توفي سنة 1895 وعندما توفي هذا المستشرق نشر له زيدان ترجمة مطولة في مجلة الهلال [2] .

كم أن زيدان قام بنشر العديد من كتب المستشرقين في مجلة الهلال ، وقد كانت مجلة الهلال وجهة للمستشرقين القادمين إلى مصر ، ولعل السبب في ذلك مكانة هذه المجلة في ذلك العصر، وما كانت تحمله من أبحاث ودراسات ومقالات ، لفتت أنظار هؤلاء المستشرقين ، مما جعلهم يتابعون هذه المجلة وغيرها من المجلات التي كانت تصدر في ذلك الوقت ، مما يعد متابعة لسير النهضة الأدبية والعلمية في الشرق العربي .

وبذلك توطدت أواصر العلاقات ما بين زيدان وهؤلاء المستشرقين الذين كانوا يفدون إلى مصر لأغراض علمية أهمها البحث عن المخطوطات المخبأة في مكتبات القاهرة أو لنشر المخطوطـــات التي كانوا يقومــون بتحقيقهـــا على مناهجـــــهم .

---

(1) انظر ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، ج1 .
(2) محمد عبد الغني حسن : أعلام العرب ، ص 173 .

ومما يؤكد عمق العلاقة ما بينه وبين المستشرقين ، تلك الصلة القوية ما بينه وبين المستشرق كراتشكوفسكي والتي دفعت بهذا الأخير إلى كتابة فصل خاص بزيدان في دائرة المعارف الإسلامية . (1)

كما أن حسين مؤنس في مقدمته لكتاب تاريخ التمدن الإسلامي لكاتبنا ، أشار إلى علاقته بهؤلاء المستشرقين وأن هذه العلاقة اتصلت بطائفة من أعلامهم أمثال :جولدتسهير ، وفلهاوزن، ومارجليوث، ونولدكة وأمدروز، وسخاو،ووليام رأيت ، وماكدونالد . (2)

وفي ختام حديثنا عن هذا الموضوع نؤكد على عمق تلك العلاقة التي ربطت زيدان بهؤلاء المستشرقين والتي تؤكد قيام التبادل العلمي بينه وبينهم ، والتي يدعمها زيارة هؤلاء لمجلة الهلال ولمنزل زيدان ، كلما ساقتهم أقدامهم صوب مصر .

علمه ومنزلته :

كان زيدان علما من أعلام النهضة الأدبية الحديثة ، وسيدا من سادة العلم ، وهو صاحب القدح المعلى في التاريخ والأدب ، وهو أول من راجت كتبه التاريخية ورواياته عن تاريخ الإسلام بين أوساط المثقفين وغيرهم من طبقات المجتمع ، يقول عنه محمد يوسف نجم : " استطاع بآثاره العلمية والأدبية والصحفية أن يرضي الطبقات المختلفة ، ألف كتبا علمية ترضي الخاصة ، وألف هذه القصص التي اعتمد فيها على تاريخ العرب والمسلمين لكي يلفت إليه أنظار العامة الذين كانوا يتلهون بالقصص الشعبي وأكثره تافه . واستطاع زيدان أن يرضي هذه الطبقة

---

(1) محمد عبد الغني حسن :سلسلة أعلام العرب ، ص 177.

(2) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي ، ج1 ، مقدمة الكتاب ، ص3 .

.....كما أرضى بآثاره الأخرى سواها من الطبقات وهكذا كان زيدان معلما للشعب بعامته على اختلاف طبقاته وثقافته " . (1)

قال عنه أنيس المقدسي : " كان زيدان بحق رائد في مجال الرواية التاريخية الإسلامية ، ويحق له أن يلقب بإمام هذا الفن في أدبنا الحديث ، كما امتاز زيدان بأمانته التاريخية حتى أنه يثبت مصادره في كل رواية وكأنه يكتب تاريخا لا رواية ، أما من حيث مؤلفاته التاريخية والأدبية فأنه يحتل الصدارة بين كتاب العصر وهو ركن من أركان النهضة الحديثة " . (2)

عمل زيدان على نشر التاريخ بين الناس وسعى إلى تعليم التاريخ في كل مؤلفاته متخذا إلى ذلك الأسلوب السهل مراعيا بذلك أحوال قرائه الكثيرين وأغلبهم من العامة ، وكل ذلك إنما كان حرصا منه على تبسيط المعارف وتيسير العلوم .
كان جادا في مؤلفاته ، عالما من العلماء الذين تتضح فيهم الأصالة ، فقد كانت كتبه تمتاز بذكر المصادر والمراجع مما يؤكد صفة العلمية لديه ، كما كان حريصا في مؤلفاته على توضيح أغراض التأليف ،

هكذا كان زيدان من أساتذة الأدب والتاريخ والصحافة، الذين لا يشق لهم غبار ، في القرن التاسع عشر ، بل الأستاذ الأكبر الذي تخرج على يديه عدد كبير من أرباب الأقلام ، وساعد الأدباء والكتاب بتصحيحه وإرشاده .

---

(1) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، ص ، 176 .

(2) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص 516 – 517 .

المبحث الثاني

ثـــقــافتـــه

زيدان لم يعش حياة هادئـة مستقرة ، وهو الابـن الـذي ينتمـي لأسـرة فقيـرة كادحة رقيقة الحال وينتسب إلى أب أمي لم تسمح له ظروفه بالذهاب إلـى المدرسـة . فمـا كـان أمـام ذلـك الأب إلا أن يفتح مطعمـا صـغيرا . وعـاش الابـن فـي كنـف الأب يقضي جل وقته في المطعم بجوار والده . ذلك المطعم الـذي كـان يتـردد عليـه طائفة من أهل الأدب واللغة وطلاب الكلية الأمريكية ، وبذلك تفتحت عيني زيدان على هذه الطائفة من الأدباء التي كانت ترتاد المطعم باستمرار ، فكان لهذا الجو الذي شب فيـه الأثر البالغ في صقل شخصيته فنشأ محبا للعلم مغرمـا بـالاطلاع والقراءة ، تواقـا فـي أن يكـون مثـل هـؤلاء الصـحافيين الـذين يتنـاقشـون ويتجـادلون علـى موائـد الطعـام فـي المطعم ((وكان يرى ((الشيخ إبراهيم اليازجي ، والمعلم عبد الله البستاني – صـاحب معجم البستان – يفدان إلـى المطعم فيمن يفد إليـه مـن العمـلاء ، فيـأنس بهمـا ، ويقف بالقرب منهما يستمع إلى أحاديثهما ، ويعي كلامهما . فلما وجدا منه حسن إصغاء أذنا له بالجلوس معهما يغترف من بحرهما ، وينهل من مواردهما .))(1)

وبـالرغم من أنـه لـم يتلـق تعليمـا نظاميـا فـي مدارس بيـروت لظروفـه العائلية ، ثم عمله منذ الصغر تارة مع والده في المطعم ، وتارة في محل لبيع الأقمشة وتارة في محل لصنع الأحذية ، إلا أن كل ذلك لم يقف عائقا أمام ما كان يصبو إليـه ، فاستطاع تعلم اللغة الإنجليزية واللغة الفرنسية ، وكان يطالع الكتب والمجلات ويأخذ

---

(1) محمد عبد الغني : سلسلة أعلام العرب ، ص ، 4 .

المعارف بنهم ، فعرفه لأجل ذلك أغلب طلاب الكلية الأمريكية وأكثر أدباء بيروت ورجال الصحافة فيها بالرغم من صغر سنه . وإن كانت المدارس التي التحق بها دون انتظام في الدراسة مثل مدرسة المعلم إلياس شفيق ، ومدرسة الشوام ، ومدرسة المعلم ظاهر خير الله ببيروت لم تعط زيدان شيئا غير تعلم مبادئ القراءة والكتابة ، وشيئا من النحو والصرف ، إلا أن الكلية الأمريكية والتي التحق بها ولمدة عام واحد استطاعت أن تفتح أمامه أبواب تعلم الطبيعيات والحيوان والنبات والكيمياء والمواد الطبية وهي المواد التي أدى فيها امتحانا لنيل شهادة الصيدلة .

وزيدان الذي لم يستوف حقه من التعليم المنظم عمل على تعليم نفسه فكان طالبا ومعلما . وربما أدرك لأول وهلة أن المطالعة والقراءة هما طريق من لم تمكنه الحياة من الانتظام في سلك التعليم النظامي ، فشخصية زيدان كما يبدو لنا شخصية تتصف بالتصميم والإرادة ، فهو عندما وضع أمام عينيه هدفا معينا أصر على الوصول إليه على الرغم من جميع المعوقات التي قابلته ، فعندما وجد في نفسه ميلا فطريا للتأليف لم يمنعه حرمانه من التحصيل الأكاديمي من أن يكون مؤلفا . وزيدان كما لاحظنا لم يقابل المعوقات التي اعترضت سبيل حياته بالتمرد والثورة بل أنه قابلها بكل هدوء واستطاع أن يتخذ منها دافعا دفعه إلى العمل بجد واجتهاد في سبيل الوصول إلى هدفه .

وكان أول كتاب قرأه باللغة الانجليزية هو كتاب ((رحلة كوك في المحيط)) وكان أول كتاب اشتراه ببضعة قروش هو كتاب ((مجمع البحرين)) للشيخ ناصيف اليازجي(1) وكان زيدان مولعا بكتب الجغرافيا والطبيعة وكتب التاريخ بوجه خاص

---

(1) محمد عبد الغني حسن : سلسلة أعلام العرب : ص ، 28.

يقول في ذلك حسين مؤنس : ((قد كانت كتب التاريخ أحسن ما تخرجه المطابع في ذلك العهد ، وكان الرجل شديد النهم إلى القراءة والاطلاع ، فنهل من هذه المناهل ، وروى عن سعة ، وسار في ركب المؤرخين ، فلم يلبث أن فارقه تهيبه ، وأصبح بفضل دأبه على العمل ، وصبره على المطالعة والبحث ، عمدة مؤرخي العرب على أيامه)) . (1)

ولعل إجادة وعشق زيدان للغة العربية ساعده كثيرا في قراءة النصوص القديمة بفهم وتعمق . كما أن معرفته لكثير من اللغات الأجنبية مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية واللاتينية والإيطالية والإسبانية ، وإتقانه للعبرية والسريانية مكنه من قراءة الإنتاج الفكري لهذه الشعوب مما زاد من سعة اطلاعه وامتداد آفاق مطالعته وقراءاته . فكان بحق نموذجا للعالم العصامي الذي ثقف نفسه بنفسه .

وقد كانت في زيدان طبيعة لالتقاط المعرفة وكسبها من أي مصدر يطلع عليه سواء كان مجلة أو كتابا ، وربما أفاده طول تجواله في كتب الأوائل علما بالمصادر ومواطن الإفادة بالمعرفة . مما عاد عليه بثروة ضخمة من المعرفة . وكان تثقيف زيدان لنفسه ظاهرة واضحة للعيان أشار إليها عدد من الدارسين والباحثين من أمثال أنور الجندي في كتابه : ((من أعلام الفكر والأدب)) .

أما إذا حاولنا الحديث عن الروافد الثقافية التي أسهمت في تكوين تجربته

---

(1) من تقديم كتاب تاريخ التمدن الإسلامي ، ج1 ، ص8 .

الفنية ، نجد أن زيدان ينسب إلى جملة من المؤلفين الذين تأثروا كثيرا بالثقافات الغربية ، يتضح ذلك في تعلمه وإتقانه للعديد من اللغات الأجنبية ، وفي قراءته للعديد من المؤلفات الغربية ، فمثلا « كان جورجي زيدان يقرأ ولتر سكوت قراءة واعية كما يؤخذ من مؤلفاته في تاريخ الأدب والنقد »(1) وربما اطلاع زيدان على الثقافات الأجنبية أفضى به إلى التأثر (بولتر سكوت) في كثير من النواحي في رواياته التاريخية . ثم تأتي ثقافة أخرى تأثر بها زيدان في كتاباته هي ثقافة المستشرقين ، فقد تأثر في دراسته لتاريخ آداب اللغة العربية بمنهج المستشرقين أمثال بروكلمان المستشرق الألماني ، وغيره كثير ، يقول عنه كراتشوفسكي : زيدان« أبو الروايات التاريخية ولد في بيروت ، ودخل خادما ودارسا في الجامعة الأمريكية ، وكد وجهد ولم تمض عشر سنوات على خروجه من معهد التعليم إلا وقد حاز شهرة واسعة في عالم الصحافة والرياضيات والروايات ......وفي السنة 1902م أظهر كتابيه في « تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر » .... وباشر طبع « تاريخ التمدن الإسلامي » بخمسة أجزاء . فالتفت إليه من عني بالآداب العربية من الإفرنج ، ونقل الأستاذ مرغوليوث إلى الانكليزية السفر الرابع من ذلك المؤلف وضمه في مجموعة جيب الشهيرة ....ولكن لا مناص من القول إن تاريخ زيدان مبني عن تصميم وأساس جامع لشتى المواد ومفيد ليس فقط

---

(1) محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، ط5، دار العودة ودار الثقافة بيروت ، ص ، 246.

لعامة القراء العرب ، ولهم فيه غنى عن مؤلفات كريمر وغولدسيهر ، بل للعالم الأوربي أيضا .))(1)

ومن ناحية أخرى نقول إن امتلاك الكاتب لمهارات الكتابة يرتبط بثقافته وقدرته اللغوية والفكرية وإلمامه بعلوم اللغة العربية ، نحوها وصرفها ورسمها ....ومعرفته بتاريخ العرب وبالعلوم وأقسامها وأنواعها . فعلى الكاتب إذا أراد أن يكون مؤثرا في المجتمع وناشرا للثقافة ؛ مطالعة تصانيف البلغاء بالتأني والتبصر فيها ليدخر كل لفظ مونق شريف وكل معنى بديع يتصرف بهما عند الضرورة . لذلك جاءت ألفاظ زيدان في رواياته خاصة وفي كتاباته عامة ألفاظا عربية فصيحة تمتاز بالسهولة والسلاسة والعذوبة ، تخاطب العقل حين يحضر السرد التاريخي الذي يعقبه التعليم والإفادة ، وتخاطب الوجدان والعاطفة حين يحضر السرد القصصي ، ويعقب ذلك الترفيه والتسلية والإمتاع ، وهي لغة تقرب من اللغة المقالية وتبعد عن الركاكة والعجمة والعامية المبتذلة ، وزيدان بحكم ثقافته الواسعة الممتدة شرقا وغربا كان يتأنق في اختيار الألفاظ وينساق إلى الثروة اللفظية ويكثر من استخدام الألفاظ مألوفة الاستعمال ويبعد عن الألفاظ المهملة والحوشية غير المسموعة ، وهذا يعود إلى طول مطالعته للكتب وانغماسه فيها .

وزيدان بحكم ثقافته استطاع أن يتخذ لنفسه نمطا محددا سار عليه

---

(1) المشرق ، مجلة كاثلوكية شرقية ، تبحث في العلم والأدب والفن ، السنة الثامنة والعشرين ، 1930م . ص، 865- مقال بعنوان الروايات التاريخية .

في كتاباته ، فطبعت كتاباته من ناحية الأسلوب بطابع سهل تألفه العامة والخاصة من الناس ، وهو أمر تعمده زيدان وفقا لثقافة خاصة وحسب رؤية فنية كان يراها ، يقول في مقدمته لكتابه ((تاريخ مصر الحديث)) ((إنه كان يتحاشى الألفاظ المستهجنة والتعبيرات المعقدة ما أمكن ، متخذا أفضل أسلوب تفهمه العامة وترضاه الخاصة بغير إخلال ولا إملال))[1] ووصف أنيس المقدسي أسلوب زيدان بقوله : ((أما أسلوبه فسهل يأنس به الجمهور ولا تنكره الخاصة ، وقد أخذ عليه بعض النقاد ضآلة العنصر الفني في رواياته يعنون بذلك ضعف تحليله للشخصيات وخلوها من التصوير الحي للبيئة التي تتحرك فيها الحوادث)) .[2]

فإذن زيدان وفقا لثقافته وانطلاقا منها آثر الأسلوب السهل في كتاباته ، وربما اتخاذه لهذا الأسلوب السهل قد جر عليه الكثير من النقد من ذلك ما ذكره محمد يوسف نجم وهو يصف أسلوب زيدان : ((إن أسلوبه الصحفي البسيط أو العلمي الجاف الدقيق ، الذي ظهرت به مقالاته المختلفة وكتبه الكثيرة ، لم يكن في يوم من الأيام أسلوبا فنيا شاعريا ، ولهذا نرى أكثر قصصه جاف لا تلذ قراءته للقارئ المثقف الذي يبحث عن القيم الأدبية ...))[3] ، وقال أحمد أمين في معرض الذكرى الخمسين لإنشاء مجلة الهلال : ((قد يؤخذ عليه عدم الجزالة في

---

(1) جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ، مطبعة الهلال القاهرة ، سنة 1925م ، ص ،3.

(2) الفنون الأدبية وأعلامها : ص، 516.

(3) محمد يوسف نجم القصة في الأدب العربي الحديث ، ص، 187.

تركيب جملته ، وعدم القوة في أسلوبه ، وعدم الأناقة في تأدية معانيه ولكنه كان يعمد إلى ذلك عن مذهب في الكتابة وعقيدة في الأسلوب واختيار متعمد للمنهج الذي يسير عليه)) [1] أما عبد المحسن بدر فقال عن أسلوب زيدان في رواياته : ((يعمد إلى أسلوب سهل مبسط أقرب إلى أسلوب السرد العلمي المبسط الذي يفيد القارئ ويوصل إليه معلوماته)) [2] .

وإن رأى البعض أن أسلوب زيدان في رواياته كان لا بد أن يكون مختلفا عن أسلوبه في مباحثه ودراساته وذلك لأن ((الرواية تحتاج إلى شيء من فنية العبارة وأناقتها وعلو إنشائها ولكن زيدان لم يحفل بذلك في رواياته لأنه كان يرمي من ورائها إلى تعليم التاريخ عن طريق القصة)) [3] . ومن أجل ذلك لم يكن يميل إلى ((تجميل الأسلوب وتفخيمه ولذا أتت كتاباته عاطلة من حلى البديع والزخرفات الكتابية والزركشات البيانية والوصف المسهب الفضفاض ، فقد كان يتوخى تأدية فكرة وبلوغ غاية فحسب ، دون النظر إلى الاعتبارات الفنية)) .[4]

ونحن نقول هذا الأسلوب المتفرد لزيدان والذي ارتضاه ، إنما كان بتأثير تلك الثقافات التي تشربها من ثقافة عربية إسلامية و ثقافة غربية ، بل أننا نذهب إلى القول بإنه لولا تأثر زيدان بالثقافة العربية الإسلامية خاصة لما تمكن من إيجاد طريقته الروائية هذه التي رفعته إلى أعلى المستويات في مجال التأليف .

---

(1) محمد عبد الغني : سلسلة أعلام العرب : ص ، 140.

(2) د/ عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، ط5، دار المعارف القاهرة ، ص ، 110.

(3) محمد عبد الغني :سلسلة أعلام العرب : ص ، 145.

(4) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، ص، 188 .

(5)

المبحث الثالث

أهم أعماله الأدبية

لقد ألف جرجي زيدان العديد من المؤلفات والتي كانت موضع عناية الدارسين والنقاد منذ قديم وإلى اليوم ، كما كانت موضع عناية المستشرقين لما هي عليه من الوضوح والترتيب ، وهذا بيانها :

أولا : مؤلفاته التاريخية :

في التاريخ له كتاب :

1- تاريخ مصر الحديث :

وهو من مؤلفاته المشهورة ، وعدد صفحات الكتاب تزيد عن سبعمائة وخمسين صفحة .

ظهرت أول طبعة للكتاب سنة 1889م ، ذكر فيه زيدان مشاهداته لأحداث مصر في عصره وأخبار عهد الاحتلال البريطاني وما رآه بعينه في الحملة النيلية الإنجليزية على السودان لإنقاذ غردون .

وضح زيدان سبب تأليفه لهذا الكتاب ؛ وهو عدم عناية الكتاب بالكتابة في تاريخ مصر ، وأن من كتب منهم في هذا التاريخ فإنه لم يأت بتاريخ مستوف .

موضوعات الكتاب :

1- فذلكة في تاريخ مصر القديم .

2- تـاريخ مصـر الحـديث مـن الفـتح الإسـلامي إلـى العصـر الحـديث بادئـا بدولـة الخلافة الراشدة ثم بني أمية ثم العباسيين ، حتى عهد محمد علي باشا .

وقسم تاريخ مصر على ثلاثة أدوار كبرى هي :

1-الدور الجاهلي ويبدأ بعهد المماليك ويمتد من سنة 5004 ق –م حتى 381 م وذلك عندما أنهى الملك ثيورسيوس عبادة التماثيل ، وأمر بإتباع الدين المسيحي .

2-الدور المسيحي ويبدأ من عهد الدولة الرومانية إلى الفتح الإسلامي .

3- الدور الإسلامي ، ذكر فيه عهد الخلفاء الراشدين ، ثم عهد الدولة الأموية 41هـ - 132 هـ ، والعباسية من 132 – 257هـ ، حتـى ولايـة الدولـة العثمانيـة مـن 923- 1216هـ ، والدولة العلوية 1216 هـ .

ثم ذكر زيدان أسماء المؤلفات التـي اعتمد عليها فـي مؤلفه ، ثم اثبت جدولا عاما بأسماء حكام مصر منذ الفتح حتى العصر الحديث .

2- **كتاب تاريخ التمدن الإسلامي :** يقع في مجلدين ، من المؤلفات الكاملـة لزيـدان ، عدد صـفحاته تزيـد عـن ألـف وخمسـمائة صـفحة تقريبـا ، وهـو مـن أشهر مؤلفاته حتى أنه عرف به ، كانت أولى طبعاته سنة 1902م ، صدر في خمسـة أجـزاء ، اهـتم زيـدان فيـه بالحـديث عـن التمـدن ونشـأته والعوامـل التـي سـاعدت عليـه ومقدار تأثير التمدن في العمران . فتناول تاريخ العرب قبل الإسلام وكيف أنهم كـانوا قبائل متفرقة لا توجد رابطة تجمع بينهم سوى رابطة البلد الواحد وتدرج فـي وصـف هؤلاء العرب حتى بلغ بهم عهد ظهور الـدعوة الإسـلامية ، فوضـح أن القبائـل كانـت علـى اسـتعداد لتلقـي مبـادئ وتعـاليم الـدين الإسـلامي ، وذكـر بعـض الرجـال فـي ذلـك العهد والذين توفرت فيهم شروط السياسة والحكومة .

ثم أشار بعد ذلك إلى حال الدعوة الإسلامية وما لاقته من رفض ومعارك بين أنصار الدعوة ومنكري رسالة النبي " صلى الله عليه وسلم " .

وقام زيدان بتقسيم هذا الكتاب ثلاثة أدوار :

1- دور الخلفاء الراشدين .
2- دور بني أمية .
3- دور بني العباس .

ثم أشار بعد ذلك إلى ثروة البلاد المالية من خلال مواردها في كل عصر من العصور ، وكيفية إنفاق هذه الثروة في كل عصر ، واستطرد وهو يتحدث عن هذا الأمر في عصر بني العباس على أساس أن الثروة وموارد الرزق لم تتضح إلا في هذا العصر ، كما تحدث عن الدخل والإيرادات بالنسبة للدولة الإسلامية خلال هذه الأقسام ، فأشار إلى تدرج الإيرادات من زكاة في أوائل الهجرة ثم الغنائم بعد موقعة بدر الكبرى ثم الجزية ، ووضح أن الإيرادات أخذت في النمو والاطراد بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية . فأصبحت الإيرادات تأتي من الخراج والعشور على الأرض ، والمكس على التجار .

تناول هذا الكتاب بالنقد جماعة من الأدباء منهم لويس شيخو في مجلة المشرق ، ويعقوب صروف في المقتطف .

3- **تاريخ العرب قبل الإسلام** : يقع في حوالي " 346" صفحة ، صدر منه جزءا واحدا فقط سنة 1908م ولم تصدر بعد ذلك بقية أجزائه ، ثم ظهرت له أخيرا طبعة محققة وقد علق عليها الدكتور حسين مؤنس ، بدأه بمقدمة وضح فيها غموض تاريخ العرب وصعوبة التأليف فيه . ثم أعقب ذلك بفهرس مطول ، وألحق به تمهيدا

عن مصادر تاريخ العرب بدءا بالكتب العربية ، ثم بالكتب غير العربية من اليونانية والرومانية . ويحتوي الكتاب على ترجمة وافية لآراء بعض قدماء اليونان في الجغرافية العربية والمصرية ، والكتاب مزين بالصور والرسوم الكثيرة والخرائط والخطوط مثل رسم سد مأرب وبعض قصور اليمن .....

وأنهى الكتاب بحديث عن مكة والاختلاف في أصل اسمها والأمم التي توالت عليها . ثم انتقل بالحديث إلى يثرب وذكر تاريخها وقبائلها وحروب الأوس والخزرج ثم اتبع ذلك بحديث عن الطائف .....

4- **كتاب تاريخ الماسونية العام** : يقع في حوالي مائة وخمس وثمانين صفحة تقريبا ، أرخ فيه للماسونية معتمدا على بعض الكتب الإنجليزية والفرنسية المؤلفة في هذا الموضوع .

5- كتاب التاريخ العام : صدر منه الجزء الأول سنة 1890م ببيروت ولم يكمله زيدان بعد ذلك وقد تناول فيه تاريخ العرب منذ العصر القديم إلى العصر الحديث .

6- كتاب تاريخ إنكلترا : يقع في حوالي المائة صفحة ، تحدث فيه عن جغرافية إنكلترا وأصل شعبها وعوائدها ثم تحدث عن الجزر البريطانية وعن البريطانيين الأصليين ...

7- **كتاب تاريخ اليونان والرومان :** كتاب مختصر ولا تزيد عدد صفحاته عن ثلاث وسبعين صفحة . تحدث في مقدمته عن قارة أوربا مشيرا إلى أنها القارة الثالثة بحسب الترتيب الجغرافي وأنها أصغر القارات مساحة وأنها أسبق القارات في التمدن الحديث ، ووصف ما فيها من مدن جميلة

وطرق منظمة ، وأشار إلى أن أوروبا تنقسم قسمين شمالي وبه روسيا والدنمارك وهولندا وفرنسا ....الخ ، وجنوبي وبه اليونان وتركيا وإيطاليا وإسبانيا . ثم انتقل بعد ذلك للحديث عن بلاد اليونان فوضح موقعها ومناخها ثم تحدث عن الشرائع اليونانية وديانة قدماء اليونان وخرافاتهم ، ثم انتقل للحديث عن الشعراء وأنواع المعيشة عند القدماء ، ثم أورد جدولا لحوادث اليونان . ثم انتقل أخيرا للحديث عن إيطاليا .

ثانيا : مؤلفاته اللغوية :

1- كتاب الفلسفة اللغوية : عدد صفحاته (153) صفحة يشتمل على مقدمة وخمس قضايا ، المقدمة في تقسيم اللغات وماهية اللغة العربية ، وهو أول كتاب قام زيدان بتأليفه .

2- كتاب((تاريخ اللغة العربية)) قسمه الكاتب ثمانية فصول :

الفصل الأول : العصر الجاهلي .

الفصل الثاني : العصر الإسلامي .

الفصل الثالث : الألفاظ الإدارية في الدول العربية .

الفصل الرابع : الألفاظ العلمية (الطبية ، الرياضية ، الفلسفية) .

الفصل الخامس : الألفاظ الاجتماعية .

الفصل السادس : الألفاظ النصرانية أي ما دخل العربية من الاصطلاحات الدينية لأهل الكتاب .

الفصل السابع : الألفاظ الأعجمية .

الفصل الثامن : النهضة الحديثة والتغيير الذي أصاب اللغة العربية من ناحية الألفاظ والتراكيب .

3- كتاب تاريخ آداب اللغة العربية :

ظهر هذا الكتاب على هيئة كتاب قائم بذاته في سنة 1911م وكان قبل ذلك ينشره الكاتب في مجلة الهلال على شكل فصول تحت عنوان « تاريخ آداب اللغة العربية » والكتاب عبارة عن مجلدين ويقع في أربعة أجزاء ، يشتمل على تاريخ اللغة العربية وعلومها وما شملته من العلوم والآداب من العصر الجاهلي إلى عصر الراشدين والعصر الأموي فالعباسي فالمغولي فالعثماني فالعصر الحديث ، ووضح زيدان هدفه من تأليف هذا الكتاب في مقدمة الجزء الأول منه كما بين طريقة تأليفه . كما قام بتقسيم هذا الكتاب بحسب العصور .

أجزاء الكتاب :

الجزء الأول : يبدأ بمقدمة شرح فيها المقصود بآداب اللغة العربية وأكد على أهمية دراستها . ووضح أن تاريخ آداب اللغة العربية إنما هو تاريخ عقول أبنائها . ثم تعرض بعد ذلك لآداب اللغة العربية قبل الإسلام ، وحالها بعد مجيء الإسلام ، ووضح فروع اللغة العربية والشعر الجاهلي . وكيف بدأ العرب ينظمون الشعر ، ثم أشار إلى طبقات الشعراء ، ثم وضح خصائص الشعر الجاهلي وأشعر الشعراء ، ثم تحدث عن شعراء المعلقات ثم قسم الشعراء إلى : شعراء حكماء ، وشعراء فرسان ، وأمراء عشاق ، وشعراء صعاليك ، وشعراء هجائيين ، ثم النساء الشواعر . وقدم ترجمة لهؤلاء جميعا ، وأنهى الجزء الأول بالكلام عن الخطابة والإنشاء في العصر الأموي .

الجزء الثاني : تناول فيه العصر العباسي إلى دخول السلاجقة بغداد . تناول فيه اللغات التي انتشرت في هذا العصر مثل ، الهندية والفارسية وغيرها ..

وتحدث عن شعراء هذا العصر مثل البرامكة والشيعة ، ثم تحدث عن الشعراء الذين تكسبوا بأشعارهم والشعراء الذين لم يتكسبوا بأشعارهم . ثم تحدث عن علماء اللغة أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي ، وغيره من علماء اللغة ، وتحدث عن رجال النحو أمثال سيبويه والفراء وغيرهم ، ثم تناول العصر العباسي الثاني مشيرا إلى أشهر شعرائه أمثال ابن المعتز وابن الرومي وغيرهم . وذكر الأدباء أمثال الجاحظ وابن المقفع وابن قتيبة ، ثم انتقل إلى الحديث عن العصر العباسي الثالث . متحدثا عن دولة بني بويه ثم الدولة الحمدانية والفاطمية بمصر والمر وانية بالأندلس .

الجزء الثالث : يحتوي على تاريخ آداب اللغة العربية من دخول السلاجقة بغداد عام 447هـ ، تحدث فيه عن العصر العباسي الرابع متناولا مميزات العصر وطابعه العام والانقلابات السياسية ، وأشهر الشعراء ، ثم انتقل إلى العصر المغولي وتحدث عن اللغة والتاريخ والجغرافية والعلوم الإسلامية ، والموسوعات ، إلى أن وصل إلى العصر العثماني .

الجزء الرابع والأخير : تعرض فيه لتاريخ آداب اللغة العربية من العام 1216هـ إلى أوائل القرن العشرين . تناول فيه حال مصر والشام تحت ظل الحكم العثماني وتعرض للنهضة فيها وحال الأزهر الشريف في ذلك الوقت . وتحدث عن النهضة الأدبية في الشام والعوامل التي أدت إليها من مثل المدارس والمطابع ، ثم عرض لجهود المستشرقين والمترجمين في اللغة العربية وآدابها ، ثم أتى بتراجم لأشهر أدباء وشعراء هذه الفترة ، ثم ختم الجزء بالحديث عن رجال القضاء والعلوم والحديث، ثم علم الاجتماع.

ثالثا : التراجم والسير :

1- كتاب تراجم مشاهير الشرق : عدد صفحات الكتاب حوالي (850) صفحة ترجم فيه الكاتب لأعلام الشرق والغرب في القرن التاسع عشر ، وقسمهم :

1- رجال البر والأعمال .
2- أصحاب الجرائد .
3- - سائر رجال العلم والأدب .

رابعا : المؤلفات العلمية والفلسفية والاجتماعية :

1- كتاب أنساب العرب القدماء : عدد صفحاته تقريبا ست وستين صفحة ، ذكر فيه الكاتب مشاهير النسابين من العرب ووضح فيه العلاقة بين الإنسان والإنسان عن طريق الأنساب وركز على العرب بصفة خاصة فذكر أنسابهم ...

2- كتاب طبقات الأمم : عرف فيه علم طبقات الأمم بأنه علم يعنى بمعرفة أحوال الناس ودرس أخلاقهم وعاداتهم . فهو يشرح أخلاق الأمم وطباعها ، فضلا عن ملامحها وظواهرها . فيساعد الباحث على تحليل أسباب سقوط الأمم ونهوضها ، أشار فيه الكاتب إلى اختلاف علماء الأنساب في تقسيم طبقات الأمم ، فمنهم من قسم الناس ثلاثة فروع (سام – حام – يافث) ومنهم من قسم البشر حسب ألوانهم ، ومنهم من قسمهم بحسب شكل الجمجمة أو الملامح . ثم وضح زيدان منهجه الذي اعتمده في تقسيم طبقات الأمم وهو :

1- القوقازيون أو البيض والسمر .

2- الهنود الحمر أو هنود أمريكا .

3- المغول أو الصفر .

4- الزنوج أو السود .

والكتاب مزين بالرسوم والأشكال ومذيل بفهرس لأسماء الأمم والمواضيع .

3- كتاب علم الفراسة الحديث : يقع في حوالي مائتي صفحة ، وضح فيه أخلاق الناس وعاداتهم من أعضائهم الخارجية .....

4- كتاب عجائب الخلق : عدد صفحاته حوالي (102) صفحة تقريبا ، موضوعه البحث في عجائب المخلوقات وما في الكون من أمور يصعب على المرء تفسيرها وتعليل أسباب حدوثها ...

خامسا : سلسلة روايات تاريخ الإسلام :

هي الروايات التي كتبها زيدان والتي جعلها متسلسلة بتسلسل أحداث التاريخ و هي الروايات التي نحن بصدد دراستها ، وهي :

1- فتاة غسان .
2- أرمانوسة المصرية .
3- عذراء قريش .
4- 17 رمضان .
5- غادة كربلاء .
6- الحجاج بن يوسف .
7- فتح الأندلس .

8- شارل وعبد الرحمن .

9- أبو مسلم الخراساني .

10-العباسة أخت الرشيد .

11- الأمين والمأمون .

12- عروس فرغانة .

13- احمد بن طولون .

14- عبد الرحمن الناصر .

15- الانقلاب العثماني .

16- فتاة القيروان .

17- صلاح الدين ومكائد الحشاشين .

18- شجرة الدر .

19- المملوك الشارد .

20- أسير المتمهدي .

21- استبداد المماليك .

كما له رواية تدخل ضمن الرواية الاجتماعية وهي :

رواية جهاد المحبين .

سادسا : مجلة الهلال :

مجلة الهلال وهي مجلة علمية أدبية تاريخية صدرت في أول سبتمبر سنة 1892م ، لمؤسسها جرجي زيدان ، وكانت تصدر عن مطبعة التأليف بأول شارع الفجالة ، وكانت في أول الأمر تصدر شهرية واستمرت على ذلك قرابة العام ، ثم تحولت إلى نصف شهرية واستمرت على ذلك أربع سنوات ، ثم عادت شهرية بعد ذلك ، وكان زيدان يقوم بتحريرها بنفسه ، إلى أن

كبر ولده إميل وصار يساعده في تحريرها ، وظل زيدان في رئاسة تحرير الهلال يوليها جهده وعنايته ورعايته ووقته قرابة اثنين وعشرين عاما حتى أدركته المنية .
وقد بلغت أعداد مجلة الهلال من عام 1892م إلى عام 1914م اثنين وعشرين مجلدا

جاء في كتاب الدكتور محمد عبد الغني عن العدد الأول من مجلة الهلال : صدر العدد الأول من مجلة الهلال يحمل فاتحة بقلم زيدان يقول فيها : " ....قد دعونا مجلتنا ((الهلال)) لثلاثة أسباب : أولا : تبركا بالهلال العثماني الرفيع الشأن ، شعار دولتنا العلية أيدها الله . ثانيا: إشارة لظهور هذه المجلة مرة كل شهر . ثالثا : بنموها على الزمن ، حتى تتدرج في مدارج الكمال ، فإذا لاقت قبولا وإقبالا ، أصبحت بدرا كاملا بإذن الله"(1) .

والذي لا شك فيه أن هذه المجلة لعبت دورا كبير في تطور الفكر العربي في ذلك الوقت ، وتقف آراء الكثيرين من المفكرين والأدباء في هذه المجلة خير شاهد على ذلك الدور ، من أمثال الدكتور طه حسين ، محمود عباس العقاد ، والأديبة مي زيادة ، وإبراهيم المازني الذي قال في شأنها : " الهلال مجلة من يدرسها يدرس عناصر النجاح في الحياة "(2) وفي القصيدة الرائعة التي رثى فيها أحمد شوقي زيدان أشاد بمجلة الهلال وصاحبها فقال :

قد أكمل الله ذياك الهلال لنــا فلا رأى الدهر نقصا بعد إكمال

ولا يزال في نفوس القارئين له كرامة الصحف الأولى على التالي

---

(1) محمد عبد الغني حسن : أعلام العرب ، ص، 111-112.

(2) المرجع السابق : ص، 115 .

فيه الروائع من علم ؛ ومن أدب	ومن وقائع أيام وأحـــــــــوال
وفيه همة نفس زانها خلـــــق	هما لباغي المعالي خير منوال
علمت كل نؤوم في الرجال به	أن الحياة بآمال وأعمـــــــال
ما كان من دول الإسلام منصرما	صورته ، كل أيام بتمثــــــال
نرى به القوم في عز وفي ضعة	والملك ما بين إدبار وإقبـــال
وما عرضت على الألباب فاكهة	فالعلم تبرزه في أحسن القال (1)

أهم الشخصيات التي تناولتها مجلة الهلال :

تناولت مجلة الهلال خلال أعدادها المتلاحقة عدد من الشخصيات البارزة نشير إلى بعضها :

نابليون بونابرت

أوردت الهلال ترجمة وافية له باعتباره من أعظم وأشهر الرجال جاء في أحد أعداد سنتها الثانية (2) " فهو عمدة القواد ، ومثال الفاتحين الذي يغني ذكره عن فعله " .

فيكتور هيجو

قدمته الهلال في صدر أحد أعدادها على انه : الشاعر الفرنسي الشهير ، الكاتب النحرير ، المولود 1802م الذي كان ميالا بفطرته إلى الشعر حتى أنه نال الجائزة الأولى 1817م على قصيدة اقترحها المجمع العلمي الفرنساوي على الشعراء ، فحازت قصب السبق ، ونشر ديوانه (القصائد والأناشيد) الذي قربه بسببه الملك لويس الثامن عشر ، ورقاه ليستفيد من براعته وشاعريته . (3)

---

(1) أحمد شوقي : الشوقيات لأمير الشعراء ، ص، 92.

(2) مجلة الهلال : العدد الصادر في 1/8/ 1893م – أعظم الرجال .

(3) مجلة الهلال :العدد الصادر في 1/6/ 1893م – أعظم الرجال .

جورج واشنطون

قدمته الهلال على أنه أحد نوابغ القرن الثامن عشر ، وأعظم رجال الحرية ، كما تحدثت عن مولده في (1732/2/22م) بولاية فرجينيا . ثم سردت صفاته وأشارت إلى نبوغه بين أقرانه وميله للأعمال الشاقة ، ووضحت الأطوار التي مر بها في حياته حتى أصبح رئيسا للجمهورية بعد انتخابه . (1)

الشيخ إبراهيم اليازجي

قدمته الهلال في سنتها الخامسة عشرة على أنه إمام الإنشاء وحجة اللغة العربية ثم تحدثت عن بيته الذي يقع في غربي لبنان والذي يقف على رأسه الشيخ ناصيف اليازجي ، الذي كان كاتبا ، وشاعرا في معية الأمير بشير الشهابي ، والذي توفى عام 1871م مخلفا ورائه ستة أبناء أشهرهم وأعلاهم شأنا الشيخ إبراهيم اليازجي ، وظلت مجلة الهلال تنقل للجمهور نماذج من مقالاته وعطائه الأدبي شعرا ونثرا وأعماله وآثاره .(2)

السلطان صلاح الدين الأيوبي :

قدمته الهلال في عددها التاسع عشر (3) لسنتها الثانية ، فتحدثت عن مولده بتكريت بالعراق سنة 536هـ وأنه كان ذكيا ، تلوح على وجهه ملامح المهابة والنبوغ ، وبينت أطوار حياته ، وكيف تبوأ السلطة ، ثم واصلت المجلة في عددها التالي ترجمتها للسلطان صلاح الدين فذكرت موقعة حطين عام 583هـ وفتحه لبيت المقدس ، ثم انتقلت للحديث عن مناقبه وآثاره ، وحكايته مع قلب الأسد ملك إنكلترا

1- عدد الهلال الصادر في 1/1/ 1893م – أعظم الرجال .

2- عدد الهلال الصادر في 12/15/ 1907 ص15 صدر العدد

3- مجلة الهلال العدد الصادر في 6/1/ 1894/ افتتاحية العدد

رفاعة الطهطاوي

قدمته الهلال في صدر أحد أعداد سنتها (2) الثالثة وتحت بابها الشهير (أعظم الرجال) بالحديث عنه موضحة بأنه العالم العلامة السيد رفاعة بك بدوي ابن علي بن محمد رافع ...بن الحسين بن فاطمة الزهراء ، المولود بطهطا 1216هـ ، وقد تلقى علومه الأولية بفرشوط وطهطا ، حفظ القرآن الكريم ، وكثيرا من المتون ...ثم توفي والده ، فجاء رفاعة إلى القاهرة منتظما في سلك الطلبة بالجامع الأزهر 1232هـ ، ولم تمض عليه بضع سنين حتى صار من الأعلام في الفقه ، والحديث ، وسائر علوم المنقول والمعقول ، ثم سافرت بعثة مصرية من الشبان لتلقي العلوم الحديثة بفرنسا فعين الطهطاوي إماما لها في الوعظ والصلاة ، وهنالك عكف على درس اللغة الفرنسية من تلقاء نفسه ، فأتقن التاريخ ، والجغرافيا ، وعلوما أخرى وترجم كتاب (قلائد المفاخر في غرائب عوائد الأوائل والأخير) وغيره ، وفي سنة 1247هـ عاد إلى مصر فولاه محمد علي منصب الترجمة في المدرسة الطبية التي أنشأها في 1242هـ ، ثم أنشأ رفاعة أول جريدة عربية في سائر المشرق وهي (الوقائع المصرية 1248هـ)، ومن مؤلفاته العديدة : (خلاصة الإبريز ، والديوان النفيس) بها خلاصة رحلته لفرنسا ، (المرشد الأمين في تربية الأولاد والبنين) عبارة عن مجلد واحد ألفه للتعليم في مدرسة البنات ، وله غيرهما ما يربو على خمسة عشر مؤلفا .

---

(1) مجلة الهلال العدد الصادر في 15/ 2/ 1895م – أعظم الرجال .

وهكذا ترجمت مجلة الهلال للعديد من رجالات العلم والفكر والأدب على مدار سني إصدارها إلى غير ذلك من الكثير من المقالات والموضوعات التي كانت تطرح على صفحات هذه المجلة .

وهنالك حقيقة لابد أن نشير إليها في خاتمة حديثنا عن مجلة الهلال وهي أن معظم الكتب التي ألفها جرجي زيدان كان تنشر في البدء على شكل فصول ومقالات في مجلة الهلال ، مثال ذلك كتاب تاريخ آداب اللغة العربية وكتاب تراجم الشرق وكتاب تاريخ التمدن الإسلامي .

سابعا : مجلة المقتطف :

في صيف عام 1886م كان زيدان في زيارة إلى إنجلترا تردد فيها على المتحف البريطاني وغيره ، ثم عاد في الشتاء إلى مصر فطلبت منه إدارة مجلة المقتطف أن يتولى إدارة أعمالها وتحريرها ففعل. (1) قضى زيدان في المقتطف العام ونصف العام ولم يشترك في التحرير فيه إلا بمقالة صغيرة واحدة ، ومعنى هذا أن عمله في المقتطف كان قاصرا على الإدارة (2) .

---

(1) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، ص 646.

(2) محمد عبد الغني حسن : سلسلة أعلام العرب ، ص 112.

والخلاصة :

وفي ختام حديثنا عن مؤلفات زيدان لا بد نشير إلى أن زيدان اتبع طريقة متفردة في تأليفه لهذه المؤلفات ، منها أنه كان يورد كل المصادر والمراجع التي اعتمد عليها في جمع مادته العلمية ، ومنها أنه كان يوضح الأسباب والدواعي التي حملته على التأليف ، ومنها أنه كان يتخير الموضوعات التي يرى الناس في حاجة إليها .

المبحث الأول

تعريف الرواية ونشأتها وتطورها التاريخي

أولا : معنى الرواية في اللغة والاصطلاح :

معناها في معاجمنا العربية :

طالما نلاحظ ترادف لفظة قصة ورواية في الاستعمال، فنقول قرانا قصة في موضوع مساعدة المحتاجين، أو نقول قرنا رواية. وجاء في مختار الصحاح: قص أثره فتبعه من باب رد ومنه قوله التالي : " فارتدا على آثارهما قصصا" [1]

والقصة الأمر والحديث: والقصص بالكسر جمع القصة التي تكتب[2]. وجاء في لسان العرب القصة: الخبر وهو القصص. وقص على خبره يقصه قصا وقصصا أورده ،والقصص: الخبر المقصوص بالفتح ، والقصص بكسر القاف جمع القصة التي تكتب[3].

وقد اعتنى القران بالقصة وسردها في أسلوب فني رفيع لن يجارى كقصة يوسف، وموسى، وسيلمان عليهم السلام وملكة سبأ وقصة الخضر...، إلى غير أولئك من قصص الأنبياء والأمم السالفة، وتدل تسمية سورة من سور القران الكريم بسورة القصص(القصص) على مدى احتفائه بالقصة، كما يدل على ذلك ورود كلمة القصة وما يتصرف منها في خمسة عشر موضعا منها [4] وقد يدل اهتمام القران بالقصص، ومن ثم كان له ابلغ الأثر في تثبت العقيدة في نفوسهم.

([1]) سورة الكهف جزء الآية رقم 64.

([2]) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 1988م، بدون رقم للطبعة، ص، 225.

([3]) أبو الفضل جمال الدين(ابن منظور)، دار صادر بيروت، ط3، 1994م، المجلد السابع، ص ، 74.

([4]) محمود تيمور: الأدب الهادف، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 1959م . ص، 23.

الرواية في الاصطلاح الأدبي: هي التي يعالج فيها المؤلف موضـوعا كـاملا أو أكثر مليئا بحياة كاملة تامة واحدة أو أكثر لا ينتهي منها المؤلف وإلا وقد الم بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة. عرفها محمود تيمـور بقولـه: " أمـا الرواية وهي التي تسمى (R-man) ففيها يعالج المؤلف موضوعا كاملا أو أكثر زاخرا بحياة تامة واحدة أو أكثر لا يفرغ القارئ منها إلا وقد الم بحياة البطـل أو الأبطال في مراحلها المختلفة.... وميدان الرواية فسيح أمام القاص، يستطيع فيه أن يكشف الستار عن حياة أبطاله، ويجلو الحوادث مهما تستغرق من وقت [1].

وعرفها طه وادي بقوله: هي" تجربة أدبية تصور بالنثر حياة مجموعة من الشخصيات تتفاعل مجتمعة لتؤلف إطار عالم متخيل، غير أن هذا العالم المتخيـل الذي شكله الكاتب ينبغي أن يكون قريباً مما يحدث في الواقع الذي يعيش فيـه ... والحياة الروائية حياة ممتدة في الزمان إلى حد ما ..... فقد تمتد إلى سنة أو عـدة سنوات ...... وهذا الامتداد الزمني يؤدي إلى توسيع في التصوير ... وبالتـالي إلى اتساع حجم الرواية التي تعد أطول الأشكال القصصية حجما"[2] أما عز الدين إسماعيل فقد ذهب إلى تعريفها بقوله : " أما الرواية في رأيي الصورة الأدبيـة النثرية التي تطورت عن الملحمة القديمة وقد كان ظهورها مرتبطـاً فـي أوربـا بالنظام الإقطاعي الذي ساد العصور الوسطى.. " [3].

وتعريف الرواية يفضي بنا إلى تعريف القصة على أساس أن بعضهم يرى أنهـا احد أنواع القصة. عرف القصة ممد يوسف نجم فقال: القصة مجموعة من

([1]) محمد تيمور: دراسات في القصة والمسرح، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب القاهرة، ص 99-100.

([2])د/ طه وادي: دراسات في نقصد الرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989م، ص 19.

([3]) د/ عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي القاهرة، ص ، 123.

الأحداث يرويها الكاتب، وهي تتناول حادثة واحـدة أو حـوادث عـدة، تتعلـق بشخصيات إنسانية مختلفة، تتباين أساليب عيشها وتصرفها فـي الحيـاة:[1] كمـا حاول الدكتور يوسف نجم أن يفرق ما بـين القصـة والأقصوصـة فـرأى أن الأقصوصة تناول شريحة أو موقفا من حياة خاصة أو مجموعة حيوات.

حاول بعض الكتاب تعريف القصة ولكن من خلال عناصرها المكونة يقول محمود تيمور : " تتألف القصة من ثلاث عناصر رئيسـية هـي : الموضـوع، والشخصيات ، والحوار. وهذا العنصر الثالث ليس من المقومات المحتومة دائماً، ولكنه لازم في اغلب الأحيان، فتبدأ القصة بالتمهيد للفكرة، ثم تتطرق إلى ظهـور العقدة ثم تتوصل إلى هذه العقدة أو ما يشبه ذلك الحل، وهذا هو الهيكل المـألوف في بناء القصة على وجه عام" [2].

أما سيد قطب فيقول في تعريفه للفن القصصي: " القصة هي التعبير عن الحيـاة، الحياة بتفصيلاتها وجزئياتها كما تمر في الزمن، ممثلة في الحـوادث الخارجيـة والمشاعر الداخلية، بفارق واحد هو أن الحياة لا تبدأ من نقطة معينة، ولا تنتهـي إلى نقطة معينة، ولا يمكن فرز لحظة منها تبتدئ فيها حادثة ما بكل ملابساتها عن اللحظة التي قبلها ..." [3]، ومن التعريفات الجيدة في نظر الباحثين للفن القصصي تعريف (تشارلتن) حيث يقول: " القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخيوط، متتبعة كل فعل إلى أدق جزئياته وتفصيلاته وسوابقه

([1]) محمد يوسف نجم/ فن القصة ، دار الثقافة بيروت، ط7، 1979م ، ص9.

([2]) محمود تيمور: دراسات في القصة والمسرح ، ص 101.

([3]) سيد قطب: النقد الأدبي أصوله ومناهجه، دار الشروق بيروت والقاهرة ، ط5، 1983، ص 73.

ولواحقه، موغلة في دخيلة النفس حينا لتبسط مكنوناتهـا أثنـاء وقـوع الفعـل، مستعرضة الآثار الخارجية للفعل حينا آخر لا تترك من جوانبه وملحقاته أو نتائجه شاردة ولا واردة إلا سجلتها في أمانة وصدق. كما تحدث في الحياة الواقعية التي يخوضها الناس ويمارسونها [1].

مررنا مرورا سريعا على بعض التعريفات التي تواردت على الرواية وفن القصة بعامة إلا انه ينبغي الإشارة إلى نوع آخر من التعريفات النابعة من النظر النقـدي والذي حاول أن يقسم هذا الجنس الأدبي من ناحية القالب والمظهر إلـى الأنـواع التالية: الأقصوصة – والقصة –والرواية ، ثم حاول أن يحدد ملامح كل قالب من هذه الأنواع.

فالأقصوصة (one) عبارة عن " قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانباً من حياة لا كل جوانب الحياة، فهو يقتصر على سرد حادثة أو بضع حـوادث يتـألف منهـا موضوع مستقل بشخصياته ومقوماته ... على أن الموضوع مع قصره ، يجـب أن يكون تاما ناضجاً من وجهة التحليل والمعالجة، ولا يتهيأ هذا إلا ببراعة يمتاز بها الكاتب الاقصوصي، إذ أن المجال أمامه ضيق محـدود ، يتطلـب التركيـز الفني[2].

أما القصة واسمها (Nourelle) فهي التي " تتوسط بين الأقصوصة والروايـة وفيها يعالج الكاتب جوانب أرحب مما يعالج في الأولى ، فلا بأس هنا بأن يطول الزمن، وتمتد الحوادث، ويتوالى تطورها ف شيء من التشابك [3].

([1]) تشارلتن: فنون الأدب، ترجمة، زكي نجيب محمود، سلسلة الفكر الحديث، العدد الثاني ، لجنة التأليف والنشر والترجمة، القاهرة 1945م، ص 150.

([2]) د/ محمود تيمور : دراسات في القصة والمسرح، ص 100.

([3])المرجع السابق: ص 99-100.

أما الرواية فقد عرفناها سابقا، ومما يجدر بنا الإشارة إليه إلى انه نالك الكثير من التعريفات للقصة القصيرة والرواية من حيث الشكل ومن حيث الخصائص وهـم تتسم في مجملها بكثير من التفاوت وكثير من الاتفاقات.

الفرق بين مصطلح الرواية والقصة:

لم يحاول الباحثون الفصل ما بين مصطلح الرواية والقصـة فقـد أطلـق كثيرون لفظة القصة على الرواية، مما أدى إلى نوع من الخلط بـين خصـائص النوعين، مع أن الرواية تختلف عن القصة في كثير من خصائصها، مع التسـليم بأن هنالك صلة قوية بين النوعين، إلا أن لكل منهما شخصيته المستقلة.

ومن الكتاب الذين استخدموا مصطلح القصة ولم يفرقوا بين مصطلحي الروايـة والقصة يوسف نجم في كتابه (القصة في الأدب العربي الحديث) [1]. أما الدكتور عز الدين إسماعيل فيطلق كلمة (قصة) للدلالة على ما يطلق عليه كثير من النقـاد لفظ رواية [2]. أما السيد قطب فيقول في كتابه (النقد الأدبي): أما الأقصوصة فهي شيء آخر غير القصة، فليست الأقصوصة قصة قصـيرة ... ولعلـه أولـى أن نصطلح في اللغة العربية على تسمية القصة (رواية) لنبعد ما بين اللفظـين مـن الاشتباه [3].

ونرى انه من الأفضل أن ننظر إلى الرواية على أنها نوع مغاير للقصة القصيرة، فمن الفروق الظاهرة والشائعة بين القصة والرواية: الحجـم، فـالطول للروايـة والقصر للقصة، إلا انه بعض النقاد رفضوا هذا الاتجاه في التفريق بين النوعين، وبنوا رفضهم على أساس أن الشكل الظاهر إذا كان أسهل المعايير للتمييز

([1])د/ محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العرب الحديث.

([2]) د/ عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه ، 179.

([3]) سيد قطب : النقد الأدبي، 74-75.

بين القصة القصيرة والرواية فهو أيضا اقلها صلاحية فالاختلاف يرجع إلى لب العمل وجوهره وليس ظاهره ...." لا نستطيع أن نضع حدا فاصلا بين الرواية والقصة القصيرة من حيث الطول إلا أن يكون حدا تحكمياً. وإذا لا مفر لنا من البحث عن الخصائص الفنية لكل النوعين، حتى نستطيع التمييز بينهما تمييزاً صحيحاً ، ويكون القصر النسبي في هذه الحالة داعياً إلى أسلوب فني في القصة القصيرة، يختف عن أسلوب الرواية ... فالكاتب المجيد لا يحذف ولا يختصر ليصل بقصته إلى حد معين من القصر، بل انه يعرف، في نفس اللحظة التي يتصور فيها موضوعه، مقدار الطول الذي يحتاج إليه هذا الموضوع" [1]. على ذلك نرى أن القصة القصيرة لا يمكن أن تكون – من الناحية الفنية – ملخصا لرواية أو فصلا فيها ، وكذلك لا يمكن أن توسع فتصبح رواية، فلكل منهما مكونات ذاتية تميز احدهما عن الأخرى ... " فالاختصار أو التطويل ليست فنا وليست الصفة المميزة الأساس، والفن الصحيح هو الذي يقف حيث تقف طبيعة الأشياء من خمس صفات أو عشر أو عشرين أو مئة"[2]. ومن الفروق الأساسية بين الرواية والقصة أن الرواية تقوم على حدث كبير أو مجموعة أحداث وانفعالات متراصة، كما تتعدد فيها الشخوص والمواقف كما تهتم بالتفاصيل الدقيقة بوجه عام، ومجال الإسهاب وتضمين عدد كبير من الأفكار والآراء فيها متسع ، بحث يقف الروائي أمام شخوصه ويحلل نفسياتهم ، ويبرز الملامح الذاتية لكل شخصية، كما يقف عند التفاصيل الدقيقة والأحداث الموازية والمناظر والوصف واللوحات المنعزلة والتحليل. [3]

([1]) د/ شكري عياد: القصة القصيرة في مصر، معهد البحوث والدراسات العربية، 1967م، ص 21-23.

([2]) د/ علي جواد الطاهر: مقدمة في النقد الأدبي، منشورات المكتبة العالمية، بغداد ، ط2، 1983م، ص 254.

([3]) د/ الطاهر أحمد مكي: القصة القصيرة دراسة ومختارات، دار المعارف مصر، ط5، 1988م، 84-85.

لمادته أو موضوعه " لأن كتابة الرواية أو القصة لا تقوم على مجرد الاسـتطراد في البناء أو ضغطه كيفما اتفق" [1].

والبراعة والفن تأتي من مقدرة الكاتب على تغطية موضوعه تغطية واقعية شاملة. وأن يكون لعمله هذا تأثيرا معينا وان يعطي انطباعا تاما لمـا يريـد أن يقول في ذهن المتلقي دون إطناب أو حشو أو إسهاب ليصل بعمله الفني إلى حدود الرواية أو قصور في العرض حتى لا يتجاوز حدود القصر في القصة القصـيرة، وعلى ذلك فالمادة هي التي تحدد القالب الذي يناسبها ويفصح عنها، فالموضـوع الذي يصلح للرواية لا يناسب القصة ، ولا القصة تستطيع أن تنتهي به، والعكـس كذلك.

([1]) د/ الطاهر احمد مكي: القصة القصيرة دراسة ومختارات، ص 85.

نشأة الرواية وتطورها التاريخي:

يرى بعض الباحثين أن الرواية لم يعرفها الكتاب القدماء وأنها دخلت الأدب العربي في جملة ما دخله بتأثير الحضارة الجديدة. وأنها سلكت في تطورها نفس السبيل الذي سلكته القصة القصيرة. ويرون أنها ظهرت أول أمرها في ترجمـات شتى من الأدب العربي. وظلت الترجمة مصدرها الأكبر حتى إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية على انه منذ أوائل قرننا الحالي أخذت بعض الأقلام تتجـه نحـو التأليف وازدادت حركة التأليف نشاطا بعد الحرب العالمية الأولى وما زالت حتى بلغت الآن شوطا بعيدا في ميدان التقدم. (1)

إلا أن ذلك لا ينفي أن البعض يرى أن هنالك صلة وثيقة ما بين الروايـة العربية الحديثة والتراث الروائي القصصي عند العـرب. بينمـا تـرى غالبيـة الباحثين عدم وجود الصلة بين نشأة الرواية العربيـة وبـين التـراث الروائـي والقصصي عند العرب، إلا أن هذا الرأي لا يمكن قبوله على أساس أن " الأدب لا ينشأ في فراغ، والفنون الأدبية لا يمكن تقبلها دون جذور تربطها بواقع المجتمع ونفسيات أفراده والروائي لا يتعامل مع فراغ فإذا لم تمكنه طبيعته الخاصـة مـن تخطي ذوق مجتمعه الذي يعيش فيه، فانه يظل يستلهم واقعه لأنه لا يسـتطيع أن ينقطع بجذوره الفكرية والعاطفية والنفسية عن بيئته بمكوناتها المختلفة. (2)

على ذلك علينا أن نتلمس أصول الرواية في أيام العرب وأخبـارهم قبـل الإسلام وبعده، وتضاف إليها قصص الوقائع الحربية، وقصص جميل بثينة، وكثير عزة، وقيس لبنى، وحكايات كليلة ودمنة، وكتابات الجاحظ، وقصص ألف

---

(1) أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة الأدبية الحديثة، ص 515.

(2) إبراهيم السعافين: تطور الرواية العربية الحديثة ، ط2، بيروت لبنان 1987م ، ص 15.

ليلة وليلة وغيرها كثير. وفي العصر الحديث استوفت الرواية مقوماتها الفنية في (زينب) لمحمد حسين هيكل و (إبراهيم الكاتب) لإبراهيم عبد القادر المازني، و (عودة الروح) لتوفيق الحكيم ، و (دعاء الكروان) لطه حسين كما شارك أدباء المهجر الأمريكي بروايات متعددة، فقد بدأ ميخائيل نعيمة بروايته (مذكرات الارقشن) وراوية جبران(النبي) وغير ذلك. (1)

وفي الآداب الأوربية، برزت الرواية في القرن السادس عشر، بعد ظهور القصة الايطالية (الديكاميرون) على يد (جيوفاني بوكاشيو).

وفي القرن الثامن عشر، سادت الرواية في أعمال دانيال دينو، وروسو، وجوته وغيرهم، واتسع نطاقها في القرن الحادي عشر والقرن الحالي. وعرفها أدباء العالم العربي ، فشاعت في أعمالهم. حتى خصصت بحوث فيها.(2)

وهذه المقولة التي اجمع عليها كثير من الأدباء والنقاد والتي مفادها أن الرواية إنما هي فن مستحدث في الأدب العربي المعاصر نتيجة الاتصال بأوربا ونتيجة التأثر بالتراث الأوربي والحضارة الغربية، وذلك لأن الأدب العربي يخلو أو يكاد يخلو من فن القصة، مرددين بهذا دعاوى بعض المستشرقين من أمثال (جب) و (كولبين بالي) الذين عزوا ضعف الفني القصصي لا إلى أسباب موضوعية خاصة. وإنما تجاوزا ذلك إلى نتيجة تحط من شأن الحضارة العربية والأدب العربي، حينما ذهبوا إلى أن السر في ضعف القصة يرجع إلى عدم مباشرة كتاب العربية أعمال المخيلة أمدا طويلاً، وان ضروب الأدب الخيالي عند العربي كالقصيدة والرسالة والمقامة كلها قصيرة، لا تكلف مخيلة الكاتب إلا مجهودا يسيراً ، لأنه يعالج مواضيع معروفة أو ضيقة. (3)

---

(1) السيد مرسي أو ذكرى، القصة في الأدب المعاصر : دار الطباعة الحديثة، 1988م ، ص 21-22.

(2)المرجع السابق، ص 22.

(3)د/ طه وادي : تاريخ الرواية المصرية، دار النشر مصر القاهرة، ط2، 1997م، ص 17-18.

وكل ذلك مفاده الجناية على الأدب العربي، بل على العرب كجنس صاحب دور فعال في صنع الحضارة العالمية. فالتراث العربي حافل بألوان فنية مختلفة وثيقة الصلة بفنون القصص ولعل أهمها القصص العربي القديم الذي دون على انه تاريخ مثل (أخبار ملوك اليمن) لعبيد بن شرية، و (التيجان) لوهب بن منبه ، يضاف إلى هذا ما كتب عن أيام العرب وأصنامهم، وعن غزوات المسلمين. قال في ذلك طه حسين: " أخشى أن يكون من يجحدون وجود الأدب القصصي عند العرب ، إنما جحدوه لأنهم لم يحققوا بالضبط معنى الأدب القصصي، فالذين يقرؤون الشعر الجاهلي ... والأموي يلاحظون أن مزاياه كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة في الشعر العربي. فأهم ما يمتاز به الشعر القصصي أن شخصية الشاعر تفنى والأدب العربي شعره ونثره وعلمه وفلسفته لا يمكن بحال من الأحوال أن يقل عن الآداب الحديثة.[1]

وخلاصة القول أن الأدب العربي عرف نوعين من القصص: نوع منثور وآخر منظوم، أما الأول فعبارة عن سير وحكايات عن قدماء العرب من ملوك وأمراء وفرسان. والثاني نشأ حول أيام العرب وحروبهم وعاداتهم ، ثم حالة وجدانية تصور طبيعة الحياة التي تعيشها القبائل، وما تدين به من مثل وتقاليد مثل ما نجد في شعر الصعاليك، والذي يؤكد الأدب القصصي منذ وقت مبكر الشعر الذي يصور مغامرات الشاعر في الحب الماجن أو العفيف.

ويرى البعض أن (فن القصة) جنس أدبي ذو جذور ضاربة في التراث العربي كان له أثره الكبير في نشأة الرواية عامة والتاريخية خاصة، وقد جعل الرواية التاريخية مرحلة متقدمة في سبيل نشأة الرواية الاجتماعية. ذهب إلى هذا

([1]) د/ طه حسين: من حديث الشعر والنثر، دار المعارف القاهرة ، ص 16-17.

الرأي طه وادي فقال: " فن السيرة ... بدأت بسيرة الرسول (صـلى ا عليـه وسلم) التي رواها ابن إسحاق ونقلها ابن هشام ... وهذا التراث التاريخي أضـخم كان بلا شك مصدر الوحي والاستلهام لكثير من روايات جرجي زيدان التاريخية .... ونرى أن زيدان وقد اقتفى اثر السير التاريخية إلى حد بعيد في الاهتمـام بالتاريخ ومادته بالدرجة الأولى فيما كتب، لذلك حرص على أن تغطي رواياتـه معظم مراحل التاريخ العربي منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث". [(1)]

كما أن الرواية في نشأتها قد تأثرت بالذوق الشعبي تأثراً كبيراً فـالظروف الموضوعية المختلفة ومنها طبيعة العصر، ونوعية القـارئ ومكوناتـه الثقافيـة، وموروثاته الاجتماعية، أملت على الروائيين استلهام الأعمال الروائية الشعبية في إنتاجهم. كما أوحت إلى المترجمين أن يراعوا ذلك على مستوى الأعمال المترجمة وفي التصرف بها لتوائم الذوق الشعبي السائد. [(2)]

([1]) د/ طه وادي : تاريخ الرواية المصرية ، ص 22.

([2]) د/ إبراهيم السعافين: تطور الرواية العربي الحديثة في بلاد الشام، ص75.

المبحث الثاني

عناصر بنائها

أولا : الشخصيات :

شخصيات القصة أو أبطالها هم الذين تدور حولهم الأحداث، وهم الذين يفعلون الأحداث ويؤدونها، وشخصية كل إنسان مشتقة من عناصر أساسية هي مولده وبيئته وسلوكه والظروف التي تعترض طريقه.[1]

والقصة في حقيقتها تصور حدثا متكاملا له وحدة، ووحدة الحدث لا تتحقق إلا بتصور الشخصية وهي تعمل لان الفعل والفاعل والحدث والشخصية شيء واحد.[2]

فالقاص يعرض علنا شخوصه وهي متفاعلة مع الأحداث، متأثرة بها، لا تنفصل عنها بوجه من الوجوه، أي وهي تعمل، ولكن تصوير الشخصية وهي تعمل لا يكفي لإتمام الحدث، فيجب تصوير الشخصية وهي تعمل عملا له معنى يفيد في توضيح الحدث، بحيث لا يمكن فصل هذا المعنى عن بناء القصة، ولو حذف، فان هذا الحذف ينتج عنه اختلال الحدث وقصوره، لذا فان الشخصية القصصية يجب أن تكون حية يشاهدها القارئ كأنها ماثلة أمامه ، يراها تتحرك، ويسمعها وهي تتكلم ، وكأنه يعرفها.[3] وتتفاوت الشخوص في ظهورها على مسرح القصية بين وضوح معالمها أو غموضها، فهي تنقسم تبعا لذلك إلى: شخوص بسيطة مسطحة أو جاهزة وشخوص نامية.

([1]) محمد زغلول سلام : دراسات في القصة العربية الحديثة، الناشر، منشأة المعارف بالإسكندرية، سنة 1983، ص 14.

([2])رشاد رشدي، القصية القصيرة ، مكتبة الانجلو المصرية، ط3، 1970م، ص 29.

([3]) عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، ص 192.

الشخصية، البسيطة المسطحة الثابتة وتسمى أحيانـا الشخصـية ذات المسـتوى الواحد: " وهي الشخصية المكتملة التي تظهر في القصة- حين تظهر- دون أن يحدث في تكوينها أي تغير، وإنما يحدث التغير في علاتها بالشخصيات الأخـرى فحسب، أما تصرفاتها فلها دائما " طابع واحد".[1] ومن فوائد الشخوص المسطحة أنها تسهل عمل الكاتب، فباستطاعته أن يقيم بناء هذه الشخصية التي تخدم فكرتـه طوال القصة، وهي لا تحتاج إلى تقديم أو تفسير، ولا إلى فضل تحليل، وخاصـة في قصص الشخصيات، أما فوائدها للقارئ فانه من السهل عليه أن يتذكرها ويفهم طبيعة عملها في القصة، كما انه يجد في مثل هذه الشـخوص بعـض أصـدقائه ومعارفه الذين يقابلهم كل يوم.[2]

أما الشخوص النامية أو المعقدة أو المستديرة: فهي التي يتم تكوينها بتمام القصة " فتتطور من موقف لموقف ويظهر لها في كل موقف تصرف جديد يكشف لنا عن جانب منها" .[3]

فالشخصية النامية أو المستديرة تنمو وتتطور مع الأحداث، وتتكشف للقارئ كلمـا تقدمت في القصة مثيرة فينا نوعاً من الدهشة بطريقة مقنعة. وعلـى القـاص أن يكون متزنا في تقديم شخوصه، " فلا بد أن تتحركم في سياق الأحداث شخصيات تنبض بالحياة، فعلى قدر ما في شخوص القصة من نبض وحياة تكون قيمة العمل الفني.[4]. ولذلك فإن الشخصية القصصية ينبغي إلا تتجاوز الواقع أو تنحط عنه ، فلا تكون ضعيفة سلبية إزاء المواقف والأحـداث، ولا خارقـة تتحـدى الواقـع وتتجاوزه لأن الإنسان في النهاية مزيج من الخير والشر، ولا وجود للشخصـية الخيرة كلها، ولا الشخصية الشريرة.

([1]) عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، ص ، 192-193.

([2]) د/ محمد يوسف نجم : فن القصة ، ص 104.

([3]) د/ عز الدين إسماعيل: الأدب وفنونه، ص 193.

([4]) عبد الحميد جودة السحار : القصة من خلال تجاربي الذاتية، الناشر ، مكتبة مصر، القاهرة ، ص81.

كلها في واقع الحياة. وعلى القاص أن يراعي أشياء أخرى مهمة في أثناء عرض شخوصه حتى يضمن لهذا العرض نوعا من الإتقان والصدق، فيجـب أن يكـون القاص دقيقاً في وصف باطن الشخصية وظاهرها، وقادراً على استبطان دخائلهـا وعلى أن يأتي هذا الوصف في ظاهره وباطنه منسجماً مع تصرفات الشخصـية، حتى لا يجد القارئ نفسه مصطدماً بشيء غير مألوف، يأباه المنطـق والصـدق وتأباه كذلك طبائع الشخوص.

وبناءا على ما سبق فإن على القاص أن يحذر دائماً أن يجعل شخوصه خاضـعة لآرائه ومعتقداته أو نظرته إلى الحياة، بل عليه أن يدعها حرة طليقة في عالمهـا، تخضع لمنطقها. [1]

ويعتمد الكاتب في رسم شخوص قصته إلى وسائل مباشرة (الطريقـة التحليليـة) وأخرى غير مباشرة: (الطريقة التمثلية) ، ففي الأولى (يرسم شخصـياته مـن الخارج يشرح عواطفها وبواعثها وأفكارها وأحاسيسها، ويعقـب علـى بعـض تصرفاتها، ويفسر البعض الآخر ، ...، أما في الحالة الثانية فانه ينحـى نفسـه جانباً ليتيح للشخصية أن تعبر عن نفسها، وتكشـف عـن جوهرهـا، بأحاديثهـا وتصرفاتها الخاصة، وقد يعمد إلى توضيح بعض صفاتها عن طريـق أحاديـث الشخصيات الأخرى عنها، وتعليقها على أعمالها. [2]

ولا يتقيد القاص في رسم شخوصه بطريقـة معينـة، فلـه أن يسـتعمل الطريقتين معا في توضيح معالم شخصته حسب ما يقتضيه الموقف، إلا انه فـي بعض الحالات يضطر إلى التزام إحداهما دون الأخرى، ففي قصص الترجمـة الذاتية: (ضمير المتكلم) أو (الوثائق) أو (تيار الوعي) يترك القاص للشخصية

([1]) عبد الحميد جودت السحار : القصة من خلال تجاربي، ص ، 109.

([2]) د/ محمد يوسف نجم: فن القصة ، ص، 98.

أن تكشف عن نفسها بواسطة البوح والاعتراف وتـداعى الأفكـار والمراجعـة الداخلية وهنا يفضل استخدام الطريقة التمثيلية، لأن تكشف الشخصية من الـداخل إلى الخارج أقوى أثرا وأدق تعبيراً من وصفها خارجيا ، أما الطريقـة التحليليـة فيلجأ إليها الكاتب حين لا تساعد الظروف فـي تكشـف الشخصـية بـالطريق التمثيلية.[1]

ثانيا الأحداث:

الحدث هو اقتران فعل بزمن، وهو لازم في القصة لأنه لا تقوم إلا بـه ، هذه الحكاية تخضع لتقنيات فنية تصير بها قصة فنية، لا حكاية يرويها كـل مـن سمعها، فهذه الحكاية – الخبر- يستقيها القاص من الواقع، ولكن لا بـد لـه مـن التدخل في هذه الحكاية وتبريرها تبريرا فنيا، وهـو مـا تظهـر فيـه أصـالته ومقدرته.[2] والخبر، لا يمكن أن نعده قصة إلا إذا توافرت فيه خصائص معينـة، منها: أن يكون لها اثر كلي ، ووسيلة القاص إلى تحقيق ذلك، أن يعني بتـرابط تفاصيل الحدث وأجزائه، بحيث يؤدي ذلك في النهاية إلى معنى كلي يجسد منطق الحدث.[3] هذه الرابطة التي تربط الأخبار في القصة بعضها بالبعض الآخر يجب أن تكون ضرورية حتمية حتى تصور ما يحدث بالحدث: " وهو يتكون من بدايـة ووسط ونهاية، فالبداية أو الموقف عند بعض النقاد، ينشأ منها موقف معين، وتنمو لتبلغ الوسط، أو المرحلة التالية، وتتجمع كلها لتنتهي إلى النقطة الفاصلة ، وهو سبب وجود الحدث في

([1]) سيد قطب : النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ص 73.

([2]) د/ رشاد رشدي : القصة القصيرة ، ص 9.

([3]) المرجع السابق : ص 11.

الأصل، ولذلك يسمى النقاد المرحلة الأخيرة، وتمثل نهاية الحدث لحظة التنوير، ولكن وجود حكاية تنطوي على هذه الأقسام من بداية ووسط ونهاية لا يعني دائماً .. أنها تصور حدثاً .. فقد تجيء أخبارا متعددة تتجاور ، وليس حدثا ينمو طبيعيا وتترابط أجزاؤه.[1] وإذن فليس كل خبر قصة ، إلا إذا حرص القاص على ترابط تفاصيله ونموه العضوي، بحيث يفضي إلى وحدة الأثر فيجب أن تتضافر جميـع أحداث القصة مع بعضها لتؤدي التأثير المطلوب وتكون كل حادثة لها قيمة فـي ذاتها وترتبط بالأحداث الأخرى ترابطا منطقيا، من غير حشو أو إقحامه لحدث لا يؤدي وظيفة في إحداث الأثر الكلي.[2].

ويختلف الكتاب في طريقة عرض الحوادث فمنهم من يبدأ قصـته حيـث يجب أن ينتهي، ثم يعود بقرائه القهقرى، ليقص عليهم تطور الحدث، الـذي أدى إلى هذه النهاية التي استهل بها، وكتاب آخرون يبدؤون الحوادث من منتصفها، ثم رد كل حادثة إلى سببها، وعكس الحاضر على الماضي.[3] وغيـرهم يعرضـون الحوادث متسلسلة مرتبة.

ومن الشروط الواجب توافرها في عرض الحوادث وتطورهـا (عنصـر التشويق) وهو " أن تستحوذ على القارئ في أثناء قراءته نشوة وروعة تدفعانه إلى متابعة القراءة في نشاط وانتباه."[4] وينبغي عند تحقيق هذا العنصر

([1]) د/ الطاهر أحمد مكي : القصة القصيرة دراسة ومختارات ، ص 78.

([2]) محمد يوسف نجم : فن القصة ، ص 72.

([3]) المرجع السابق ، ص 38

([4]) محمود تيمور : دراسات في القصة والمسرح ، ص 107.

في القصة أن يأتي عفويا من غير مبالغة من القاص في عرض الحوادث وافتعالها ليصل إلى هذا الغرض بل يجب أن يجعل مظاهر التشويق جزءا طبيعيا من سياق القصة، ومن مظاهر التشويق في القصة وجود (العقدة أو الذروة) وهي: " القمـة التي تبلغها أحداث القصة في تعقدها وعندما يبلغها القارئ ينفعل اشـد الانفعـال فتزداد بها متعته ... والذروة نقطة فاصلة في القصة، تتدرج الحوادث قبلها صعدا حتى تصل إلى ذلك التوتر ، ثم تبدأ بعده بالتصفية والتكشف، إلى أن تبلغ النتيجـة أو الخاتمة". (1)

ثالثا: الحوار :

يعد الحوار صورة من صور الأسلوب القصصي وجزءا هاما من الأسلوب التعبيري في القصة، ومن الصفات الفعلية التي لا تنفصل عن الشخصية بوجه من الوجوه، وهو من أهم الوسائل التي يعتمد عليها القاص في رسم شخوصه والتعبير عن آرائها ونظرتها إلى الحياة، وشرح عواطفها ، وبواسطته تتصـل شخصـيات القصة اتصالا صريحاً ومباشراً ، وقد يستعمل الحوار أحيانا في تطوير حـوادث القصة والكشف عن دخائلها.(2)

والحوار المعبر سبب من أسباب حيوية السرد وتدفقه، لذلك لا بد أن يكون قصيرا، موجزاً محكما وسلسا ، رشيقا، مناسباً للشخصيات التـي تتحـدث بـه، وللمواقف التي يقال فيها، لكي لا يبدو دخيلا عليها، مـتطفلاً علـى شخوصـها، ويكون حوارا فنيا متقناً، بعيداً عن الثرثرة التي لا تضيف إلى البنـاء القصصـي فائدة

(1) د.محمد يوسف نجم : فن القصة ، ص 43.

(2) محمد يوسف نجم : فن القصة ، 117- 118 وعبد الحميد جودة السحار: القصة من خلال تجاربي، ص 17-18.

لأن الحوار القصصي ليس نقلا حرفيا لما يدور على السنة الشخوص في الحيـاة الواقعية، كذلك يجب أن يحقق القيمة الفنية في المقام الأول، فيكون تمثيليا سـريعاً يشعر القارئ بصـدقة وطبيعتـه، ولا يشـذ عـن الاتجـاه العـام للحـوادث والشخصيات.[1]

ومن العيوب في بعض القصص الحديثة أن يتدخل القاص تدخلا سافرا بالشـرح والتحليل أو تقديم الوعظ أو التوعية أثناء الحوار، بل عليه أن يتـرك الشخصـية تتكلم بحرية وتبث عواطفها وأحاسيسها وتكشف عن نفسها، لأن هذا التدخل يجني على وحدة العمل الفني وتماسكه ، ويبعده عن الصدق.[2]

ومن هنا فلا بد أن يكون عفويا مندمجا في صلب القصة حتى لا يبدو دخيلاً مقحما على العمل القصصي، أي يحقق فائدة ملموسة فـي تطـوير الأحـداث ورسـم الشخوص والكشف عن مواقفها من الأحداث ورسم الشخوص، أي يتغلغـل إلـى صميم العمل الفني ويتحد مع باقي العناصر اتحادا عضوياً ، لأن بعض القصـص يقوم فيها الحوار بدور رئيس، وهناك قصص تقوم في مجملها على الحوار.[3]

والقاص البارع هو إلي يتمكن من اصطناع هذه الوسـيلة وتقـديمها فـي مواضعها المناسبة، ويعرف متى يمكن أن يستخدم الحوار ويمكن أن يستغني عنه بالسرد، فأيهما يحقق القيمة الفنية يستغني به عن الآخر. ويمكن أن يستغل الحوار في تطوير أحداث القصة واستحضار الحلقات المفقودة منها، أما عمله الحقيقي في القصة فهو : " رفع الحجب عن مشـاعر الشخصـية، وأحاسيسـها المختلفـة، وشعورها الباطن تجاه الأحداث والشخصيات الأخرى وهو ما يسمى عادة بالبوح أو الاعتراف، على أن يكون بطريقة تلقائية".[4]

([1]) محمد يوسف نجم : فن القصة ، ص 120

([2]) الطاهر احمد مكي : القصة القصيرة دراسة ومختارات ، ص 75

([3]) المرجع السابق، ص 75.

([4]) محمد يوسف نجم : فن القصة، ص 118.

وفي الحوار يختلف مستوى اللغة بالضرورة، فالشخوص يجب ألا تتكلم بمستوى لغوي واحد، وعلى القاص ألا يفرض لغته التي يكتب بها ، فكلما كانت اللغة التي يصوغ بها الحوار اقرب إلى طبيعة الشخصية ونوع الحدث الذي يصوره كلما كان ذلك أفضل.(1)

على أن هذا لا يعني أن يثبت القاص الحوار بلغته الطبيعية وإنما على الكاتب: " أن ينقل الحوار من لغة الشخوص إلى لغة عربية تناسبهم، فيها سذاجة إذا كانت الشخوص ساذجة، وفيها سخرية إذا كانت ساخرة وفيها عمق إذا كانت مفكرة وفيها خفة إذا كانت تجب الدعابة والضحك، وبذلك يكتمل جو القصة ويتم الانسجام".(2)

رابعا: الوسط أو البيئة :

إن دراسة شخصيات القصة وارتباطها بالأحداث لا يكفي وحده، إذ يجب معرفة الوسط أو البيئة التي تدور فيها الأحداث وتتحرك عليها الشخصيات، سواء كانت بيئة مكانية أو قيما اجتماعية، وهذا ما يشدنا إلى الحديث عن " الوسط أو البيئة" في الأعمال القصصية. ويرى معظم النقاد أن لتصوير أحداث القصة وتطوير شخصياتها صلة وثيقة بما يسمى : المجال أو البيئة أو الجو العام " إذا ليست الحكاية معزولة عن مجالها الطبيعي والاجتماعي، ولا وجود كذلك لأفراد معزولين. وإنما يستلزم تصوير موقفهم – موضوعيا - أن ينظر إليهم مرتبطين اشد رباط بمجتمع خاص في فترة معينة وبيئة طبيعية خاصة وإلا فقدت القصة ما يبررها..

وكان موقف القاص .. كموقف دارس التشريح حيث يعزل الحيوان الذي يشرحه في معمله، بعيداً عن بيئته وجنسه.(3)

---

(1) د/ رشاد رشدي : فن القصة القصيرة ، ص 119.

(2) عبد الحميد جودة السحار: القصة من خلال تجاربي ، ص 23.

(3) محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة، ص 559.

ويختلف دور البيئة من قصة لأخرى بتفاوت نظرة القاص واهتمامه ، حتى لندهاه المؤثر الحقيقي في بعض القصص.[1]

وقد يستعين الكاتب في رسم بيئته على مشاهداته أو قراءاته الخاصة، وقـ د ينسجها بخياله نسجاً، مسلطاً عليها قوة الاختراع والإبداع، معتمداً على ما يلتقطه أثناء تجاربه في الحياة، أما في القصص التاريخية فان الكاتب هنا يبحث عن بيئته في كتب التاريخ، حيث يعثر على أوصاف البيئة الطبيعية ، والاجتماعية ، وحيث يلتقط أوصاف الملابس وأخلاق الناس وعادتهم في تلك الفترة، وهو بطبيعة الحال لا يتقيد بها تقيدا تاما، إنما يستعين بها على تصور الفترة ، ويترك لخياله اللمسات الفنية الأخيرة، التي تصهر هذه المادة وتمزجها مزجا تاما، وتحيلها إلى مهاد ملائم تتحرك عليه الحوادث وتسعى فيه الشخصيات.[2]

([1]) محمد يوسف نجم : فن القصة ، ص 559- 560.

([2])انظر المرجع السابق، ص 109.

الفصل الثاني

تعريف عام بروايات زيدان التاريخية

المبحث الأول : زمان تأليفها

المبحث الثاني: الأغراض التي وضع من اجلها زيدان رواياته

المبحث الأول

زمان تأليفها

الزمن ضابط الفعل، وبه يتم ، وعلى نبضاته يسجل الحدث وقائعه، ونحن وان كنا لا نستطيع أن نفصل بين الحدث والزمن ، فيمكن أن نتبين اثـر الـزمن عاملا فعالا في كثير من القصص الطويلة، والروايات[1] وحتى القصـص التـي تصور فترة زمن قصيرة ، أو حتى ضئيلة، لا بد من ظهور اثر الزمن في تطور الحدث ونموه ومن ثم انعكاسه على الشخوص، والقصة يمكن أن تحكي عن زمن طويل عاشته الشخصية من الطفولة حتى سن الشيخوخة، وقد تحكي القصة عـن يوم واحد في حياة الشخصية، ولكنه قد يكون يوما مشحونا بالانفعالات والعواطف والصراعات، بحيث يكشف عن نوعية هذه الشخصية، وعمـق وقـع الماضـي والحاضر والمستقبل عليها والقاص قد يعرض علينا الحدث ويسر بنا في تطـوره حسب التسلسل الزمني الصحيح، أي يسير أفقيا في التطور الزمني، وقـد يبـدأ القاص الحدث عكسياً أي من الصحيح ، أي يسير أفقيا في التطور الزمني، وقـد يبدأ من حيث يمكن أن ينطلق إلى الوراء والى الأمام فينكشف الماضي والحاضر حسب ما تقتضيه القصة والكاتب له حرية الاختيار فـي اختيـار بدايـة الـزمن المناسب لقصته حسب ما يراه موائما لعمله أو محققا له قيمة فنيـة معينـة، لأن بداية القصة دائما لها اثر كبير على المتلقي، وجذب اهتمامه إلى ما في العمل من عوالم وأحداث.

وعلى القاص أن يجعل الشخصية تعيش اللحظة تلو اللحظة وتنمو وتتطور مع حركة الزمن، وكذلك الحدث الذي تجسده هذه الشخصية، لأن ثبوتية احـدهما يصيب العمل القصصي بنوع من التجمد المرفوض.

([1]) محمد زغلول سلام: دراسات في القصة العربية الحديثة، ص 13.

ومن الممكن أن تجتاز القصة بالقارئ فترة زمنية طويلة، ولا عيب في ذلك فلينتقل القاص في الزمن كيف يشاء، ولكن لا بد من وحدة زمنية تـربط بـين اللمسات المتباعدة في الزمن،[1] أما القصة التي تحكي حدثا تاريخياً أو شخصـية تاريخية من الزمن الماضي، فلا بد أن يراعى القاص الزمن الـذي وقعـت فيـه الأحداث ويخضعها لمنطق العصر، وظروفه، وقيمه ، ومـن ناحيـة الوصـف والتحليل والعادات والقيمة... حتى يستطيع المتلقي أن يعيش فـي واقـع الـزمن الحقيقي الذي وقعت فيه أحداث القصة .

إن الرواية غالباً ما تعنى بتحديد زمن متنها، سواء كان ذلك تصريحاً أو تلميحاً، بغرض تأطير أحداثها من جهة ، والإيهام بواقعيتها من جهة ثانية وأحداث اثـر نفسي وجمالي من جهة ثالثة.

وبتتبعنا لروايات زيدان وجدناها من حيث الزمن تتخـذ النسـق الزمنـي الصاعد بحيث يعرض لنا هذا النسق بداية زمن الحكاية ثم تتابع الأحداث فيه تتابعا زمنيا (كلونولوجيا) " فالزمن الكرونولوجي يعين تقسيم الزمن إلى فترات أو تعيين التواريخ الدقيقة وشبه الدقيقة للأحداث". [2] وزيدان في كل رواياته يحـدد زمـن المتن الحكائي ببداية فترة تاريخية معينة ونهاية بحدث تاريخي معين، وذلك عبـر الإشارة الزمنية الصريحة لبدء الفترة فنحو بالخطاب منحى النسق الزمني الصاعد الذي تتابع فيه الأحداث خطياً عبر متوالية تعلق اللاحق بالسابق، بعيداً عن توظيف تقنية الاسترجاع إلا نادرا، وفيما تؤدي الوقفات الوصفية – وصف الطبيعة بشكل خاص – والمشاهد الحوارية دورها في تبطئ إيقاع الزمن.

إن طريقة زيدان في سرد أحداث التاريخ تتمثل باتخاذ التاريخ مادة للسـرد وإعمال الخيال في تقديم المادة التاريخية، بهدف خلق المتعـة والتشـويق، وشـد القارئ

([1]) انظر، عز الدين إسماعيل ، الأدب وفنونه، ص 149.

([2]) احمد حمد النعيمي: إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2004، ص 106.

إلى متابعة الرواية، والأحداث كما اشرنا تسير في الروايات في خط تصاعدي له بداية ونهاية، والشخصيات التاريخية في رواياته لا حيل إلا على ذاتها لأنها تبقى أسيرة تاريخيتها وتظل بمعزل عن مشاركة القارئ الذي لا يجد قاسماً مشتركاً بينه وبينها، وتبقى الشخصيات أسيرة الزمن الذي وجدت فيه أي أنها لا تتطور بتطور الأحداث لأنها شخصيات مكتملة النمو لا تتبدل ولا تتغير.

كتب زيدان " 1961 – 1914 احد وعشرين رواية تاريخية ضمن سلسلة تاريخ الإسلام من فترة ما قبل الإسلام مروراً بمرحلة صدر الإسلام والدولتين، الأموية والعباسية وانتهاء بالعصر الحديث.

وجاء الترتيب الزمني للروايات حسبما كتبها زيدان على النحو :

1- المملوك الشارد 1891م
2- استبداد المماليك 1892 – 1893م
3- أسير المتمهدي 1892م.
4- ارمانوسة المصرية 1895 – 1896م
5- فتاة غسان 1896- 1897 / 1897- 1898م
6- عذراء قريش 1898- 1899م .
7- 17 رمضان 1899- 1900م .
8- غادة كربلاء 1900- 1901م
9- الحجاج بن يوسف الثقفي 1901- 1902م
10- فتح الأندلس 1902- 1903م.
11- شارل وعبد الرحمن 1903- 1904م.
12- أبو مسلم الخراساني 1904- 1905م.
13- العباسة أخت الرشيد 1905- 1906م .
14- الأمين والمأمون 1906- 1907م
15- عروس فرغانة 1907- 1908م
16- احمد بن طولون 1908 – 1909م

17- عبد الرحمن الناصر 1909- 1910م

18- الانقلاب العثماني 1910- 1911م

19- فتاة القيروان 1911- 1-12م

20- صلاح الدين الأيوبي 1912 – 1913م .

21- شجرة الدر 1913- 1914م.

أما إذا حاولنا أن نرتب هذه الروايات بحسب التسلسل الزمني لأحـداث التـاريخ نرتبها كالآتي :

1- فتاة غسان.

2- أرمانوسة المصرية.

3- عذراء قريش.

4- 17 رمضان.

5- غادة كربلاء.

6- الحجاج بن يوسف الثقفي.

7- فتح الأندلس

8- شارل وعبد الرحمن.

9- أبو مسلم الخراساني.

10- العباسة أخت الرشيد.

11- الأمين والمأمون.

12- عروس فرغانة.

13- احمد بن طولون.

14- عبد الرحمن الناصر.

15- فتاة القيروان.

16- صلاح الدين الأيوبي.

17- شجرة الدر.

18- استبداد المماليك.

19- المملوك الشارد.

20- أسير المتمهدي.

21- الانقلاب العثماني.

وأول ما نشير إليه أن كل الروايات عند زيدان تنقسم إلى قسمين واضحين.

القسم الأول هو القسم التاريخي وفيه اعتمد زيدان على التاريخ فاخذ منه المادة التي أراد أن ينقلها القارئ ويشوقه إلى قراءتها.

والقسم الثاني: ما يأتي به زيدان من خياله وهو عبارة عن قصة غرامية يأتي بها ليربط بها الحوادث ويستحضر بها الحلقات المفقودة من التاريخ، ومعنى ذلك أن روايات زيدان يتقاطع فيها جانبان: الجانب التاريخي والجانب القصصي ، والأول هو الأساس والهدف والثاني هو عبارة عن وسيلة فنية ليس إلا ، فالرواية عنده تستند إلى القسم التاريخي وحوادثه الكبرى بكل شخصياتها والقسم الفني القصصي وحوادثه الموضوعة والخيالية مبنية على الإيهام والخلق فهنالك صدق وخيال. وبالتالي فالحدث التاريخي رئيسي والقصة ثانوية تابعة.

وبحسب التسلسل الزمني لأحداث التاريخ نبدأ برواية:

1) فتاة غسان: والتي تقع في مجلدين أما المجلد الأول منها فقد أشار زيدان إلى الزمن والفترة التاريخية التي تتناولها الرواية قائلاً : " رواية تاريخية" تشرح حال الإسلام في أول ظهوره إلى فتوح العراق والشام ، مع بسط عادات العرب في آخر جاهليتهم وأول إسلامهم ووصف أخلاقهم وأزيائهم وسائر أحوالهم ... [1]

([1]) جرجي زيدان: فتاة غسان مجلد ، دار الجيل بيروت – لبنان ، ط2، سنة 1988م ، ص3.

والمتأمل للرواية من أولها يجد أسماء أبطال الرواية وكما أوردهم زيدان في أولها لا يرمزون بأي حال إلى موضوع الرواية تلك الرواية التي ادعى زيـدان بأنهـا تشرح حال الإسلام في أول ظهوره، إلى خروج الناس مـن ظلمـات الشـرك والكفر إلى نور الإسلام والإيمان. أي أعظم حدث في تاريخ البشـرية جمعـاء. ونفاجأ ونحن نرى زيدان يورد عشرة أسماء لأبطال الرواية اغلبهم غير مسـلمين على رأسهم جبلة ابن الأيهم وثعلبة بن الحارث.

وأحداث الرواية كما أشار الكتاب تقع في نحو السنة السابعة للهجرة مـن عام 629م عندما كان على الشام ملكان من آل غسان وهما الحارث بن أبي شمر في (بصرى) وجبلة بن الأيهم عمه في البلقاء . ويتقاطع فـي الروايـة جانبـان الجانب التاريخي والجانب القصصي والأول هو الأساسي والهدف الثاني ربما كان عبارة عن وسيلة فنية ليس إلا. الأمر الذي سار عليه في زيدان في روايتـه ولـم يحد عنه.

فتاة غسان المجلد الثاني:

وتغطي من حيث الزمن الفترة التي وقع فيها فتح مكة، وعهد أبي بكـر الصـديق وإرساله للقادة لفتح الشام، وفتح خالد بن الوليد لمدينة دمشق وفتح بيـت المقـدس على يد المسلمين.

وهي امتداد للقسم الأول منها فأبطال القسم الثاني من الرواية هـم أبطـال القسـم الثاني وأضاف إليهم زيدان خالد بن الوليد وأبا عبيدة بن الجراح.

2) أرمانوسة المصرية:

تمتد حوادث هذه الرواية لتشمل الفترة الزمنية التي حكم فيها المقوقس مصر مـن قبل الرومان، ثم تمتد لتشمل عهد عمرو بن العاص والفتح الإسلامي لمصر. أشار زيدان إلى ذلك في صفحتها الأولى قائلا: فيها تفاصيل فتح مصـر والإسـكندرية على يد عمرو بن العاص في صدر الإسلام (640) مع بسط حال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وأزيائهم وحال الأقباط والرومان في هذا العصر.[1]

ويدور الجانب الخيالي من الرواية حول قصة غرام عنيف بين ارمانوسـة بنـت المقوقس واركاديوس بن الاعيرج القائد الروماني، ثم قسطنطين بن هرقل منافسه في ذلك الحب، ثم ينجلي الفتح العربي الإسلامي لمصر عن انـدحار قسـطنطين المنافس مهزوما إلى القسطنطينية وزواج أبطال الرواية.

3) عذراء قريش :

تتناول الأسباب التي أدت إلى مقتل الخليفة عثمان بن عفـان " رضـي ا عنـه" وتمتد زمنياً لتشمل خلافة الإمام علي بن أبي طالب " رضي ا عنه " وما نجـم عن ذلك من فتن وثورات . ثم وقعتي الجمل وصفين بعد مبايعة على بـن أبـي طالب بالخلافة، ثم حادثة التحكيم ومناداة معاوية لنفسه بالخلافة. وخروج مصـر من خلافة الإمام علي بن أبي طالب " رضي ا عنه" والقسم الخيالي فـي هـذه الرواية عبارة عن قصة غرام بين محمد بن أبي بكر وأسماء بنت مريم (عـذراء قريش) وعلى عادته في رواياته أتى زيدان بهذه الحادثة ليربط بين أجزاء الرواية ويجمع خيوط القصة المتناثرة.

([1]) جرجي زيدان : رواية ارومانوسة المصرية، دار الجيل، لبنان – بيروت ، ط2 ، 1988م.

4) 17 رمضان :

تمتد زمنياً لتتضمن تفصيل حادثة مقتل الإمام علي بن أبي طالب " رضي ا عنه" على يد الخارجي عبد الرحمن بن ملجم ، مع بسط حال الخوارج في ذلك الزمان ، كما تدور الفتنة الكبرى التي حدثت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضـي ا عنه واستئثار بني أمية بالخلافة وخروجها من أهل البيت. ويدور الجانب الخيالي من الرواية حول قطاع بنت عدي التي تريد الانتقام لمقتل أبيها وأخيها الذين قـتلا في النهروان فهي من الخوارج، ويجعل زيدان مهر قطام قتل الإمام علي ابن أبي طالب " رضي ا عنه".

5) غادة كربلاء:

ما لاحظناه على هذه الرواية من حيث الزمن أنها استغرقت فترة زمنيـة طويلـة ابتدأت بأخريات عهد معاوية، وانتهت بوفاة يزيد، فالرواية تضمنت مقتل الإمـام الحسين بن علي، وأهل بيته، في كربلاء ، وقعة الحرة، وولاية يزيد بن معاويـة، وما جرى من الأحداث والفتن إلى وفاته سنة 64هـ .

والرواية تتابع ما انتهت عنده الرواية السابقة 17 رمضان فهي تتابع ما جرى من أحداث بعد مقتل علي رضي ا عنه ، وانتقال الحكم إلى الدولة الأموية.

6) رواية الحجاج بن يوسف الثقفي :

وفي المقابل نجد أيضا أن هذه الرواية امتدت زمناً لتمثل أحداثها فترة زمنية طويلة وذلك لأنها صورت الأحداث التي وقعت بين عامي 65هـ - 86هـ وتضـمنت الرواية حصار مكة على عهد عبد ا بن الزبير إلى فتحهـا ومقتلـه وخلـوص الخلافة لعبد الملك بن مروان وما يتخلل ذلك من وصف لمكة والمدينة فـي ذلـك الزمان.

والجانب الخيالي في الرواية يدور حول حب سمية بنت عرفجة لحسن، ينافسه في هنا الحب الحجاج بن يوسف الذي رفضته سمية.

7) تضمنت تاريخ اسبانيا في فترة ما قبل الفتح الإسلامي وكيف كانت أحوالها في ذلك الزمان ، تم فتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط.

والقسم الخيالي في هذه الرواية عبارة عن قصة حب عنيف بين فلوريـدا بطلـة الرواية والفونس.

8) شارل وعبد الرحمن :

تتضمن الفترة الزمنية التي تمت فيها الفتوح الإسلامية في أوربا وفتـوح العرب على وجه الخصوص في بلاد فرنسا إلى ضفاف نهـر " لـوار" بجـوار "تورس" وما كان من تحالف الإفرنج هناك وتصديهم بقيادة شارل مارتـل لصـد الفاتحين العرب.

9) أبو مسلم الخراساني :

تغطي هذه الرواية من حيث الزمن الذي تناولته أحداث سـقوط الدولـة الأموية الدولة العباسية ، وسعي أبي مسلم الخراساني في تأييدها إلى قتلـه فـي خلافة المنصور، والمؤامرات السياسية التي كـان ينسـج خيوطهـا العباسـيون ورجالهم لإسقاط الدولة الأموية، وإقامة الدولة العباسية مكانها.

وتدور القصة الخيالية في هذه الرواية حول قصة حب لا أمل فيه وبطلا هذا الحب هما (جلنار) ابنة رهقان مرو، وأبو مسلم الخراساني الذي لـم يأبـه لحبها وعواطفها. لأنه لم يكن له مأرب في النساء، لأنه كان يخشى أن يقف ذلـك حائلاً بينه وبين ما يطمح إليه.

10) العباسة أخت الرشيد :

هذه الرواية اشتملت على فترة زمنية شملت نكبة البرامكة والأسباب التي أفضـت إليها ، ثم وصفت لمجالس الخلفاء العباسيين ومواكبهم وحضارة دولتهم في ذلـك الوقت الذي انحصر في عصر الرشيد وزواج جعفر البرمكـي بالعباسـة أخـت الرشيد، وما خلق هذا الأمر من مصائب وويلات أودت بحياتها.

ثم وصف للصراع الحزبي بين بني هاشم والموالي والعلويين ومناصرة الرشيد لبني هاشم ودفاع وزيره البرمكي عن الموالي والعلويين. وفـي الروايـة أيضا إشارة إلى الصراع السياسي حول السلطة ما بين الأمين والمأمون وجعفر بن الهادي .

11) الأمين والمأمون :

تشتمل هذه الرواية على الأحداث التي وقعت بين الأمين والمأمون والخلافات فيما بينهم بعد وفاة والدهما الرشيد، وقيام الفرس لنصرة المأمون حتى أنهم اسـتطاعوا فتح بغداد وقتل الأمين.

وفي الجانب الخيالي من هذه الرواية تدور الأحداث حول بطلين خياليين (ميمونـة بنت جعفر) و (بهزاد) حفيد أبي مسلم الخراساني الذي يبادلهـا الحـب، ويسـعى الاثنان للانتقام.

12) عروس فرغانة:

تغطي هذه الرواية من حيث الزمن فترة الحكم العباسي في عهد الخليفة المعتصـم با والعاصمة في ذلك الوقت سامرا، وطمع الفرس في إرجاع دولتهم ونهـوض الروم لاكتساح الدولة الإسلامية.

والرواية في جانبها الخيالي تتناول قصة حب ما بين جمان وضرغام والمنافس هو الافشين والبطلة تتمتع بقدر وافر من الجمال أضف إلى ذلك ما تتمتع به من القوة والشجاعة والأنفة مع إحسانها لركوب الخيل والسباق بها والخروج للصيد، فكانت لهذا نادرة عصرها فشغف بها الفرغانيون وسموها عروس فرغانة.

13) أحمد بن طولون :

تصف أحوال مصر وبلاد النوبة في أوساط القرن الثالث للهجرة إلى عهد احمد بن طولون ويرافق ذلك وصفاً للأحوال السياسية والاجتماعيـة والأدبيـة فـي ذلـك الزمان.

والقسم الخيالي من هذه الرواية يتناول قصة حب ما بين دميانة المسيحية وسعيد الفرغاني وينافسه في هذا الحب اسطفانوس ابن المعلم يوحنـا، وينحصـر دور احمد بن طولون الذي سمي الكاتب الرواية باسمه أي أن هذه القصة الغرامية الخيالية قد وقعت في عهده.

14) عبد الرحمن الناصر:

تشتمل هذه الرواية على وصف بلاد الأندلس وحضارتها وعادات أهلها في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي، مع وصف ما بناه من القصور الفخمة واستقباله وفود ملوك أوربا.

من خلال هذه الرواية عمل زيدان على حشد أخبار كاذبة عن الخليفة عبـد الرحمن الناصر مشوها للحضارة الإسلامية في الأندلس في ذلك الزمان، انتقامـا للصليبية التي عمل الناصر على القضاء عليها خلال فترة حكمه.

15) فتاة القيروان:

الزمن الذي تناولته هذه الرواية فترة دولة العبدين أو الفاطميين في افريقية، ومناقب المعز لدين ا وقائده جوهر، وتمتد أحداث هذه الرواية إلى إخراج مصر من الدولة الإخشيدية سنة 358هـ مع وصف للإخشيديين وجندهم.

وفي الجانب الخيالي لهذه الرواية نجد لمياء " فتاة القيروان" بنت حاكم سجلماسـة البربري التي تحب (سالم) وينافس سالم في حب لميـاء الحسـين بـن جـوهر الصقلي، الذي يريدها وهي لا تريده وتنتهي أحداث الرواية بلقاء الأحبة.

16) صلاح الدين الأيوبي:

هذه الرواية تختص بفترة تاريخية معينة وهي الفترة التي انتقلت فيها مصر من حكم الفاطميين إلى الأيوبيين على يد السلطان صلاح الـدين، وهـي الفتـرة الزمنية التي عاش فيها العاضد لدين ا عبد ا بن يوسف الحافظ لدين ا احـد الخلفاء الفاطميين في مصر، وعاش فيها المستضيء بأمر ا الحسن أبو محمـد بن المستنجد با احد الخلفاء العباسيين في العراق، واشتهر فيما نور الدين محمود بن زنكي مالك الشام وديار الجزيرة ومصر وصلاح الدين الأيوبي في مصر.

زيدان في هذه الرواية وصف حال ووضع الدولة الفاطمية في مصر فـي تلك الفترة وأطنب في وصفه للاماكن والأشخاص والأثاث والمواكب فـي ذلـك العهد. وتدور أحداث هذه الرواية حول شخصية أبي الحسن الرجل الـذي ادعـى النسب الفاطمي وأحب ست الملك أخت العاضد وكان طامعاً في الخلافة مما دفعه لتدبير المكائد تلو المكائد مما أدى إلى أن تشغل هذه الشخصية مساحة واسعة فـي الرواية.

17) شجرة الدر :

تغطي هذه الرواية الفترة الزمنية التي حكم فيها المستعصـم بـا بغـداد وصراع التتار بقيادة هولاكو مع العباسيين وقضائهم على حكومـة بغـداد، كمـا تضمنت مقتل الملك طوران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية، ومبايعة شجرة الدر زوجة الملك الصالح وتتويجها ملكة لمصر، وهي أول ملكة في الإسلام.

وفي هذه الرواية نلاحظ تداخل العقدة التاريخيـة مـع العقـدة الغراميـة، فالرواية تصور إضافة إلى ما سبق ما كان يجري في مصر من صراعات سياسية على السلطة إلى أن تولت شجرة الدر حكم مصر، إلا أنها خلعت من قبل سـلطان بغداد اثر مكيدة نسجت خيوطها سلافة ليكون الحكم في الأخير لركن الدين بيبرس بعد تراجع الزحف المغولي، وفي وسط هذا الصراع نجد صـراعا دينيـا بـين المذهبين

السني والشيعي والى جانب الصراعين السياسي والديني نجـد صـراعاً غراميـاً يشارك فيه من العنصر الرجالي عز الدين ايبك التركماني قائد الجـيش بمصـر ولكن الدين بيبرس وسحبان، ومن العنصر النسائي نجد شـجرة الـدر وسـلاف والجارية شوكار.

18) الانقلاب العثماني :

ألف زيدان روايته هذه في عام 1910م – 1900 وهي تتضـمن وصـف الانقلاب العثماني وأعمال الاتحاديين وجهاد الأحرار من أمثال نيازي بك وأنـور باشا وغيرهما في سبيل الحرية والحصول على حقوق الشعب وإعلان الدسـتور، ووصف يلدز وقصورها وحدائقها وعبد الحميد وجواسيسه واعو إلى فوز جمعيـة الاتحاد والترقي بنيل الدستور في 23 يوليو سنة 1908م.

والرواية تقوم على قصة غرامية تربط بين أجزائها وقعت ما بين رامز احد أعضاء الاتحاد والترقي وشيرين ابنة خالته ولكن هذا الحب تعترضـه العقبـات بسبب تدخل الأب الذي كان يهدف إلى تزويج ابنته من صائب بك احد جواسـيس السلطان، ولكن القصة تنتهي بانتصار رامز وشيرين على قـوى الشـر، ويقتـل صائب وغيره من أنصار الحكومة.

19) أسير المتمهدي :

تضمنت الفترة الزمنية التي تختص بالربع الأخير مـن القـرن الماضـي واصفا فيها زيدان مصر والسودان في ذلك الوقت ، سارداً لدسائس الدول الأجنبية التي أدت إلى الثورة العرابية في مصر والثورة بـين المهديـة فـي السـودان، والاحتلال البريطاني لوادي النيل.

وفي الجانب الخيالي من هذه الرواية نجد قصة غرام ما بين شفيق ابن احد موظفي القنصلية الانجليزية وفدوى ابنة احد الباشاوات المصريين وفي ثنايا هـذه القصة الغرامية يطوف بنا زيدان ما بين مصر والسودان وأوربا والشام واصفاً

عادات كل بلد وأحواله وأخلاق أهله إلى غير ذلك إلى أن ينتهي الروايـة كعـادة زيدان في كل رواياته بانتصار الخير على قوي الشر ولقاء الأحبة.

20) استبداد المماليك :

تقع الرواية في أواخر القرن الماضي شارحا فيها الكاتب أحـوال مصـر وسوريا في ذلك الوقت ، وحكم على بك ومعاصريه من مماليك مصـر وأمـراء الشام والحرب بين تركيا وروسيا وغير ذلك من الأمـور السياسـية والأخـرى الاجتماعية.

والجانب التاريخي في هذه الرواية يدور حول رغبة على بك شيخ المماليـك فـي الخروج عن طاعة الدولة العثمانية والاستقلال بمصر بمساعدة الجـيش الروسـي الذي دخل في حرب مع هذه الدولة الكبرى. وكان هم على بك هو التحرر مـن الخلافة والانطلاق من القاهرة لتحرير الجزيرة كلها بمساعدة حاكم عكـا الشـيخ ظاهر الزيداني وصهره لما وصل بقواته الضخمة إلى سوريا ، وقع على صـلح وعهد بألا يكون موالياً إلا للدولة العثمانية وان يحكم مصر بدلا من علي بك ممـا أوقعهما في حرب أدت بهما إلى حتفهما.

وانطلاقا من هذا الجو التاريخي والسياسي يدين زيدان ظـاهرة الاسـتبداد التي تفشت في مصر خلال المجتمع المملوكي من خلال ما لقيتـه أسـرة عبـد الرحمن، حيث اغتصبت أملاك عبد الرحمن الذي كان من اكبر التجـار بسـبب محاربته في تجارته وإرهاقه بالضرائب غير المشروعة، كما اخذ الجنود الطاغون منه ابنه الوحيد وأرادوا إرساله إلى ساحة الحرب لمواجهة العثمانيين، مما اضطر أبوه إلى دفع الكثير من المال في سبيل فديه ولم يفلح كل ذلك مما قاد هذه الأسرة إلى التشتت والضياع والغربة، فافترق الأب زوجته وابنه وخادمه، ولـم يجتمـع شملهم إلا في عكا بعد عدة موانع وبعد صبر ومعاناة وسفر وارتحال.

21) المملوك الشارد :

تقع هذه الرواية من حيث زمانها في حوالي النصف الأول من القرن التاسع عشر، وتتضمن حوادث مصر وسوريا وأحوالهما في ذلك العهد ومـن أبطالهـا الأمير بشير الشهابي، ومحمد علي باشا الكبير، وإبراهيم باشا، وأمين بك. مـن خلال هذه الرواية تطرق زيدان لبعض الأخبار التاريخية من مثل: حملة محمـد علي باشا بقيادة ابنه إسماعيل إلى السودان وأعالي النيل، ومذبحـة القلـة ضـد المماليك ، وحملة إبراهيم باشا إلى سورية، وإمارة بشير الشهابي.

المبحث الثاني

الأغراض التي وضع من أجلها زيدان رواياته :

أولا : التعليم :

كان المهاجرون الشوام أكثر إقبالا على الثقافة الأوربية وآدابها ، وكانوا مشغولين بنقل الأشكال الأدبية الغربية إلينا . فقدموا المسرحيات وحاولوا تقديم فن آخر من الفنون الأدبية وهو الفن الروائي سواء أكان ذلك عن طريق الترجمة أم عن طريق التأليف . وقد حاول جورجي زيدان التوفيق بين متطلبات البيئة من ناحية وبين تأثره بالشكل الروائي الغربي من ناحية أخرى فكان له أكبر الأثر في ظهور التيار التعليمي في الرواية . [1]

فقد كان التعليم وتعليم التاريخ على وجه التحديد من الأغراض التي ادعى زيدان بأنها حملته إلى تأليف رواياته ، وهو في مقدمته لرواية الحجاج بن يوسف الثقفي يصرح بهذا الأمر ، قائلا : " وقد رأينا بالاختيار أن نشر التاريخ على أسلوب الرواية أفضل وسيلة لترغيب الناس في مطالعته والاستزادة منه ، وخصوصا لأننا نتوخى جهدنا في أن يكون التاريخ حاكما على الرواية لا هي عليه كما فعل بعض كتبة الإفرنج ، وفيهم من جعل غرضه الأول تأليف الرواية وإنما جاء بالحقائق التاريخية لإلباس الرواية ثوب الحقيقة .....وأما نحن فالعمدة في روايتنا على التاريخ ، وإنما نأتي بحوادث الرواية تشويقا للمطالعين ، فتبقى الحوادث التاريخية على حالها وندمج فيها قصة غرامية تشوق المطالع إلى استتمام قراءتها ، فيصح الاعتماد على الروايات من حوادث التاريخ مثل الاعتماد على أي كتاب من

---

(1) عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، ص94 .

كتب التاريخ من حيث الزمان والمكان والأشخاص إلا ما تقتضيه القصة من التوسع في الوصف مما لا تأثير له على الحقيقة ، بل هو يزيدها بيانا ووضوحا بما يتخلله من وصف العادات والأخلاق [1]

على ذلك نستطيع أن نقول إن غرض زيدان الأول كما ادعى إنما هو تعليم وتشويق القراء وحثهم على قراءة تاريخ الإسلام عبر عصوره المختلفة لمعرفة الماضي في علاقته بالحاضر . وربما كان هدفه من الجمع بين التاريخ والفن هو الإفادة والمتعة .وذلك إذا علمنا بأنه تناول ضمن سلسلة تاريخ الإسلام التاريخ من عصر ظهور الإسلام والدولتين الأموية والعباسية وانتهاء بالعصر الحديث . وما يؤكد هذا الغرض ما قاله طه وادي : " كانت بدايات الرواية التاريخية عند جورجي أميل إلى المحافظة على الجانب التاريخي مع الوعي بالدور التعليمي له "[2] .

ونجد زيدان في هذه الروايات يعول كثيرا على الجانب التاريخي بل أنه يوظف عناصر روايته لخدمة الجانب التاريخي فيها . بل أنه كان أكثر تركيزا على الشخصيات التاريخية في الرواية منها على الشخصيات الخيالية .

فروايات زيدان تزخر بمعلومات تاريخية متعددة . وكان جل اهتمام المؤلف موجها نحو التاريخ وتاريخ العرب على وجه التحديد ، وكل رواية إنما هي درس من دروس التاريخ . حتى أمكن وصف رواياته بأنها دائرة معارف تاريخية . وفي سبيل ذلك كان زيدان حريصا على ذكر مصادر مادته التاريخية في أول كل رواية يقول في ذلك أنيس المقدسي : " ويمتاز زيدان بأمانته التاريخية حتى أنه يثبت فيها مصادره كأنه يكتب تارخيا لا رواية [3] ونذكر على سبيل المثال رواية " شجرة الدر " التي أورد المؤلف المصادر في أولها كعادته في كل رواياته ، قال : " هذه المراجع

---

(1) جرجي زيدان : رواية الحجاج بن يوسف الثقفي ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1988م ، ص ، 4.

(2) طه وادي : تاريخ الرواية المصرية ، ص65.

(3) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها ، ص516.

هي التي أعتمد عليها المؤلف في سرد حوادث الرواية وكان شديد الحرص على أن تكون وقعائها الرئيسية صحيحة : حسن المحاضرة للأسيوطي ، تاريخ إياس ، الهلال 19 ، تاريخ الفخري ، سيرة الملوك ، معجم ياقوت ، تاريخ بن جبير ، تاريخ مصر الحديث لجورجي زيدان " .(1)

ثانيا : الترويج لمجلة الهلال :

كان الدافع الأكبر الذي دفع المهاجرين الشوام إلى تقديم روايات التسلية والترفيه يرجع إلى اشتغالهم بالصحافة وسيطرتهم على الصحف والمجلات . وبما إن الصراع السياسي الذي كان يدفع القراء دفعا على الإقبال على الصحف قد خفت حدته كثيرا في أوائل عهد الاحتلال ، فقد كان من الضروري البحث عن وسائل لاجتذاب القراء إلى هذه الصحف ، وكان من أكثر هذه الوسائل فعالية تقديم رواية مسلسلة إلى القراء تشدهم إلى الصحيفة وتسليهم وترفه عنهم .(2)

فقد كثرت المجلات في ذلك الوقت وصارت كل مجلة تعمل على اجتذاب الجماهير بشتى السبل والوسائل .

ونشير هنا إلى أن لفظ الجريدة كان يطلق على كليهما ثم اختصت المجلات بهذا اللفظ وأول من استخدمه لذلك الشيخ إبراهيم اليازجي .(3)

وأول المجلات التي صدرت بمصر في ذلك الوقت " اليعسوب " التي صدرت سنة 1865م وهي مجلة طبية . ثم ظهرت "الجنان " في سنة 1870م للبستاني وهي مجلة جمعت بين العلم والأدب والسياسة وكانت ميدانا لأقلام كتاب العربية في ذلك العصر في السياسة والأدب والتاريخ والشعر والطب والحقوق

---

(1) جرجي زيدان :رواية شجرة الدر ، دار الجيل بيروت – لبنان ، ط2 ، 1988م ، ص4.

(2)عبد المحسن بدر : تطور الرواية العربية في مصر، ص 125.

(3)جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4، ص ، 421.

والزراعة والرياضيات والطبيعيات والفكاهة وغيرها ... ثم أخذت المجلات بعد ذلك تتخصص في موضوعاتها بالتدريج فصدرت " النخلة " للصابونجي عام 1870م ثم صدر" المقتطف" سنة 1876م ثم صدر" الشفاء" سنة 1886م ثم صدرت"الحقوق" ثم صدر "الهلال" وهي تبحث في الأدب والتاريخ والاجتماع والعلم وما يحدث من الاكتشافات والاختراعات . ولكنه تبسط في الحديث عن الأدب والتاريخ وفلسفته وفي الأبحاث الاجتماعية ، ثم صدرت مجلة " الفتى " ثم مجلة " الفتاة " وهي أول الجرائد النسائية ، ثم تكاثر صدور المجلات وصارت أكثر ميلا إلى التخصص . فصدرت المجلات الحقوقية والطبية والتاريخية . (1)

فزيدان الذي هاجر من موطنه الأصلي في لبنان إلى مصر بغرض دراسة الطب ، لم تسعفه الظروف ولم تساعده على مواصلة الدراسة في هذا التخصص لطول الدراسة في القصر العيني ، فانصرف عن دراسة الطب واتجه نحو الصحافة لأنه وجد في نفسه دافعا لها وإذا علمنا إنه لم تكن في مصر في ذلك الوقت " إلا صحيفة واحدة يومية اسمها الزمان صاحبها رجل أرمني اسمه (علكسان صرافيان) انتهز فرصة أحداث الثورة العرابية فأنشأها في مارس سنة 1882م . وظلت تصدر عامين وبضع أشهر إلى أن التقى زيدان وعرض عليه أن يكتب فيها ، فكلفه الرجل تحريرها ، وظل يكتب فيها عاما ونصف العام ثم استقال منها . " (2) وهكذا وجد زيدان نفسه في أول سلم الصحافة الذي ارتقى فيه إلى أن أصدر مجلة الهلال التي أعطاها كل وقته ، وعمل في تحريرها بجد واجتهاد لفت إليه أنظار الكثيرين . كان شديد الارتباط بالمجلة منذ أن أنشأها إلى وفاته ، على ذلك فليس بمستغرب أن حاول أن يوفر لها كل أسباب الرواج والاستمرارية والذيوع ؛ بأن يصدر هذه

---

(1)جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج4 ، 422-423.

(2)محمد عبد الغني : سلسلة أعلام العرب ، ص109.

السلسلة من روايات تاريخ الإسلام على صفحات هذه المجلة ، وهي لا تبعد عن الخط التاريخي الذي ترسمه من أول وهلة ولا تبعد عن هدف التعليم الذي وضعه نصب عينيه .

يقول الدكتور عبد المحسن بدر في ذلك : " ولما كان يرغب في جذب أنصاف المثقفين إلى قراءة مجلة الهلال ، فانه أراد أن يعلمهم التاريخ بالوسيلة التي تروقهم ، وذلك بان يقدم التاريخ من ناحية والقصة الغرامية التي تسليهم وتجذبهم إلى القراءة من ناحية أخرى . " (1)

ثالثا : لفت الأنظار وإظهار العلم والمعرفة :

إن غرض زيدان الأساسي كما ادعى كان خدمة التاريخ والعلم ، وزيدان من خلال روايات تاريخ الإسلام حاول أن يستعرض معلوماته التاريخية وما يملكه من ذخيرة تاريخية تختص بتاريخ المسلمين ، فهو يظهر نفسه وكأنه موسوعة تاريخية حافلة بشتى المعلومات ، إضافة إلى ما يعرفه عن العرب المسلمين وعن حضارتهم وأساليب حياتهم ، وما يعرفه من معلومات أخرى متفرقة ، وكأنه يريد أن يثبت أنه يعرف ما يعرفه علماء التاريخ مجتمعين ، يقول عنه يوسف نجم : " كان جرجي يفكر في محاولة جريئة تلفت إليه أنظار العالم الإسلامي . وهو المسيحي اللبناني الذي بدأ حياته طالبا في القسم العلمي في الجامعة الأميركية ببيروت ، يعمل ويدرس ، ثم ارتقى في معراج العلم والثقافة ....حتى أصبح في يوم من الأيام ، أحد المؤرخين المرموقين في النهضة الحديثة ، وأحد معلمي أبناء القرن العشرين . .....فاستطاع بآثاره العلمية والأدبية والصحفية أن يرضي الطبقات المختلفة . ألف كتبا علمية وتاريخية .....وألف هذه القصص ...لكي يلفت إليه أنظار العامة ..." .(2)

---

(1) عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، ص ، 98.

(2) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي ، ص176.

كان زيدان يظهر ما لديه من علم من خلال رواياته التي وظفها لسرد تاريخ العرب المسلمين منذ ظهور الإسلام إلى العصر الحديث دون استثناء لأي عصر من العصور في محاولة جريئة منه على إبراز علمه وإظهار قدرته وتفوقه .

رابعا : تأثره بكتاب الغرب :

إن من أبرز الذين سار زيدان على نهجهم وتأثر بهم ؛ فدلف إلى مجال الرواية التاريخية (ولتر سكوت) أب القصة التاريخية ، يقول في ذلك غنيمي هلال : ((القصص التاريخية التي ألفها " جورجي زيدان " ....يقفو في منهجها الفني أثر ولتر سكوت)) ....وقد كان جورجي زيدان يقرأ ولتر سكوت قراءة واعية ، كما يؤخذ من مؤلفاته في تاريخ الأدب والنقد)) . (1)

وولتر سكوت هو أب القصة التاريخية في أوروبا ، وأهم خصائص قصصه الفنية هي التي أثرت بعده في جميع القصص التاريخية ؛ حتى أمتد تأثيره إلى من ألفوا القصة التاريخية من كتاب الأدب العربي . (2) ولعل الفرق مابين زيدان وولتر سكوت كان يكمن في أن ولتر سكوت كان متأثرا بالإحساس القومي الذي ساد الفترة الرومانتيكية في الأدب الغربي ، مما ألهب إحساسه وخياله ؛ فجعل المادة التاريخية خادمة لهذا الإحساس ، وبذلك اهتم بالجانب الخيالي أكثر من اهتمامه بالجانب التاريخي ، على عكس زيدان الذي كان ينقصه هذا الإحساس القومي، فاهتم بالحقيقة التاريخية وجعل الاهتمام بالعناصر الروائية في المرتبة الثانية . (3)

إلا أن زيدان لم يعتمد في رواياته على العنصر الغيبي أو عالم ما وراء الطبيعة ، كما كان يفعل ولتر سكوت بل سار على هدى دوماس الأب ، والتزم الواقع ما وسعه ذلك ويختلف زيدان عن دوماس بشدة التزامه لحوادث التاريخ فقد كانت غاية دوماس

---

(1) محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، ص ،245- 246.

(2) المرجع السابق : ص218 .

(3) عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية في مصر ، ص ، 96.

فنية محضة ؛ وكان يختار للقصة الإطار التاريخي المناسب فيلبسها به لباس الحقيقة ، وكثيرا ما كان يتساهل في سرد وقائع التاريخ وحقائقه ، أما زيدان فكان همه الأول تعليم التاريخ وتشويق القارئ إلى مطالعته ، فكان يبقي الحوادث التاريخية على حالها كما هي ، ثم يربط أجزاءها المتناثرة بقصة غرامية فيشوق القارئ بذلك ويستحضر الحلقات المفقودة التي يربط بها أجزاء القصة المتناثرة [1] .

ولا نقول ما دفع زيدان إلى التركيز على الرواية التاريخية هو تأثره فقط بكتاب الغرب ، بل هو أيضا يعود إلى تأثره ببعض المحاولات التي سبقته في هذا المجال . وربما أهمها محاولة سليم البستاني الذي سبقه في مجال التأليف في الرواية التاريخية من خلال قصته الأولى زنوبيا التي أصدرها سنة 1871م . وربما هذا ما أشار إليه زيدان في قوله : " عمد الكتاب إلى التأليف في هذا الفن من عند أنفسهم تقليدا للإفرنج . ومن أقدم المشتغلين في ذلك فرنسيس مراش ......ثم سليم بطرس البستاني ألف بضع روايات تاريخية نشرها في الجنان ، ثم ألف صاحب الهلال سلسلة روايات تاريخ الإسلام من أول ظهوره إلى الآن" . [2]

نحن نقول كانت لزيدان أغراض عامة ارتبطت بالعصر والبيئة التي كان يعيش في محيطها ، كما كانت له أغراض خاصة عملت على توجيهه هذه الوجهة من التأليف الروائي في مجال التاريخ .

فقد حاول زيدان أن يوفق ما بين طبيعة العصر الذي عاش فيه وما بين تأثره بالشكل الروائي الغربي ، فالاحتلال في مصر أحدث ردة فعل عنيفة في نفوس المثقفين المصريين والمسلمين مما دفعهم إلى الدعوة إلى إحياء التراث العربي القديم – فيما يتصل بالمجال الأدبي - ، فاهتم المثقفون بالتعرف على التاريخ من خلال معرفة التاريخ العربي القديم ، ومعرفة تاريخ أمم الغرب ، ومعرفة سر تفوقها بالتعرف على تاريخها .

---

(1) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، ص ، 181- 182 .

(2) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ،ج4، ص ، 573.

فسعى زيدان إلى تحقيق هذه الأهداف عن طريق دراسة التاريخ العربي الإسلامي ، وكان اعتماده في هذه الدراسة على المراجع العربية وعلى كتب المستشرقين . فقدم الكثير من المؤلفات التاريخية – التي سبقت الإشارة إليها – وقدم هذه الروايات التي تدور أيضا في محور التاريخ والتاريخ الإسلامي على وجه التحديد .

خامسا : المجتمع والدين والسياسة هل كانت من أغراض زيدان :

المتأمل لهذه الروايات يجدها تزخر بوجوه الحياة المختلفة ، الاجتماعية ، والدينية ، والسياسية ، فهل كانت وجوه الحياة هذه من الأغراض التي دفعت زيدان إلى تأليف رواياته ؟ . نقول أولا : هذه السلسلة من القصص التاريخي حظيت بإقبال الخاصة والعامة قال في ذلك أنيس المقدسي : " مر على وفاة صاحبها ما يقارب نصف قرن وهي حية يقرأها الجيل بعد الجيل ، وتجاوزت شهرتها العالم العربي فترجم بعضها إلى عدة لغات شرقية وغربية . ومع أن القصد منها تاريخي في الدرجة الأولى ، فقد وفق زيدان جدا في وضعها بهذا القالب القصصي الممتع إذ خلق لكل منها مشكلة أو سرا يتشوق القارئ إلى معرفته ، وربطه بحادثة غرامية ينتصر فيها الخير والنبل على الشر والفساد ".(1)

و إذا نظرنا أولا للمجتمع الذي تعبر عنه روايات زيدان نجده مجتمعا متباينا تختلف بيئاته باختلاف العصور التي دارت فيها هذه الروايات ؛ وذلك إذا عرفنا أن زيدان تناول العصور التاريخية القديمة بدا بالعصر الجاهلي و صدر الإسلام و العصر الأموي والعصر العباسي والأيوبي حيث خصص ست عشرة رواية لتاريخ العرب والإسلام ، وأربعا لتاريخ مصر الحديث ، وواحدة للانقلاب العثماني . ففي العصور التاريخية الأولى التي تناولها الكاتب ؛ من مثل المجتمع الجاهلي ومجتمع صدر الإسلام والذي صوره الكاتب مجتمعا بدويا

---

(1) أنيس المقدسي : الفنون الأدبية وأعلامها : ص ، 516.

خالصا ، وصور حياة العرب في البادية بخيامهم وركوبهم ولباسهم ونأخذ على سبيل المثال بعضا مما جاء في رواية (أرمانوسة المصرية) " فعلم إنه البطل الشهير عمرو بن العاص ، وكان قد سمع به كثيرا فتفرس فيه جيدا ، فإذا هو قصير القامة وافر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب كان بها الذهب يتألق ، ومنها حلة وعمامة وجبة .... وجنده يملأون الصحراء ، وفيهم الفرسان والهجانة والمشاة وحملة الأعلام ، وقد لبس كبارهم العمائم الخضر وتقلدوا السيوف والخناجر . وأما المشاة ففيهم نقلة الرماح والنبال . ...ثم أخذوا يتفرقون ، ينصبون الخيام ويضربونها . وأول خيمة ضربت فسطاط الأمير ، وهو خيمة كبيرة مبطنة بالحرير الأحمر نصبوها على أعمدة من القصب الهندي ، وضربوا أطنابها وفرشوا أرضها بالبسط والطنافس ...)(1)

إن زيدان لم يكتف بوصف المجتمع الجاهلي ومجتمع صدر الإسلام بل إنه وصف كل المجتمعات العربية القديمة والحديثة ، فزيدان كروائي ومؤرخ لا يكفيه تقرير الحقيقة التاريخية الموجودة ، وإنما يحاول أن يزيدها جمالا ورونقا بوصفه آداب العصر وأخلاق أهله وعاداتهم حتى يجعل القارئ يعاصر أبطال الرواية ويشهد مجالسهم ومواكبهم فزيدان لا يكتفي بدور المؤرخ الذي يعبر عن الحادثة في سطر أو سطرين ، بل أنه وشح الحادثة التاريخية بخلاصة دراسة طويلة في آداب القوم وأخلاقهم وعاداتهم ، فمثلا نجد الكاتب في تصويره لحادثة مقتل جعفر البرمكي لم يحذ حذو المؤرخ ويعبر عنها في سطرين ، بل نجده من خلال الرواية يعبر عنها تعبير الخبير بالمجتمع في ذلك العصر فيصف أشكال الملابس وألوانها ، وأشكال الأسلحة والمكان الذي قتل فيه جعفر والتفنن في تصويره، والزمان الذي قتل فيه

---

(1) جرجي زيدان : رواية أرمانوسة المصرية ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1988م ، ص92-93.

صباحا أو مساء . جاء في هذه الرواية ((فلما كان الضحى خرج جعفر البرمكي في موكبه الحافل وحوله الفرسان والركابية ، حتى أقبل على قصر الخلد ......فوسعوا له فدخل بالأبهة والعظمة على عادته ....))(1) وأيضا جاء فيها " وخرج جعفر حتى أتى باحة القصر فركب في موكبه من الفرسان والغلمان ، وساروا يطلبون قصر الخلد ...ويتوسط الموكب جعفر بسواده وقلنسوته ،وحوله الفرسان من نخبة رجاله من الفرس الذين يفدونه بأرواحهم .....ودخل جعفر فأقفل الباب وراءه .....ورأى في فناء القصر قبة تركية ....فدخلها فلم يجد أحدا ورأى في أرضها سيفا ونطعا فأيقن بالهلاك ...." (2) .

إذا نظرنا إلى المجتمعات القديمة التي تناولها الكاتب لا نجد أي مقارنة بينها وبين مجتمع الكاتب الذي أشرنا إليه سابقا ذلك المجتمع الشامي الذي لا يشبه بأي حال من الأحوال المجتمعات العربية القديمة ذات الخيام البدوية التي لا تمت بأي صلة لمنازل أهل الشام في عصر الكاتب . باستثناء الروايات التي تناول فيها الكاتب العصور الحديثة من مثل روايته (الانقلاب العثماني) وروايته (أسير المتمهدي) والتي روى فيها ما شاهده وما عاصره من أحداث تاريخية وذلك إذا علمنا أن الكاتب رافق الحملة النيلية إلى السودان مترجما بقلم المخابرات ، وأنه قضى هنالك عشرة أشهر ، وربما هذا ما أسعفه وهو يصف المجتمع السوداني في تلك الحقبة من التاريخ في أن ينجح في تصوير عادات ذلك الشعب في المأكل والمشرب والزي وطرق المعيشة وكذلك نجاحه في وصف الأماكن والبيئة السودانية . جاء في هذه الرواية " ولما جاء العصر سمع نقر الدفوف من بعيد ، وعلم أن هذا هو موسيقى الجيش المهدوي ....ووراء هذه الموسيقى خيالة على أفراس بسرج عربية وعليهم لباس الدراويش المؤلفة من جبة من نسيج السودان يقال لها مرقعة لأنها

---

(1) جرجي زيدان : رواية العباسة أخت الرشيد ، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1988م ، ص ،136.

(2) المرجع السابق :ص ، 143.

مرقعة بقطع مختلفة الألوان ، وعلى رؤوسهم عمائم بيضاء ....تسترسل من كل منها ذؤابة طويلة تتدلى على الصدر ...وهم حفاة وقليل منهم يحتذون نعالا تشدها على القدمين سيور من الجلد ، وحول صدورهم سبحات مدلاة على صدورهم "(1)

وجاء فيها أيضا : " والخرطوم وهي واقعة على الشاطئ الشرقي للنيل عند ملتقى النيلين . وهي أكبر مدن السودان .....وهي آهلة بالسكان وفيها ديوان الحكمدارية والمجلس المحلي ومستشفى ومخازن للذخيرة ومكاتب للتلغراف والتليفون ومتاجر بها أنواع البضائع ....وحدائق وبساتين كثيرة حافلة بأشجار الليمون والبرتقال والعنب والرمان والتين ..." (2)

أما أخلاق المجتمعات التي تناولها الكاتب فهي أخلاق متباينة بتباين المجتمعات منها الأخلاق الحميدة التي قد تشبه أخلاق المجتمع الذي عاش فيه الكاتب ، فالعائلة الشامية في تلك الفترة عرفت بمناقب عديدة من مثل الكرامة والأنفة والكرم برغم الفقر الذي كان شائعا في ذلك المجتمع الشامي في القرن التاسع عشر . ومنها المجتمعات التي لم تكن بذات أخلاق حميدة وهي مجتمعات لا تشبه بأي حال أخلاق المجتمع الذي عاش فيه زيدان .

كما تزخر روايات زيدان بالكثير من المواعظ والوصايا التي يوجهها الراوي إلى مجتمعه ، ولا نعتقد بأن زيدان قد قصد بهذه المواعظ والوصايا إصلاحا اجتماعيا يتعلق بالأخلاق والضمير الإنساني ، وربما كان يقلد من سبقوه من روائيين ، كما أن الفساد الذي صورته بعض الروايات لم يكن مقصورا على مجتمع معين أو زمان معين ، فكل رواية من روايات زيدان فيها وصف لشخصيات ونفسيات

---

(1) جرجي زيدان : رواية أسير المتمهدي ، طبعة دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1988م ، ص 122.

(2) المرجع السابق : ص ، 118-119.

أبطال الروايات وربما هذه صورة تقابلنا لبعض الناس في أي عصر من العصور ، وهكذا كانت روايات زيدان بعيدة كل البعد عن أي نوع من أنواع الإصلاح الاجتماعي ، وزيدان في رواياته لم يعالج أي موضوع اجتماعي وكل الذي فعله أنه حاول أن " يرسم التاريخ وعصوره في صور مكبرة تجمع أبهى المناظر وأهم المظاهر ، يوشيها بما يشوق القارئ إلى مطالعة التاريخ ، واستطلاع أحوال العصر ...والتعرف على عادات الأمة وتقاليدها التي تحيط بالوقائع ..."(1)

إن روايات زيدان في غالبها كانت بعيدة عن العصر الذي كتبت فيه ، بعيدة عن قضاياه ، فلا تعبر عنه وتعبر عن عصور غيره قد خلت ؛ باستثناء قلة من هذه الروايات . ونحن لا نعيب ذلك على زيدان ، فالأدب غير ملزم لأن يكون مرآة للمجتمع يعكس كل ما يدور فيه وما هو عليه ؛ يقول عز ا لدين إسماعيل : " والمجتمع من العوامل التي تؤثر تأثيرا واضحا في إنتاج الأديب ، ولكن هذا العامل قد لا يكون قويا ذا أثر بعيد في العمل الأدبي " (2) وعمل زيدان هذا إن كان له أثر على مجتمعه ، فهو ما قدمه من خدمة في مجال التاريخ العربي والإسلامي ومن تحفيز وتشويق لدراسة هذا التاريخ وليس أدل من ذلك من أن تكون روايات زيدان قد حظيت بإقبال الخاصة والعامة وأنه قد مر عليها ما يقارب نصف قرن وهي حية تقرأها الأجيال جيل بعد جيل .

---

(1) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، ص ، 181.

(2) عز الدين إسماعيل : الأدب وفنونه (دراسة ونقد) ، ط7 ، مطبعو السعادة ،مصر ، 1978م ، ص:42-43.

أما أغراضه السياسية إلي دفعت به إلى تأليف رواياته فأننا لا نستطيع نفيها منها أنه مسيحي الديانة فلماذا يبحث في تاريخ المسلمين ، ومنها قدومه إلى مصر من بيروت مهاجرا لا يملك حتى ثمن التذكرة التي قدم بها إلى مصر مما اضطره إلى الاستدانة ثم تحوله المفاجئ من حالة الفقر المدقع التي اضطرته إلى ترك الدراسة إلى صاحب أكبر مطبعة في ذلك الوقت ، ثم إلى صاحب مجلة من أشهر المجلات في ذلك الزمان ، نضيف إلى ذلك عمله كمترجم بقلم الاستخبارات الانجليزية أثناء مرافقته للحملة الانجليزية للسودان ، وعلاقته غير المحدودة بالمستشرقين الغربيين ، وإن كان ذلك لا ينفي أنه لم يشتهر بالعمل السياسي بمعناه الواسع والكبير ، يؤيد ذلك ما عرف عنه من اعتدال الرأي وعدم التطرف في الأحكام ، يقول في ذلك أنور الجندي : " لقد كانت آراء زيدان وأفكاره ومذاهبه في غاية الاعتدال " . (1)

أما مشاركته في أحداث عصره بإسداء الرأي والنصيحة فأنه لأمر عادي وطبيعي يصدر عن أي فرد من أفراد الأمة ، ولا يعني بأي حال التطرف السياسي أو تبني الآراء والقضايا .

فزيدان عاصر حوادث الانقلاب العثماني وحركة الدستور وحركات الصراع العربي للتخلص من السيادة العثمانية . ولم يشأ الرجل أن يعيش على هامش الأحداث فكان له رأي واضح صريح في ذلك ، فكتب مقالا في مجلة الهلال سنة 1910م ، جاء فيه : " وطائفة تعجلت استثمار الدستور ، فهي تريد أن تصير المملكة العثمانية التي قضت قرنين في حال الاحتضار ، وقد نضبت ماليتها ، وأجدبت أرضها ، وأظلمت مدنها ، وتخربت طرقها وشوارعها وفسد كل شيء حتى

---

(1) أنور الجندي : من أعلام الفكر والأدب : القاهرة سنة 1964م ، ص، 89.

أخلاق أهلها ، وأختل نظام اجتماعها ومذاهبها ، تريد هذه الفئة من المنتقدين أن تصير هذه المملكة في سنين من أرقى ممالك أوروبا وهذا مستحيل ... " . (1)

فزيدان لم يكن يلتفت للصراعات الطائفية وتقلبات الأحداث السياسة الكثيرة التي حفل بها عصره إلا بالقدر المعقول الذي يسمح بإبداء الرأي ، فزيدان غلب عليه الاشتغال بالعلم والأدب والتاريخ ، ولم يتفرغ للعمل في الحقل السياسي . وعندما تناول روايات تاريخ الإسلام من أول ظهور الإسلام إلى العصر الحديث ، حاول أن يسرد أحداث هذا التاريخ معتمدا على مصادره التي أشار إليها في أول كل رواية ، دون أن يتأثر هذا التاريخ بأي حدث من أحداث عصره السياسية .

وإن كان زيدان تناول في بعض رواياته أحداث دارت وجرت في عصره من مثل روايته (الانقلاب العثماني) التي قطع بها سلسلة رواياته المتسلسلة من عصر ظهور الإسلام إلى العصر الحديث ، فقد كانت أخر رواية كتبها قبل رواية الانقلاب العثماني 1910م ، رواية أحمد بن طولون 1908م ، وبين الروايتين الكثير من التسلسل الزمني للأحداث ما يزيد عن تسعمائة عام .

وليس معنى ذلك أن الرجل سياسيا متعصبا قطع سلسلة رواياته حتى يؤرخ لأحداث الانقلاب الدستوري الذي حدث في تركيا عام 1908م ، بل أنه فعل ذلك مضطرا عندما ألح عليه القراء لكي يقدم لهم هذا الحدث الهام .

وإن لم تكن لزيدان أغراض تتصل بالمجتمع أو أغراض سياسية واضحة قد عملت على دفعه لتأليف رواياته ، فإن ذلك لا ينفي أنه كانت له أغراضه الدينية التي دفعته إلى ذلك .

وإذا نظرنا إلى الدين في هذه الروايات ، فأنه بلا شك قد تأثرت كثير من الآداب العربية بالإسلام تأثرا عظيما تناول الصورة والمضمون ، وظهرت آثاره في

---

(1) مجلة الهلال : عدد سنة 1910م .

الموضوعات والعبارات والأفكار ، والعرب جميعا متفقون في اللغة والثقافة والوجدان على اختلاف أديانهم (1) وعلى الرغم من أن زيدان كان نصرانيا دينا إلا أنه كان عربيا نشأة ولغة وفكرا وثقافة ؛ وذلك لأن الإسلام لا ينفصل عن الثقافة العربية

وعندما تتبعنا روايات زيدان وجدنا أثرا واضحا للمسيحية وتأثرا واضحا بها وبتعاليم الدين المسيحي من ذكره للكنائس والأديرة ومن حديثه عن الرهبان والصلبان والبطارقة وما إلى ذلك . مثال ما نجده في رواية (أرمانوسة المصرية) والتي بدأها بالحديث عن طائفة الأقباط المسيحية وعلاقتها بالرومان الذين يدينون بنفس الديانة ، وفي الرواية نجد البطلة أرمانوسة مسيحية من طائفة الأقباط وهي ابنة المقوقس زعيم طائفة الأقباط المسيحية . وذكر في الرواية عددا كبيرا من الأديرة والكنائس من مثل دير ماجرجس ، والكنيسة المعلقة كم نجد ذكرا للكهنة والبطاركة،(2) ولم تخل روايته من ألفاظ مسيحية من ذلك " أطلب من الله بكرامة العذراء مريم صاحبة هذا الدير ان يسقط في أيديهم ويخرجوا من هذه البلاد على أعقابهم "(3) ومن ذلك أيضا " فقالت بربارة بصوت منخفض بل هو أقرب من الأب ، تذكري قول الكتاب المقدس ، فعلمت أنها تذكرها بأمر الكتاب القائل : يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته . فقالت لها ولكنك لا تجهلين يا بربارة أن إكرام الوالدين من وصايا الله العشر "(4)

وزيدان كما عرفنا مسيحيا ، وقد بث في رواياته كثيرا من المواعظ على لسان شخصياته وهي تصلح أن تقال في الديانتين الإسلامية والمسيحية معا ، كما بث بعض الألفاظ التي تتعلق بعبادات خاصة بالمسلمين ، ومن أمثلة النوع الأول تلك

---

(1) أحمد محمد الحوفي : التراث الروحي والشعر الحديث ، ط2 ، القاهرة ، 1965م ، ص ، 5.

(2) رواية أرمانوسة المصرية : ص ، 242.

(3) رواية أرمانوسة المصرية : ص ، 17-18.

(4) المرجع السابق : ص ، 19.

الحوارية التي دارت في روايته (أرمانوسة المصرية) ما بين أرمانوسة وجاريتها بربارة : " فقبلتها بربارة وجعلت تخفف عنها قائلة : لا تيأسي يا بنيتي من نعمة الله .....أما أنت فأنك بالغة مرادك بأذن الله . فلا تخافي وعلي تدبير هذا الأمر . ومن مثل : طيبي نفسا ولا تجزعي ....لا سمح الله بما يضرك . قري عينا واعتصمي بالصبر الجميل ..... فقالت أرمانوسة : من أين يأتيني الرقاد وأنا على هذه الحال ....
فقالت : طيبي نفسا وقري عينا وتوكلي على الله . (1)

ومن أمثلة النوع الثاني تلك الخطبة التي نسبها إلى عمرو بن العاص عند فتحه لمصر، جاء فيها : " بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن العاص أمير جند العرب القادم لفتح مصر إلى المقوقس حاكم مصر . أما بعد فإن الله كتب لنا النصر منذ دخلنا هذه الديار ، ....ولا بد لنا من فتح هذا الحصن أن عنوة وأن صلحا ، ولا نبالي بمن يقتل منا في سبيل فتحه ، فأن أحدنا ينتظر ساعة الشهادة ليلقى وجه ربه ، وهاأنذا أعرض عليكم واحدة من ثلاث : فأما أن تدخلوا في ديننا فيكون لكم ما لنا وعليكم ما علينا وأما أن تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وأما السيف ، فاختاروا لأنفسكم . " (2) ولا يخفى أن هذا النص بدأ بسم الله ، وأنه تضمن تعاليم مستمدة ومقتبسة من الدين الإسلامي ، ومقتبسة من آيات القرآن الكريم . وليس فيها شيء من تعاليم المسيحية . ولا نستطيع أن نقول إن زيدان كان هدفه وغرضه في هذه الروايات بيان أحكام الدين الإسلامي ، وإنما كان غرضه رواية التاريخ الإسلامي وكان هذا قصده من سائر ما جاء في رواياته من مواعظ وتعاليم إسلامية .

وما لا نستطيع الجزم به أن يكون زيدان غير متأثر بالديانة المسيحية في رواياته والأدلة على ذلك كثيرة ، من انحياز واضح للنصارى ، والعمل على إظهارهم في أجمل صورة ونعتهم بجليل الصفات والآداب ،

---

(1) رواية أرمانوسة المصرية : ص ، 242.

(2) المرجع السابق ، ص ، 21.

(3) المرجع السابق ، ص ، 209.

إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة التي توضح انحيازه السافر لديانته النصرانية ، وإن كان يروي تاريخا إسلاميا إلا أنه لم يستطع أن يقف موقف المحايد من هذه الأديان .

وأمر أخر يختص بهذه الناحية الدينية وأحسبه أمرا جلب على كاتبنا الكثير من النقد وأدخله في دائرة يصعب الخروج منها ، وهو النصراني الذي يتناول تاريخا إسلاميا ؛ ذلك أن زيدان لم يركز في رواياته لتاريخ الإسلام على الفترات المشرقة من التاريخ الإسلامي ، واختار الفترات التي تمثل صراعا ما بين الطوائف والمذاهب فبان وكأنه يريد تعرية التاريخ الإسلامي وكشفه للعيان ، فعمرو بن العاص لم يستطع فتح مصر إلا بمعاونة الأقباط المسيحيين للمسلمين وخيانتهم للرومان (1) والعباسة أخت هارون الرشيد تقتل هي وولديها الصغيرين وزوجها على يد هارون الرشيد ، (2) والأمين بن هارون الرشيد سفيه طائش جلب الغلمان من شتى أنحاء البلاد ، والمستعصم بالله يستمع لغناء الجواري ويطرب ويلهو ويرسل في طلب جارية من مصر وهولاكو معسكر على أبواب بغداد ، (3) وأنصار المهدي الدراويش أغبياء وسذج ، يحملون آنية كبيرة من النحاس شدً عليها رق ينقرون عليها نقرات تقلق الأذن وهم يطربون لها . (4)

---

(1) رواية أرمانوسة المصرية .

(2) رواية العباسة أخت هارون الرشيد .

(3) رواية شجرة الدر .

(4) رواية أسير المتمهدي .

الخلاصة :

وأخيرا نقول إننا لا نستطيع الجزم بأنه لم تكن لزيدان أغراضه الدينية الخاصة التي دفعت به إلى التأليف الروائي في مجال الرواية التاريخية والتاريخ الإسلامي على وجه الخصوص . وزيدان وهو ينسج هذه الروايات ، أغفل الكثير من أحداث التاريخ الإسلامي ، كما أنه فاته أن يراعي الكثير من الأمور وهو يتناول تاريخا إسلاميا يخالف عقيدته المسيحية .

المبحث الأول

الشخصيات

يرسم جرجي شخصياته بدقة ومهارة ويعكس عليها معاني خاصة نلمحها في ملامح الشخصية وحركاتها وسلوكها الاجتماعي .

والشخصية المحورية عنده تتصف دائما بالذكاء والجمال والترف ، وهي شخصية خيرة ، من أجل ذلك يضيف إليها الكاتب كل الصفات الجمالية سوى كانت صفات حسية أو معنوية ، وكأن الكاتب يرى أن الجمال الجسدي لازم للشخصية الخيرة ، إذ أن الجمال المطلق يناسب الصفات المعنوية بصفة مستمرة ...

يقول جرجي واصفا العباسة بطلة روايته(العباسة أخت هارون الرشيد) : ((عليها هيبة الملائكة ....مابين الخامسة والثلاثين من عمرها وفي وجهها جمال وهيبة لم يشاهد مثلها ، .....ولو تأملت الهيبة لرأيت مصدرها عينان لم تكونا كبيرتين ولا واسعتين ولكنهما ترسلان أشعة براقة ....حنطية اللون مشربة حمرة ، لها مبسم ينطق بغير كلام .... على جبينها عصابة مكللة بالجواهر ....صفت شعرها على شكل جمة .....في مقدمة الجمة طرة مرصعة بالجواهر على شكل طائر عيناه منا الزمرد وفي أجنحته فصوص من الياقوت الأحمر ....)) .(1)

كما أن وصف ملابس الشخصية يكمل البعد الجسمي لها فقال واصفا ملابسها : ((أما أثوابها فمن أثمن المنسوجات)) .(2)

---

(1) جرجي زيدان : روايات تاريخ الإسلام ، العباسة أخت الرشيد ، دار الجيل ، بيروت لبنان ، ط2 ، 1988م ، ص ، 13- 14 .

(2) المرجع السابق : ص ، 14 .

نلاحظ أن الكاتب وصف البطلة وصفا مثاليا نمطيا وإذا نظرنا إلى هذه البطلة نظرة إجمالية – بحسب وصف الكاتب – نرى أنها بلا عيب ، وإذا نظرنا إلى كل عضو من أعضاء جسدها ، نرى أنها كانت كادت تكون بلا عيب . ومن خلال وصفه للشخصية وأطنابه في هذا الوصف نحس وكأن الكاتب يحاول أن يقدم شخصيته دفعة واحدة بكل صفاتها .

وتنقسم الشخصيات الرئيسية عند جرجي إلى قسمين ، شخصيات خيرة وشخصيات شريرة ، كما تخضع الشخصيات الثانوية لهذا التقسيم ، فالشخصيات الخيرة تحتاج إلى أعوان يساعدونها على فعل الخير ، والشخصيات الشريرة تحتاج أيضا إلى أعوان يعينونها على فعل الشر ، وهذا التقسيم انتظم كل روايات الكاتب دون استثناء لأي رواية منها .

ومن الأمثلة العديدة على ذلك في روايته (أسير المتهمدي) أختار الكاتب فدوى لتقوم بدور الحبيبة المثالية ، واختار شخصية شفيق لتمثل دور الحبيب المثالي . وأختار عزيز لمثيل الجانب المقابل جانب الأعداء الذين يسعون إلى المؤامرة بهدف التفريق بين الحبيبين .(1)

ومثال أخر في روايته (العباسة أخت هارون الرشيد) ، فقد اختار جرجي العباسة لتمثل دور المحبوبة المثالية ، وأختار شخصية جعفر البرمكي لتقوم بدور الحبيب المثالي ، ووضع في الجانب المقابل شخصية زبيدة - زوج هارون الرشيد – والفضل بن الربيع - وزير الرشيد – لتمثيل جانب الأعداء الذين يسعون للإيقاع بالحبيبين . (2) وفي روايته (الانقلاب العثماني) يجعل من رامز وسيرين الحبيبين المثاليين ، ويجعل

---

(1) جرجي زيدان : روايات تاريخ الإسلام ، أسير المتمهدي ، دار الجيل ، بيروت- لبنان ، ط2 ، 1988م .

(2) العباسة أخت الرشيد .

من صائب العدو المنافس ، ويجعل من السلطان عبد الحميد الأداة التي يستغلها صائب للظفر برامز . (1)

أما الشخصيات الثانوية التي تقف خلف الشخصيات الرئيسة بأنواعها تتمثل أولا في الشخصية الوفية المخلصة لسيدها غاية الوفاء ، كما تصورها شخصية (شوكار) في (رواية شجرة الدر) ، (2) وشخصية (عتبة) في رواية (العباسة أخت الرشيد) ، ثم تبلغ هذه الشخصية قمتها في شخصية (بربارة) في رواية (أرمانوسة المصرية) ، (3) وشخصية (بخيت) في رواية (أسير المتمهدي) .

وتتمثل في هذه الشخصية ملامح الفرد المخلص لسيده غاية الوفاء ، المتفاني في خدمته وراحته حتى لو كلفه ذلك حياته .

وتتمثل ثانيا ، في أعوان الشخصيات الشريرة ، مثال شخصية (سلامة) في رواية (شجرة الدر) ، وشخصية (صائب) ، في رواية (الانقلاب العثماني) .

وتقوم هذه الشخصية مقام أداة الشر التي يستعين بها الأشرار لتنفيذ مخططاتهم الدنيئة .

---

(1) جرجي زيدان : روايات تاريخ الإسلام ، الانقلاب العثماني ، دار الجيل ، بيروت- لبنان ، ط2 ، 1988م .

(2) جرجي زيدان : روايات تاريخ الإسلام ، شجرة الدر ، دار الجيل ، بيروت- لبنان ، ط2 ، 1988م .

جرجي زيدان : روايات تاريخ الإسلام ، أرمانوسة المصرية ، دار الجيل ، بيروت- لبنان ، ط2 ، 1988م .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن الكاتب يقدم شخصيات رواياته دفعة واحدة ، وأن هذه الشخصيات تظل ثابتة على حالها الذي فرضه عليها الكاتب ، فالشخصيات الخيرة تظل خيرة وتقوم فقط بعمل الخير ، والشخصيات الشريرة تظل شريرة ولا تقوم إلا بأعمال الشر ، ولا نجد أي تحول في نفسية الشخصية الرئيسة أو الشخصية الثانوية ، وبذلك يغفل الكاتب دور عوامل الخير وعوامل الشر التي تتأرجح داخل النفس البشرية، وإذا رحنا نبحث عن سبب لتمسك الشخصيات بمواقفها حتى النهاية ، حسب رؤية الكاتب ، وجدنا السبب يكمن في رغبة الكاتب وحرصه على
انتصار الخير كقيمة مطلقة ، دون الالتفات لإبراز الموقف الإنساني من خلال صراعه مع قيم الخير وقيم الشر التي تعتمل في داخل النفس البشرية

وأمر أخر نلاحظه أن الكاتب يفرض مواقفه فرضا على هذه الشخصيات ، وكأن الشخصية تتحدث بلسان المؤلف ، وتعبر عن أفكاره
ومواقفه الأخلاقية والتربوية والإصلاحية ، فلا تحس مع هذه الشخصيات بأنها تحيى حياتها الخاصة بكل ما فيها من حرية ، بل نجد الكاتب وفي أكثر من موقف يتوقف ليعلق على مواقف الشخصيات أما منتقدا او معلقا . فالشخصية الخيرة هي وسيلته في فرض ما يرى ويعتقد ، والشخصية الشريرة هي مجال كل القيم التي يرفضها ويندد بها ويدعو إلى التخلص منها . وهكذا تأتي الشخصيات لخدمة وتنفيذ أفكار الكاتب ومعتقداته ورغباته .

ولذلك نحسها نماذج ثابتة مسطحة تمثل صفة واحدة من الصفات الإنسانية .

ألف جرجي هذه الروايات كما أسلفنا لهدف تعليمي ، فكان لا بد أن تترك هذه النزعة التعليمية عند جرجي آثارها في تصويره للشخصيات ، ومن اجل ذلك جاءت كل رواياته مصورة لشخصيتين مثاليتين في فضائلهما يقوم بينهما حب عفيف طاهر ، ثم يصطدم هذا الحب بالبيئة اصطداما شديدا ، ويحاول الحبيبان المثاليان الدفاع عن حبهما بكل الوسائل المشروعة ، وبذلك يدافعان عن هدف سام ، ثم تأتي المنافسة على هذا الحب من بطل شرير يستعين بكل الوسائل غير المشروعة ، بهدف التفريق بين الحبيبين والفوز بهذه الحبيبة ، ثم يستعين بشخصيات شريرة تقف ضد هذا الهدف السامي الذي يسعى إليه الحبيب وحبيبته .

كما إن الكاتب يلتقط شخصياته من التاريخ فهي شخصيات تاريخية في الجانب التاريخي ، وشخصيات متخلية موضوعة فنيا في الجانب القصصي من الرواية . فالشخصيات التاريخية ينتزعها الكاتب من العصر الذي يتناوله والمجتمع الذي تدور فيه الشخصيات ، وعندما تناول الكاتب العصور القديمة من التاريخ ألفينا شخصياته تنتمي إلى طبقات متعددة ما بين الطبقة الحاكمة والتي يركز عليها الكاتب دائما وما بين الشخصيات التي تنتمي إلى طبقات أقل وتدور في محور الطبقة العليا ، فمن الطبقة الوسطى نلمح شخصيات الشعراء من مثل شخصية الشاعر أبي العتاهية

في رواية (العباسة أخت الرشيد) والذي صوره الكاتب في صورة صاحب مؤامرات ودسائس حتى أنه كان السبب في كشف سر العباسة الذي أفضى بمقتلها – بحسب ما جاء في الرواية - كما صوره طماعا مصاحبا للنخاسين وبايعي الجواري رجاء الكسب المادي . وأيضا صور شخصيات المغنين والمغنيات في تلك العصور .

وقد أضاف جرجي لهذه الطبقة بعض اللمحات والقسمات لتوافق الدور الذي أعدها له .

ومن الطبقة الدنيا نجد شخصيات الوصيفات والجواري والغلمان والعبيد ، وممن على شاكلتهم ممن يدورون في محور الشخصيات الرئيسية ، ويأتمرون بأمرهم .

ومن خلال مراجعتنا لروايات جرجي وبحثنا المضني فيها التقينا مرة بعد مرة بأنماط بعينها من المواقف والشخوص التي لا تكاد تتغير في نسيج تكوينها ، ولكن مقدرة الكاتب الفنية استطاعت أن تظهرها في كل مرة بصورة جديدة .

ولعل الكاتب اتخذ من شخصياته نماذج رئيسية كبرى ، تركزت في هذه الشخصيات التكوينات النفسية والاجتماعية ، ولعل في ذلك سر ترددها في روايات الكاتب المرة بعد المرة . وأن اختلفت أسماؤها وظروفها وتباينت الأحداث المحيطة بها . ولكنها ظلت في الغالب أنماط رئيسية ثابتة من الأنماط الإنسانية الكبرى ، تظهر في كل مرة بروح جديدة .

وأول هذه الشخصيات شخصية الخليفة الحاكم أصل الدولة ، الرجل القوي الذي يجمع في وقت واحد ما بين الصرامة والقوة وما بين تيارات النفس الخفية التي تفيض بالشهوات ، كما صورها الكاتب في شخصية هارون الرشيد – بحسب ما أورده في روايته – (العباسة أخت الرشيد) ، وفي شخصية الخليفة العباسي المستعصم بالله ، في رواية (شجرة الدر) ،وإن كانت الشخصيات تتشابه في خطوطها العريضة فإنها تتشابه أيضا في نفسيتها ، فهي تعبر عن خوفها وقلقها بصورة تكاد تكون متشابهة ، فقلق الرشيد على عرشه في رواية (العباسة أخت الرشيد) هو نفسه قلق المستعصم بالله على عرشه في (شجرة الدر) وهو نفسه قلق السلطان عبد الحميد عليه ، في رواية (الانقلاب العثماني) .

بل إن حب كل بطلة وبطل في روايات جرجي هو نفسه حب البطلة والبطل الأخر في رواية أخرى ، بل حتى مواقف الأبطال وتعبيرهم عن أحاسيسهم ومشاعرهم حيال المواقف والأحداث ، يتشابه في كل الروايات .

وإذا ما انتقلنا إلى شخصية أخرى من شخصياته المكررة وقفنا على شخصية الخادمة أو الوصيفة أو الخادم ، والتي تتصف بإخلاص ووفاء يندر وجوده ، ألفيناه هذه الشخصية تحتل مكانة بارزة بين شخصيات

الكاتب وإن كانت من الشخصيات الثانوية ؛ ويندر أن تخلو رواية من رواياته من هذه الشخصية .

وإذا تسألنا ما هو هدف جرجي من إبرازه لهذه الشخصيات في رواياته . أهو نمط نادر أم هو واقعي في المجتمع ؟

ونصل إلى نتيجة واضحة هي أن جرجي لم يبعد كثيرا في تحديد ملامح هذا النمط ، لأنه يمثل أفراد المجتمع في تلك العصور التي تناولها الكاتب ، وتلك الفترة من التاريخ التي عرفت بالقصـــور والجـــواري ، والغلمان والشعراء والمغنين وأسباب اللهو وما إلى ذلك .

وإذا توقفنا عند الشخصيات النسائية للكاتب ، نجد المرأة تتصف عنده بالجمال والرقة ، وتتمثل فيها كل القيم الجمالية من جمال حسي وجمال معنوي ، والمرأة عنده محافظة لا تخرج عن حدود الدين والتقاليد ، تحترم أسرتها ولا تخرج عن رأي الأسرة حتى لو أدى بها ذلك إلى فقد من تحب ، مثل ما طالعنا أرمانوسة في رواية (أرمانوسة المصرية) ، وفدوى في رواية (أسير المتمهدي) .

والمرأة عنده صاحبة امتيازات خاصة تجعلها محط أنظار الجميع . وهي كائن ضعيف لا حول له ولا قوة مهما توفرت لها أسباب الذكاء والجمال والدهاء ، والمرأة عنده تنشد الحب والأمان وتغامر من أجل ذلك حتى لو كلفها ذلك حياتها ، كسلافه في رواية (شجرة الدر) والعباسة في رواية (العباسة أخت الرشيد) .

وفي الجانب الأخر نجد المرأة القوية صاحبة السلطة والجبروت والتي لها أهداف ومطامع عليا لم نألفها عند الشخصيات النسائية للكاتب يقول عن شجرة الدر : ((كانت شجرة الدر في جملة جواري الملك الصالح

،... كما كانت على جانب عظيم من الدهاء والذكاء ، فنالت نفوذا عظيما عنده . فلما مات في المنصورة سنة 647ه كتمت أمره وقامت بأمور الدولة ، وكانت توقع على الأوامر بتوقيعه خوفا من الفشل وهم في حربهم مع الصليبيين))(1) ، ويستطرد الكاتب في وصفها قائلا : ((ولم تحسن ارتداء مطرفها ، حتى ليخيل على الناظر إنها في شاغل مهم ، ناهيك بما في عينيها من دلائل القلق حتى يكاد الشرر يتطاير منهما لفرط ما جاش في خاطرها من البلبلة ، وهي امرأة ليست كسائر النساء ، فلها قلب الرجل ،

شجرة الدر ، ص ، 8 .

ومطامع كبار الرجال إذا عزمت أمرا فلا تبالي ما يقف في سبيلها من العقبات لأنها تذللها بأي وسيلة كانت . كما يفعل عظماء الرجال وأرباب المطامع .))(1)

وما نلاحظه على جرجي أنه غالبا ما يرسم شخصياته من الخارج وأنه غالبا ما يأتي بأوصاف جسمية للشخصيات رجالا ونساء ، وهكذا كان اغلب اعتماد جرجي في رسم شخصياته على الوصف الحسي المظهري وخاصة في قصصه الغرامية التي يأتي بها في ثنايا رواياته عن تاريخ الإسلام . من ذلك ما جاء في روايته (أسير المتمهدي) من أوصاف مظهرية كما في قوله واصفا شفيق بطل الرواية وزميله عزيز قائلا : ((كان شفيق في التاسعة عشرة من عمره ، طويل القامة معتدلها ، قمحي اللون ، ذا عينين سوداوين تحت حاجبين متصلين ، صغير الفم واسع الجبهة أسود الشعر خفيف العارضين . وكان قد ربي في بيت أبيه تربية حسنة ، فشب

كريم العنصر طيب السريرة لا يعرف أساليب المكر والخداع ، وإن كان ذكيا حاذقا)) . (2)

ثم وصف عزيز بقوله : ((كان على جانب عظيم من الثروة التي خلفها له أبوه . وكان قصير القامة كبير الأنف شديد سمرة البشرة ، محبا للتفرنج فلا يخرج إلى الشوارع إلا ونظارته على عينيه وخيطها مسترسل على صدره ، دون ما يدعو إلى ذلك . وكان يميل طربوشه فوق رأسه تيها وعجبا ، وحول عنقه ياقة منشاة لا تمكنه من إدارة رأسه ...إلا بصعوبة . وإذا وقف يقف منتصبا وأن شئت فقل متطاولا ، وفي يده اليمنى عصا غليظة معقوفة الرأس ، وفي اليسرى سلسلة ساعته الذهبية .....ومن شر أخلاقه الحسد والادعاء والرياء ...)) . (3)

---

(1) شجرة الدر ، ص ، 9 .

(2) أسير المتمهدي : ص 14 .

(3) أسير المتمهدي : ص15 .

ومن النماذج الجيدة للكاتب والتي وفق في رسم شخصيتها شخصية عبد الحميد في رواية (الانقلاب العثماني) فقد أجاد الكاتب في تصويره لهذه الشخصية في مختلف أحوالها ما بين عواطف متضاربة وغرائز متباينة ، وما بين خوف وغضب ورجاء ويأس وانتقام وما تبع ذلك من شكه في اقرب الناس إليه ، وكيف أن الناس جميعا صاروا في نظره أعداء ألداء ، ولعل السر في نجاح جرجي في رسمه وتصويره لهذه الشخصية يعود إلى طبيعة هذه الشخصية التاريخية واتساع نطاقها وترامي أطرافها . (1)

الخلاصة :

جرجي الذي كان هدفه الأول تعليم التاريخ للقراء لم يكن لديه متسع من الوقت حتى يبحر في أعماق شخصياته الروائية ليحلل مواقفها ورغباتها ، ولكي يعتني بها العناية الكافية ، فلم يعتني بالتحليل النفسي للشخصيات ، حتى يسبر أعماقها ويستبطن دخائلها استبطانا يساعده في صوغ شخصية نابضة بالحياة . فاكتفى من هذه الشخصية برسم لوحة خارجية لها تسرد أعمالها وتورد أقوالها في أول فصل من فصول روايته ، وبذلك قطع على نفسه خط الرجعة في العودة مرة أخرى للحديث عن هذه الشخصية التي استوفاها وصفا خلقيا وأخلاقيا ؛ في مستهل روايته .

وحتى عندما حاول جرجي تصوير شخصياته من خلال البيئة المحيطة بها ووصف الطبيعة و المناظر المحيطة بالحوادث والشخصيات ، جاء وصفه لهذه المناظر جافا لا تحس فيه بشاعرية الكاتب ولا برهافة حسه وذوقه . وربما لو أفلح جرجي في ذلك لكان صور شخصياته أصدق وأدق تصوير ، ولاستطاع ربط أجزاء روايته برباط شعري شفاف .

---

(1) الانقلاب العثماني .

وحتى عندما يسقط على شخصياته معاني وقيم فإنه لا يجعلها معاني وقيم خاصة بالشخصية ، بل يجعل منها قيم عامة ، وبذلك يحيل شخصياته إلى نماذج عامة تمثل قيما عامة .

وربما عزز كاتبنا أنه كان مؤرخا في الدرجة الأولى قبل أن يكون كاتبا روائيا . وانه جعل إيراد حوادث التاريخ همه الأول .

المبحث الثالث

الأحداث

كتب جرجي روايات تاريخ الإسلام بغرض التسلية والترفيه والتعليم على حد قوله ، والتعليم بصفة خاصة ، فأثر ذلك على بنائها الفني تأثيرا واضحا ، وأثر على تطور الأحداث ورسم الشخصيات .

ولعل أهم ما يميز هذه الروايات أنها تركزت على الصراع الدرامي سواء كان صراعا تاريخيا أم صراعا عاطفيا أو صراعا اجتماعيا . – والذي تمثل في رواية واحدة هي رواية استبداد المماليك – وتتخذ هذه الروايات بناءا هيكليا يتوازى فيه الخط التاريخي مع الخط القصصي . ويعاقب أحدهما بعد الأخر ليكملا بعضهما البعض في إطار بناء زمني يبدأ من الحاضر ويدلف نحو المستقبل في حلقات تاريخية وعاطفية متسلسلة الأحداث .

ولأن التاريخ غاية جرجي نجده في كل رواياته يختار أولا فترة تاريخية طويلة يتصرف فيها كيفما شاء بزيادة أدوار أو أحداث أو شخصيات أو بحذفها ، وذلك ضمن الإطار التاريخي . ولذلك لا يلعب الخيال دورا واضحا في رواياته ، كما نجد الحرية الفنية مقيدة في روايته ، وانعكس كل ذلك على نسيج القصة فبدا مفككا ؛ لتوزع الأحداث واتساع الرقعة التاريخية واختلاف البيئات التي يتناولها الكاتب في رواياته ، وعدم إبرازه للحوادث المهمة ،

أما العقدة في رواياته فهي في الغالب قصة غرامية تقف فيها الظروف أو أحد الناس في وجه الحبيبين ، مثال لذلك روايته (أسير المتمهدي) التي تروي قصة غرام (شفيق) أحد أبناء موظفي القنصلية

الانجليزية ، وفدوى ابنة احد الباشوات المصريين ، وكيف أن هذين الحبيبين واجها الكثير من الظروف التي حالت دون لقاءهما . (1)

ومثال أخر رواية (أرمانوسة المصرية) التي تروي قصة غرام أرمانوسة ابنة المقوقس حاكم مصر في ذلك العهد وأركاديوس بن الأعيرج الروماني القائد الروماني ، وأيضا الظروف تقف في وجه الحبيبين . (2)

ونموذج أخير رواية (الانقلاب العثماني) والتي تروي قصة حب تعترضه العقبات على - عادة جرجي في عقدته وحبكته - بسبب تدخل الأب ، الذي كان يرمي إلى تزويج ابنته بصائب بك ؛ احد جواسيس السلطان ، حتى يضمن لنفسه منصبا يقربه من ولي الأمر ، ولكن الأمر ينتهي بانتصار رامز ، الذي يقوم بدور الحبيب . (3)

وهكذا نلاحظ أن العقدة في كل روايات جرجي تكاد تكون متشابهة ، بل إننا نستطيع أن نقول موحدة ، وأول ما يفعله جرجي أنه يخضع هذه العقدة للموضوع التاريخي ؛ فإما أن يخلق شخصيات خيالية تمثل الجانب الغرامي في الرواية ، ويقوم بربطها ربطا محكما بالشخصيات التاريخية والأحداث التاريخية ، وإما أن يسند الدور الغرامي للشخصيات التاريخية نفسها ، كما فعل في رواية (العباسة أخت هارون الرشيد) فالعباسة شخصية تاريخية معروفة ، زيادة على أن الكاتب اختار لها شخصية المحبوبة التي تجد كثير من العوائق أمام حبها ، وأختار جعفر البرمكي الشخصية التاريخية التي لا تحتاج إلى تعريف ، لتقوم بدور المحبوب

جرجي زيدان : أسير المتمهدي .

جرجي زيدان : أرمانوسة المصرية .

جرجي زيدان : الانقلاب العثماني .

المجني عليه . ثم جعل زبيدة زوج هارون الرشيد والفضل بن الربيع في دور الجـــاني الـــذي يســـعى إلـــى الإيقـــاع بـــالحبيبين . (1)

وهذه العقدة في روايات جرجي ربما يكون استمدها من الكتاب الغربيين واستمدها من الأدب الشعبي ، الذي تمثل في قصص ألف ليلة وليلة ، وأبو زيد الهلالي ، وغير ذلك ، وربما ما دفعه إلى ذلك السعي إلى إرضاء ذوق قراء الأدب الشعبي . وقد أشار هو نفسه إلى هذا الأمر وهو يعلق على الروايات التي ترجمت في عصره ، يقول : ((ومما نقل من الآداب الإفرنجية في هذا العصر القصص . وقد فعل نحو ذلك نقلة العصر العباسي فنقلوا عن الفرس قصصا وحكايات كثيرة ،..... وأما أهل هذه النهضة فقد أكثروا من نقل هذه الكتب عن الفرنسية والانكليزية والايطالية وهي تسمى في اصطلاح أهل هذا الزمان ((روايات)) . والروايات المنقولة إلى العربية في هذه النهضة لا تعد ولا تحصى ، وأكثرها يراد بها التسلية . ويندر أن يراد بها الفائدة الاجتماعية أو التاريخية أو غيرها . وقد رحب قراء العربية العقلاء بهذه الروايات ، لتقوم مقام القصص التي كانت شائعة بين العامة لذلك العهد مما ألفه العرب في الأجيال الإسلامية الوسطى ، نعني قصة علي الزيبق ، وسيف بن ذي يزن ، والملك الظاهر ، وبني هلال ، والزير سالم ونحوها . فضلا عن القصص القديمة كعنترة ، وألف ليلة وليلة فوجدوا الروايات المنقولة عن الإفرنجية اقرب إلى المعقول مما يلاءم روح العصر فأقبلوا عليها .)) (2)

وهذه العقدة الغرامية في رواياته تحركها الأحداث التاريخية لذلك اعتمد الكاتب في رواياته على عنصر المصادفة والمفاجأة والمبالغة . يقول محمد زغلول سلام : ((إن بعض الكتاب يعتمد كي يشد القارئ للقصة إلى

---

(1) جرجي زيدان : العباسة أخت هارون الرشيد .

(2) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج 4 ، ص 572.

أن يفتعل الأحداث وأن يدخل عليها عناصر غير طبيعية لزيادة المفاجأة والإغراب ، وتضخيم الحدث ، مثل تدخل الجن والمردة في قصص ألف ليلة وليلة ، والقضاء والقدر والمصادفات في كثير من قصصنا الحديث ، والمناسب أن تسير الأحداث طبيعية أو كالطبيعية)) . (1)

ففي روايته (أرمانوسة المصرية) نلمح عنصر الصدفة في غير موضع من الرواية من ذلك إنقاذ اركاديوس لماريا خطيبة مرقس . جاء في الرواية : ((..فمضى هزيع من الليل وهو على جواده والجو هادئ وقد ساد الظلام والسكون ، ولم يكن يسمع إلا صوت وقع أقدام الجواد ......وفيما هو سائر تتقاذفه الهواجس سمع صوتا خفيفا عرف من رنته انه صوت امرأة تستجير ، .....فوقف وأصاخ بسمعه جهة الصوت فلم يسمع شيئا ، فظن ما سمعه وهما ، فهم بالسير فسمع الصوت ثانية وقد اقترب ، وإذا بالمستجير يتكلم بالقبطية : أشفقوا على صباي . خافوا من الله إذا كنتم لا تخافون المقوقس ......ولكز جواده ، فسار به إلى جهة الصوت ، حتى إذا أقترب من جهة الصوت سمع قائلا يقول : ((استنجدك يا قادم واستحلفك بالله والشرف أن تنقذني من هؤلاء اللصوص)). ...فأغار بجواده ونادهم بصوت كأنه الرعد ..((أين هم اللصوص ؟ اتركوا الفتاة وإلا أذقتكم المنون بحد هذا السيف)) فركنوا إلى الفرار ...))(2) هكذا رأينا جرجي يلجأ إلى الصدفة لتعينه على ربط المواقف أو حل العقد . ولكن ذلك أدى إلى إضعاف الجانب الإبداعي في الرواية ، كما ابعد الرواية عن دائرة المعقول والواقع . والأمثلة على ذلك غير قليلة في روايات الكاتب .

رأينا كيف أن التاريخ يتحكم في عقدة الرواية الغرامية وبنائها عند جرجي ، بل أن ذلك يمتد ويشمل حتى نهايات روايات جرجي ، فان التاريخ يتحكم في هذه النهايات ، فإذا انتهى الحادث التاريخي نهاية غير سعيدة

(1) محمد زغلول سلام : دراسات في القصة العربية الحديثة ، ص ، 12 .
(2) جرجي زيدان : أرمانوسة المصرية ، ص ، 156- 157.

أصاب ذلك أيضا أبطال الرواية كما حدث في رواية (العباسة أخت هارون الرشيد) . [1]

وهكذا اعتمد جرجي في تطور أحداث رواياته على الصدف والمبالغات كما أعتمد أيضا في تطور أحداث رواياته على التوسل بالحيل التي ينفذها الأشرار من أشخاص عاديين يتوسلون بشتى ضروب الحيل والدهاء ؛ ويعتبر هذا أثر واضح من آثار الأدب الشعبي الذي يتميز بكل هذه الضروب من ألوان التسلية والتشويق ، ولعل التوسل بالحيلة يتضح عند جرجي في روايته (أسير المتمهدي) فقد تكررت الحيل في هذه الرواية ، وكانت أولى هذه الحيل حيلة عزيز للإيقاع بشفيق زميله في الدراسة ، فقد كان من عادة الخديوي إسماعيل أن يختار أنجب تلامذة المدرسة لإرسالهم على أوربا لدراسة الطب والحقوق وغيرهما . وقد توقع جميع التلاميذ تلك السنة وقوع الاختيار على شفيق ، فكان عزيز كلما تصور ذلك كاد يتميز غيظا ، لا رغبة منه في العلم ولكن رغبة في التفاخر ، وكأنما عز عليه أن يكون عزيز أجل منه . فكان لا ينفك باحثا عن وسيلة يحط بها قدر شفيق في عيون الأساتذة والتلاميذ ، فلاح له أن يعمل على إلهاء شفيق عن دروسه وعلى إيقاعه فيما يشين ليحول دون اختياره في للبعثة . ولكن هذه الحيلة لم تفعل فعلها ، ويعود عزيز لنسج الحيل لشفيق حتى يفرق بينه وبين محبوبته فدوى ، حتى أنه يكاد يفلح في ذلك ، وفي الليلة التي خطط فيها على عقد قرانه بفدوى يفتضح أمره وحيلته ويخيب مسعاه .[2] وتحفل هذه الرواية بالعديد من الحيل التي يحيك خيوطها عزيز .

فالتوسل بالحيل والمغامرات والمكائد ظاهرة عامة في أغلبية روايات جرجي ، وكثير ما نلاحظ استخدام العجوز عنصرا هاما في تنفيذ مآرب

---

(1) جرجي زيدان : العباسة أخت الرشيد .

(2) جرجي زيدان : اسير المتمهدي .

الأشرار ، وعندما نتأمل رواية (أسير المتمهدي) لجرجي نلاحظ أنه توسل بالعجائز في غير مرة ، فقد استعان عزيز بعجوز تيسر له أمره وتعينه في إقناع فدوى للزواج منه .(1)

وقد استعان جرجي أحيانا بشخصية أخرى لتقوم بالدور الذي تنفذه العجوز ، على نحو ما نرى في روايته (شجرة الدر) فقد جعل أداة الشر في الرواية (سلافة) والتي سعت للإيقاع بشجرة الدر حتى أنها استطاعت خلعها من عرش مصر- حسب ما جاء في الرواية - .(2)

ومن خلال الحيل والمكائد التي يتعرض لها الطيبون الأخيار تكثر حوادث الإغماء نتيجة للصدمات التي تتعرض لها المحبوبات بخاصة . وتبدو هذه الصدمات أحيانا نتيجة موقف سار غير متوقع كما حدث (للعباسة) بطلة رواية (العباسة أخت هارون الرشيد) ، عندما أغمى عليها عند رؤية ولديها .(1) ويمكننا أن نلاحظ حوادث الإغماء نتيجة صدمة قاسية في مواضع كثيرة في رواية (أسير المتمهدي) ففدوى تتعرض لحالات عديدة من الإغماء نتيجة المكائد والحيل التي حيكت من حولها .(2)

وإذا كانت روايات جرجي قد عرضت أبطالها الخيرين لكثير من المخاطر والأهوال فإنها غالبا تنتهي نهاية سعيدة بعد أن تحل مشكلاتهم جميعا ليعيشوا في هناء وسعادة . وهذا أمر يتفق مع الأدب الشعبي . وإذا كانت معظم روايات جرجي ضمنت للشخصيات الخيرة عاقبة سعيدة فإن بعضها القليل جاء بنهاية غير سعيدة للأبطال الأخيار ، ويمكننا أن نمثل للنهاية السيئة برواية (العباسة أخت هارون الرشيد) حيث تقتل البطلة العباسة وزوجها جعفر البر مكي . (4)

---

(1) أسير المتمهدي .
(2) شجرة الدر .
(3) العباسة أخت الرشيد : ص ، 18.
(4) العباسة أخت الرشيد .

ومما يلاحظ على تطور الأحداث في روايات جرجي أنه يرتبط بالشعر الذي يأتي به الكاتب كحجة قاطعة وموعظة حسنة في ختام الموقف الروائي ، وهو أمر نلمحه في الأدب الشعبي . ومن أمثلة الاعتبار بالشعر عند جرجي ما نلمحه في روايته (العباسة أخت هارون الرشيد) فقد ألجأ هارون الرشيد إلى الشعر في مواضع عديدة من الرواية مثال لجوءه إليه وهو في حالة من الضيق مما ترامى إلى مسامعه من خيانة جعفر البر مكي وزيره وأقرب الناس إلى نفسه ، فهارون كما صوره جرجي كان مستغرقا في هواجسه فأتفق أن وقف أمام أسطوانة بجانب سريره قرأ عليها بيتين استفزتا عزيمته وقضيا بإمضاء أمره وهما :

ليت هند أنجزتنا ما تعد   وشفت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة   إنما العاجز من لا يستبد (1)

وكان هارون مترددا بين الإقدام والإحجام في أمر مقتل جعفر البر مكي ؛ فلما فرغ من قراءة البيتين رجح عنده الإقدام فصمم على قتله . وهكذا استعان جرجي بالشعر في تطور الأحداث في الرواية .

ومن الأمثلة على ذلك أيضا ، ما جاء في روايته (أسير المتمهدي) أما فدوى فهان عليها أن تفارق حياتها ولا تقاسي بعاد الحبيب ثانية ، لكنها لم تجد مجالا لإظهار عواطفها أمام أبيها . فنظرت إلى شفيق فتبادلا الخطاب بالألحاظ الناطقة التي يريدها الشاعر بقوله :

تشير لنا عما تقول بطرفها   وأومي إليها باللحاظ فتفهم

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا   فنحن سكوت والهوى يتكلم (2)

العباسة أخت الرشيد : ص ، 146.

أسير المتمهدي : ص ، 109.

نضف إلى ذلك أن جرجي كا ن كثيرا ما يخضع تطور الأحداث في رواياته للأحلام بهدف التشويق وتفسير الأحداث ، وفي ذلك أيضا تأثرا واضحا بالأدب الشعبي ، مثال لذلك ما جاء في روايته (أسير المتمهدي) عندما رأى شفيق في حلمه محبو بته فدوى وقد شفها السقام حتى أشرفت على الموت . (1) فالحلم هنا ينبئ عن تطور الحوادث في الرواية . والأمثلة على ذلك كثيرة في روايات جرجي ...

وإذا نظرنا إلى التاريخ ورغبة الكاتب في تعليمه للقراء نجد ذلك كان سببا أساسيا في عدم ترابط الأحداث في الروايات وتسلسلها ، ومن ذلك أن جرجي يبدأ كل رواية بوصف تاريخي وجغرافي للمدينة التي تدور فيها أحداث الرواية . بل إنه يصف مدينتين مما يضطره إلى وصف المدينة الأولى في بداية الرواية ثم يصف المدينة الثانية في وسط الرواية عندما تنتقل إليها الأحداث وكأنه يبدأ الرواية بداية جديدة .

ومن ذلك أيضا حديث جرجي عن حضارة العصر الذي تدور فيه الرواية ، مما يفرض هذه المعلومات على تطور الأحداث في الرواية .

إضافة إلى ذلك عناوين الفصول التي اتخذها لرواياته تتفاوت في دلالاتها على المعلومات التاريخية ، وعلى الأحداث الروائية . بل أنه في أغلب رواياته كان يخصص الفصل الأول والثاني للمعلومات التاريخية ، والفصول التي تلي ذلك للحدث الروائي إلا إن الكاتب لا ينفك ويعود مرة أخرى للحديث عن حضارة وعمران القصور في أثناء سرده للحدث الروائي .

وربما عدم الترابط بين فصول الرواية هو ما دفع جرجي إلى أسلوب السرد التاريخي بغرض الربط بين أجزاء الرواية . والسرد التاريخي يغلب على السرد الفني في روايات جرجي ، ولعل السبب في ذلك

---

(1) أسير المتمهدي : ص ، 138 .

أن الكاتب كان مؤرخا في الأساس ؛ وليس بخافي أن المؤرخين طالما يحشدون الحوادث ويزحمون السرد بالأحداث التاريخية الكثيرة المتنوعة وجرجي واحد منهم ، فقد ولد مؤرخا .

وإن كان تفكك فصول الرواية هو الذي دفعه للسرد التاريخي بغرض الربط بين فصول الرواية . فقد دفعه أيضا إلى الاتجاه مباشرة إلى القارئ في أثناء سير الأحداث في أغلب رواياته ونتمثل بما جاء في روايته ((الانقلاب العثماني)) في قوله : ((لنتركهم يفتشون عن سيرين ولنذهب إلى رامز)) . (1) وبعد صفحتين يكرر هذه الصورة فيقول ((نترك أهل سلانيك ونذهب إلى الأستانة)) .(2) وبعد ثلاث صفحات ينتقل بالقارئ إلى عالم التصور ليصف له قصر السلطان .

وأمر أخير لا بدا أن نشير إليه في هذا المبحث وهو لجوء جرجي في أغلب رواياته إلى (السر) وهو عنصر هام من عناصر التشويق لدى الكاتب ، فجرجي يأتي بمسألة أو لغز أو شخصية غامضة ويشوق القارئ في البحث عن هذا السر . كما فعل في روايته ((أسير المتمهدي)) فلغز الصندوق المقفل وما يحويه ، كان سرا غامضا تشوق القارئ إلى معرفته ، وهذا السر انتظم الرواية من أولها إلى أخرها وكرر جرجي الإشارة إلية في غير موضع من الرواية ليشوق القارئ ، ثم كشفه كشفا يمهد إلى النهاية التي يرجوها . (3) وهذا ضعف واضح في الناحية الفنية للرواية ، وتظهر فيه الصنعة والتكلف ، ويعتبر عقدة ضعيفة متهافتة غير مستحبة . وربما عزر الكاتب أنه يعده عنصرا هاما من عناصر التشويق في الرواية . ولا تخلو رواية من روايات جرجي من عنصر السر ، والأمثلة على ذلك لا حصر له .

الانقلاب العثماني : ص ، 40 .
المرجع السابق : ص ، 43.
أسير المتمهدي .

الخلاصة :

وفي ختام هذا المبحث نقول أن جرجي كان متأثرا غاية التأثر في كتاباته بالقصص الشعبي وبالآداب الغربية ، مما أنعكس على رواياته انعكاسا واضحا لا خلاف حوله ، كما أن رغبته في تعليم التاريخ وضعته في إطار محدد لم يفلح في الخروج من دائرته ، كما أن جرجي المسيحي الديانة وهو يتناول تاريخا إسلاميا ظل شعور ملازما للكاتب في كل رواياته فنجده يبتعد بقدر الإمكان عن تحليل الشخصيات الإسلامية ، ولا يتحرى الدقة ويتحاشى ذكر الأسباب والنتائج ويحاول أن يعرضها عرضا محايدا ، وبذلك يتجاهل الكثير من حقائق التاريخ الإسلامي ، ولعلنا لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نأخذ بالمعلومات التاريخية التي جاءت في رواياته على أساس أنها مادة تاريخية موثقة ومعتمدة .

الفصل الرابع

دور العناصر الدينية في الرواية

يعد التاريخ الإسلامي المصدر الأول للرواية التاريخية الإسلامية ، ومن أجل ذلك لجأ إليه بعض الكتاب ؛ نهلوا من معينه فاستقوا منه قضايا وعناصر دينية وسياسية وفكرية . ثم قاموا بطرحها على القراء من خلال أعمالهم القصصية ؛ والتي تتباين من حيث جودتها ودقتها وأمانتها التاريخية .

وكان زيدان من أوائل الكتاب الذين ولجوا هذا المجال تسوقه رغبته في تعليم التاريخ للقراء تارة ، وتسوقه روح المؤرخ تارة أخرى ، يقول في ذلك محمد يوسف نجم : " من الأدباء من تناول فترة من تاريخ العرب ليصفها أو يؤرخها أو يحييها في قصة ...كما فعل زيدان" (1) فقام زيدان بإصدار سلسلة تاريخ الإسلام وهي محاولة ضخمة " لم يسبقه إليها سابق في أدبنا وهي تذكر له بالتقدير وتدل على مدى ما يصل إليه الجهد الإنساني إذا نظم وبني على أسس متينة من الثقافة والاطلاع والمثابرة ، فأعمال زيدان الأدبية والتاريخية والعلمية كثيرة جدا بالنسبة إلى عمره القصير نسبيا" .(2) وما لاحظناه على زيدان أنه حين كان يختار موضوع رواياته لم يكن يلجأ إلى الفترات المشرقة من هذا التاريخ الإسلامي ، وما أكثرها ، ولكنه كان يختار المواقف الحساسة التي تمثل صراعا بين مذهبين سياسيين ، أو بين كتلتين تتصارعان على الحكم والسلطة ، فمثلا في روايته (فتاة غسان) لا نجده يتعرض لفترة ظهور الإسلام في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولا لفترة انتشار الإسلام وفتوحاته في عهد خلفائه ، ويتجاوز زيدان هذه الفترة من التاريخ الإسلامي ليقدم لنا الروايات التي تمثل الصراع في عهد بني أمية وفي عهد عثمان بن عفان

---

(1) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، ص، 157.

(2) المرجع السابق : ص ، 180 .

(رضي الله عنه) ، وفي عهد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) ، وهي (عذراء قريش) و (غادة كربلاء) و (الحجاج بن يوسف) .

كذلك عندما تناول العصر العباسي الأول " نجده يختار شخصية أبي مسلم الخراساني لأنها تمثل الصراع بين العناصر العربية والفارسية ، و (العباسة) التي تمثل الصراع بين الرشيد والبرامكة وشخصيتي (الأمين والمأمون) وهما يمثلان الصراع بين العرب والفرس . وإذا تسألنا لماذا هذه الاختيار ولماذا الفترات الحرجة من التاريخ الإسلامي ؟ نجد الإجابة تكمن في أن زيدان كان يبحث عما يساعده ويسهل عليه مهمته في الجانب الروائي لعمله ؛ لأن هذه الفترات تقدم له الحوادث المتنوعة ، وتقدم له الشخصيات الخيرة والشريرة التي يستغلها في قصته الغرامية ، وربما كان السبب وراء هذا الاختيار يعود إلى زيدان نفسه ، لأنه لم يكن يتجه إلى التاريخ الإسلامي بإحساس ديني قومي يدفعه إلى إبراز أمجاد هذا التاريخ . وزيدان نفسه كان يحس بحجم خطورة موقفه هذا يقول في ذلك محمد يوسف نجم : " كان المؤلف يشعر تماما بخطورة موقفه ...لأنه مسيحي يكتب في بيئة مسلمة ، ويخشى أن يمس عقائدها ومذاهبها ولو مسا رقيقا هينا " (1) .

ولكن إلى أي مدى يحق للكاتب أن يتصرف في أحداث وشخوص التاريخ الإسلامي بالتغيير والتبديل ، وما هي مقدار الحرية التي يمتلكها وهو يبعد بنا عن الموضوعية القائمة على إيجاد توازن بين الصدق الفني والصدق التاريخي .

ربما كان للكاتب " ملء الحرية في تناول مادته له أن يعيد ترتيبها وتنسيقها ، وله أن يقدم فيها ، وأن يؤخر وله أن يحذف منها وأن يضيف إليها من بنات أفكاره ،

---

(1) محمد يوسف نجم :القصة في الأدب العربي الحديث : ص، 202.

لتخرج في صورة جديدة مبتكرة ، ولكنه مطالب لقاء ذلك بأن يتقيد بالصدق الفني ....وأن يلتزم حدود الحقائق الإنسانية الخالدة ، فإذا أباح لنفسه أن يتمتع بالحرية المتاحة له ، ولم يعن بتأدية الواجبات الفنية المترتبة عليه ، لنا أن نحكم على عمله بالكذب والتزوير " (1) .

ويبقى سؤالنا هل كانت هذه الروايات المجال الخصب الذي استطاع زيدان من خلاله توظيف العناصر الدينية لإفساد مفهوم الشخصية الإسلامية والبطولة الإسلامية ، عندما أساء إساءة بالغة إلى أعلام المسلمين أمثال السيدة عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) وهارون الرشيد ، وعبد الرحمن الناصر ، وصلاح الدين الأيوبي .... الخ ، وللإجابة على هذا السؤال نبدأ برواية :

فتاة غسان :

زعم زيدان في هذه الرواية بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) أخذ تعاليمه من الرهبان وأنه تأثر بتعاليمهم لا سيما بحيرا الراهب . وإن لم يقدم زيدان هذا الزعم بصورة واضحة للقارئ إلا أنه حاول أن يدس هذه الشبهة ويتدرج بها في روايته التي جاء فيها قوله : "....أما بحيراء فهو من نعم الله على بني الإنسان ، ولا أظن أن الأرض تجود بمثله " (2) ثم قوله : " ......كان بحيراء يجالس القوافل العربية المسافرة إلى التجارة ليعلمهم عبادة الله ، وكان يعتقد أن الله ظهر له في الرؤيا ، وأنباه أنه سيكون سببا لهداية بني إسماعيل سكان جزيرة العرب (3) ثم قال بعد ذلك : ......وكان أبو طالب إذا خرج إلى تجارة أو سفر اصطحب محمدا فينزل بالأديرة ويجالس الرهبان والعلماء ،وأشهر ما سمعناه عنه نزوله بدير بحيراء قرب بصرى فقد أخبرنا بعض الذين رافقوه في رحلته أن الراهب بحيراء تنبأ بأمور كثيرة عن

---

(1) محمد يوسف نجم : فن القصة ، 129.

(2) رواية فتاة غسان ، ص ، 41 .

(3) رواية فتاة غسان ، ص ، 43 .

مستقبل حياته (1) .

والملاحظ على زيدان أنه لم يأت بهذه الأمور مصادفة بل ركز عليها ليشعر القارئ بأن ما جاء به الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يكن إلا امتدادا واقتباسا من بحيرا الراهب ومن جلساته (صلى الله عليه وسلم) في الأديرة مع الرهبان . ونحن أمام روايات متعددة مختلفة واختلاف هذه الروايات يدل على أن هذه التهمة التي ألصقت بالنبي (صلى الله عليه وسلم) لم يحدث اتفاق عليها ، أو لم تكن محكمة ، فمرة بحيرى وتارة ورقة بن نوفل وآخر حاخام ." كما أن عمر سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) كان تسع سنوات عندما التقى بحيراء مع عمه أبي طالب "(2)فهل يعقل أن يستوعب هذا الطفل الأمي ما يمليه عليه بحيراء ؟ وعندما عاد ثانية مع ميسرة وخادم خديجة في تجارتها كان عمره خمسة وعشرين عاما لم يتكلم ميسرة إلا بما رأى من عناية الله بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ولم يجتمع مع أي راهب أو كاهن .

وزعم آخر ذهب إليه زيدان في هذه الرواية ، وهو محاولته لإثبات قصة الغرانيق ، فقد جاء في روايته على لسان أبي سفيان في حواره مع هرقل ، اعتراف النبي (صلى الله عليه وسلم) في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كانا العرب يعتبرونها بنات الله، قال زيدان على لسان أبي سفيان : " ثم علمنا ذات يوما أن محمد ذكر آلهتنا فيما نزل عليه من كتابه ، فقال : (أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، تلك الغرانيق العلى ، أن شفاعتهن لترتجى) فسررنا سرورا لا مزيد عليه ، وقلنا ها قد تم الوفاق لأنه جاء يمثل عقيدتنا . لكنه ما لبث أن رجع عن ذلك وأبدل الفقرة الأخيرة فقرة زادتنا نفرة منه وذكر آلهتنا بكل

---

(1) رواية فتاة غسان ، ص ، 87- 88 .

(2) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، بدون رقم للطبعة ، دار المعارف ، ج 2 ، ص ، 278.

سوء ، فقال (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم " (1) فما حقيقة هذا الزعم الذي ذهب إليه زيدان وما مقدار صحته ؟

وملخص هذه القصة : إن الرسول " صلى الله عليه وسلم " لمل رأى تجنب قريش وإيذائهم لأصحابه تمنى فقال : ليته لا ينزل على شيء ينفرهم مني ، فجلس يوما في ناد من تلك الأندية التي تقوم حول الكعبة فقرأ عليهم سورة النجم حتى وصل إلى قوله تعالى : "أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى "(2) . ثم قرأ بعد ذلك : " ....تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى " ثم مضى في قراءة السورة حتى آخرها ، وسجد ، وسجد القوم جميعا لم يتخلف منهم أحد ، حتى أن الوليد بن المغيرة لهرمه لم يستطع السجود فحمل في كفه حفنة من تراب وسجد عليها ، وقالت قريش قد عرفنا أن الله يحيي ويميت ويخلق ويرزق ، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده ، وبذلك زال وجه الخلاف بينه وبين قريش ، وبلغ مسامع المسلمين بأرض الحبشة ، فقالوا عشائرنا أحب إلينا ، وخرجوا راجعين حتى إذا كانوا دون مكة بساعة من نهار ، لقوا ركبا من كنانة فسألوهم فقالوا ذكر آلهتكم بخير فتابعه الملأ ثم ارتد عنها فعاد فشتم آلهتهم ، وعادوا إليه بالشر .

وهذه القصة غير ثابتة لا من جهة النقل ولا من جهة العقل والنظر كما ذهب إلى ذلك المحققون من أهل العلم . سئل محمد بن اسحق بن خزيمة عن هذه القصة فقال : هذا من وضع الزنادقة ، وصنف في ذلك كتابا ، وذهب إلى وضعها كذلك الإمام أبو منصور الماتريدي في كتابه (قصص الأنبياء) حيث قال الصواب في هذه القضية : أنها من إيحاء الشياطين إلى أولياهم من الزنادقة حتى يلقوا بين الضعفاء وأرقاء الدين ليرتابوا في صحة الدين ، والقصة لم يخرجها احد من أصحاب الكتب المعتمدة . والذي روي في البخاري عن ابن عباس" أن النبي (صلى الله عليه

---

(1) رواية فتاة غسان ، ص ، 91 .

(1) سورة النجم : آية (19) .

وسلم) قرأ سورة النجم وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس " (1) والآيات الكريمة كما جاءت من عنده تعالى : " أفرأيتم اللات والعزى (19) ومناة الثالثة الأخرى (20) ألكم الذكر وله الأنثى (21) تلك إذا قسمة ضيزى (22) إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وءاباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى " (2). ، وهذه الآيات تبين بطلان القصة من أساسها . فليس من المعقول أن تحشر بين هذه الآيات المتتالية آية مناقضة لها في أصل العقيدة الإسلامية والتي هي أساس دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم)

أما في روايته **أرمانوسة المصرية** : فقد استعان زيدان بجملة من العناصر الدينية والتي استطاع توظيفها فعمل على إعلاء شأن الكنائس والرهبان ، وتمجيد كل ما يمت إلى الديانة المسيحية ، وبدا في هذه الرواية تحيز زيدان السافر لديانته المسيحية ، واستطاع زيدان من خلال استعانته بالعناصر الدينية التقليل من شأن الفتح الإسلامي لمصر مدعيا أن هذا الفتح إنما تم بمساندة طائفة الأقباط المسيحية للمسلمين ، كما صور المعارك الإسلامية مع الرومان بصورة باهتة مشوهة ، كما لم يتحدث زيدان عن أمر الدعوة إلى الإسلام ومر عليه مرورا عابرا في الوقت الذي أسهب وأطال وهو يتحدث عن طائفة الأقباط المسيحية واصفا ما لاقته هذه الطائفة على أيدي الروم من أصناف العذاب بسبب الاختلاف في المذهب ، وبذلك لم يكن أمام هذه الطائفة إلا مناصرة المسلمين ومساعدتهم على فتح مصر ، كما أراد زيدان . وفي رحلة طويلة يأخذنا زيدان من خلال سرده لتاريخ المسيحية في مصر ، وكيف أنها قامت على أيدي الأقباط على أنقاض الديانة الوثنية التي كانت

---

(1) أحمد بن علي حجر العسقلاني : فتح الباري لشرح صحيح البخاري ، دار الفكر للطباعة والنشر ، كتاب التفسير ، ج8 ، ص ، 614.

(2) سورة النجم : الآيات من رقم 19 – 23 .

منتشرة في البلاد في ذلك الوقت ، ثم حالهم وكيف أنهم كانوا منقسمين على أنفسهم ثم يدلف زيدان إلى النتيجة التي يرجوها وهي أن هذا الانقسام إنما كان سببا من أسباب انتصار المسلمين وفتحهم لمصر .

وأغفل زيدان الحديث عن الدعوة الإسلامية وكيفية هذه الدعوة وإعلام الدنيا كلها بهذا الدين ، وأشار فقط إلى أن ذلك إنما تم عن طريق الكتب التي حملتها الرسل مفوضة من الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الملوك والرؤساء في سطور مقتضبة قليلة ، يقول زيدان قدمت رسالة إلى المقوقس " واردة من كبير العرب ، وهو رجل عظيم سن دينا جديدا واتبعه جمع غفير ، وسار يقول له في ذلك الكتاب ، أن يترك ديانة السيد المسيح ويتبع ديانته ، سيدي المقوقس لم ير أن يغير دينه وبعث لكبير العرب بهدايا في جملتها ماريا " (1) .

وفي هذه الرواية حشد زيدان الكثير من الألفاظ الدينية مقارنة برواياته الأخرى ، من ذلك قوله : " نحن كاظمون الغيظ ، صابرون على البلوى "(2) ومن ذلك أيضا قوله : " فسوف يظهر الحق ويزهق الباطل " (3) ومثال آخر قوله : " طيبي نفسا وقري عينا وتوكلي على الله " (4) .

وفي هذه الرواية نلاحظ تحيز زيدان الواضح لديانته المسيحية وتحامله الصريح على المسلمين وذلك ما نلاحظه في استخدامه للفظة عرب دون لفظة مسلمين في مواضع عديدة من الرواية ، من ذلك قوله : " ثقي بالعرب لأنهم إذا أمنوك فأنت في أمان " وقوله : " إن العرب أكرم الناس أخلاقا وأوفاهم عهودا وإذا عاهدوا قاموا بعهدهم " (5) . فزيدان عندما مدح نجد أن المدح في العرب وليس في المسلمين .

---

(1) الرواية : ص ، 18 .

(2) الرواية : ص ، 18 .

(3) الرواية : ص ، 29 .

(4) الرواية : ص ، 21 .

(5) الرواية : ص ، 100.

ونجده عندما وصف عمرو بن العاص قال : " قصير القامة وأفر الهامة أدعج أبلج عليه ثياب موشاة كأن عليها الذهب يتألق "(1) وما نلاحظه في حديث زيدان عن شخصية عمرو بن العاص إنه لم يقدم للقارئ إلا أوصافا خارجية عامة لا يتوصل القارئ من خلالها إلى تحديد شخصية زعيم كبير وقائد إسلامي عظيم كعمرو ابن العاص ، والذي ينبغي أن يجئ التعريف به عن طريق آخر وبجوانب أخرى غير هذه الجوانب الساذجة فأين الأعمال الجليلة المتعددة التي قام بها عمرو بن العاص خلال دعوته إلى الإسلام ومواقفه البطولية في المعارك الإسلامية التي خاضها .

أما في روايته **عذراء قريش** فقد حاول توظيف العناصر الدينية بغرض الرفع من شأن بطلة الرواية الخيالية (أسماء) الفتاة النصرانية التي جسد فيها معاني البطولة والشهامة والعقلانية والأخلاق ، ووصفها بأنها أكثر حرصا على أمور المسلمين ، وفي الجهة المقابلة وضع زيدان السيدة عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) التي قدمها زيدان في صورة من يسعى إلى سفك الدماء مدعيا بأنها لم تصغ إلى حديث السلام الذي أتى على لسان أسماء النصرانية ، وكأنه بذلك يريد أن يقول وبطريقة غير مباشرة بأن النصارى هم دعاة السلام وأن المسلمين هم دعاة الحرب .

ولم يكتف زيدان بذلك بل ذهب إلى تصوير السيدة عائشة في صورة الناقمة على علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) لأنه لم ينتقم لمقتل عثمان (رضي الله عنه) وتورد الرواية هذا الحوار الذي دار بين السيدة عائشة (رضي الله عنها) وعبيد ابن أبي سلمة أحد أخوالها .

عائشة : تسأل عبيد كيف فارقت المدينة ؟

---

(1) الرواية : ص 92، .

عبيد : فارقتها وقد قتل عثمان .

عائشة : عندما سمعت بذلك قطبت جبينها وتطاير الشر من عينيها قائلة قبل أن يتم حديثه ثم صنعوا ماذا ؟ .

عبيد : لم يستغرب ما بدا منها ، وقال أجمعوا على بيعة علي .

عائشة : هبت من مجلسها قائلة ومشيرة إلى السماء ثم إلى الأرض ، ليت هذه انطبقت على هذه أن تم الأمر لصاحبك ، ثم خرجت مسرعة تقول : ردوني إلى مكة قتل والله عثمان مظلوما ، والله لأطالبن بدمه .

عبيد : استوقفها وقال لها ولم ؟ والله أن أول من أمال حرفة لأنت ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر .

عائشة : إنهم استتابوا ثم قتلوه ، وقد قلت قولي الأخير خير من الأول .

ولا تكتفي الرواية بهذا بل تنشر على لسان عبيد قوله :

فمنك البداء ومنك الغير   ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الإمام   وقلت لنا إنه قد كفر

فنحن أطعناك في قتله   وقاتله عندنا من أمر

ولم يسقط السقف من فوقنا   ولم تنكسف شمسنا والقمر (1)

وهكذا نرى زيدان يظهر أم المؤمنين عائشة على أنها من ألبت الناس على قتل عثمان وحكمت بكفره ثم لما أطاعوها وقتلوه تبرأت من ذلك وخرجت تطالب بدمه وتؤلب الناس ضد علي وما كان خروجها على علي إلا بسبب خلافات شخصية قديمة كانت بينه وبينها ، كما يدعي زيدان .

---

(1) جرجي زيدان : رواية عذراء قريش ، دار الجيل ، بيروت – لبنان ، ط2، 1988م ، ص ، 105.

وكل ما ساقه زيدان عن أم المؤمنين لم يكن إلا محض كذب وافتراء . قال عنها أبو موسى الأشعري (رضي الله عنه) : " ما أشكل علينا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حديث قط فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها منه " (1) وقال عنها عمرو ابن العاص (رضي الله عنه) عندما أتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلت أي الناس أحب إليك ؟ قال عائشة فقلت من الرجال قال أبوها ...." (2) ، " وتعد عائشة من ابرع الناس في القرآن والحديث والفقه .... قال عروة بن الزبير : ما رأيت أحدا أعلم بالقرآن ولا بفرائضه ولا بحلال ولا حرام ....من عائشة " (3)

وكأني بزيدان يرمي إلى عقد تلك المقارنة الباطلة ما بين بطلة الرواية الخيالية (أسماء النصرانية) والتي رسم لها صورة بديعة تتجلى فيها معاني البطولة والعقلانية ، وأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها والتي وضعها في الطرف المقابل ، فأسماء نجدها أشد حرصا على مصالح المسلمين من عائشة كما أراد زيدان .

وأيضا من مزاعمه التي أوردها في هذه الرواية حديثه عن الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يقول إنه " كان ببيته آنية من الذهب والفضة من غنائم المدائن ، عاصمة الفرس ، على عهد عمر بن الخطاب ، وبينهما تاج كسرى مرصع بالجواهر... ودروع هرقل وخاخان ملك الترك ، ودرع داهر ملك الهند " (4)

ودخلت هذه الغنائم بيت عثمان لأنها كانت من غنائم المسلمين بالمدائن عاصمة ببلاد الفرس ، وهي من متاع بيت المال .

---

(1) الترمذي : الجامع الصحيح كتاب المناقب ، باب فضل عائشة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج5 ، ص ، 662 .

(2) البخاري : باب فضائل أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) ، باب فضل أبي بكر ، ج5 ، ص6.

(3) عمر رضا كحالة : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، مؤسسة بيروت للطبع والنشر والتوزيع ، ج3 ، ط4 ، 1982م ، ص ن 105 .

(4) رواية عذراء قريش ، ص ، 41 .

وهكذا صور زيدان الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) على أنه حاكم يأخذ أموال المسلمين لنفسه ويضعها في بيته ، وكيف ذلك والجميع يعلمون ما كان عليه عثمان من الثراء والغنى والجميع يعلمون عطاءه في سبيل الإسلام ، تشهد له بذلك مواقفه العظيمة والتي منها تجهيزه لجيش العسرة .

ولا يفوتنا ونحن نطوف بين صفحات هذه الرواية أن نشير إلى زعم أخر أتى به زيدان وهو أن الخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) أعان على قتل عثمان بن عفان (رضي الله عنه) يقول في روايته على لسان أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها) : وتسأل سؤلا إنكاريا . هل نصدق أن عليا أراد أن يدفع الناس عن عثمان فلم يستطع ؟ أيعقل وهو صاحب الأمر في المدينة ، قصر عن الدفاع عن عثمان ، وأنه غلب على أمره " . [1]

وهكذا دس زيدان في هذه الرواية مزاعم متعددة عمل من خلالها على تشويه سيرة خير الصحابة على رأسهم أم المؤمنين والخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه) والخليفة علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) .

أما في روايته **غادة كربلاء** فقد تحدث زيدان عن حادثة مقتل حجر ابن عدي وقد أضاف زيدان إلى هذه الشخصية الكثير من الحوادث المتخيلة من مثل وصية حجر إلى بعض أصحابه للعناية بشئون ابنته سلمى ، مع أنه لا وجود لهذه الوصية في ابن الأثير ، ثم ما وقع فيه زيدان من خطأ في نقله لبعض العبارات مما أفضى إلى تشويه شخصية حجر بن عدي ، حيث ذهب زيدان إلى أن حجر قال لجلاديه عندما قدم للقتل : (...ما توضأت ولا صليت) بينما النص كما جاء في ابن الأثير (ما توضأت إلا صليت) ، وكلنا يلاحظ الفرق الواضح بين العبارتين .
وقد كان حجر بن عدي الكندي من أعظم الناس دينا وصلاة وعلما ويقال إنه كان من غلاة الشيعة ، ذكر عبد المتعال الصعيدي قضية مقتل عدي فقال : هي من أكبر

---

(1) الرواية : ص ، 109 .

القضايا الإسلامية في ذلك العصر إذ بلغ عدد شهودها سبعين شاهدا ، لأن الحاكم بالقتل فيها هو معاوية من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمحكوم عليه بالقتل فيها (حجر بن عدي الكندي) من الصحابة أيضا ، وكان من أعظم الناس دينا وصلاة وعلما ، فأكبر كثير من العلماء قتله ، حتى روى الجوزي بإسناده عن الحسن البصري أنه قال : ..." أربع خصال كن في معاوية لو لم يكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة وهي :

1- أخذ الخلافة بالسيف من غير مشاورة ، وفي الناس كبار الصحابة .
2- استخلاف ابنه يزيد ، وكان سكيرا يلبس الحرير ، ويضرب الطنابير .
3- ادعاؤه زيادا وقد قال (صلى الله عليه وسلم) الولد للفراش وللعاهر الحجر .
4- وقتله حجر بن عدي ، فيا ويلا له من حجر ، ومن أصحاب حجر . (1)

أما في روايته **الحجاج بن يوسف الثقفي** فقد جنت الصورة الفنية التي رسمها للشخصيات على الصورة التاريخية ، فهنالك فرق واضح بين ما أورده زيدان عن شخصية عبد الله بن الزبير وما أوردته كتب التاريخ ، وذلك لأن زيدان لم يتناول شخصية ابن الزبير إلا تناولا عابرا مكتفيا بالإشارة إلى قصة العصافير التي كانت تقع على ظهره في أثناء الصلاة ، يقول زيدان في ذلك : " فلما دنا منهم رأى بجانب الكعبة رجلا ساجدا قد استقبل الأرض بوجهه ، ورأى على ظهره حمامتين من حمام المسجد ، كأنهما واقفتان على حائط ، والرجل لا يتحرك فخيل إليه أنه ميت " (2) .
وجاء في الرواية أيضا قوله : " كثيرا ما رأينا الطير على ظهره في أثناء الصلاة نظنه حائطا لسكونه وطول سجوده " (3) وأشار أيضا إلى أنه (صوام قوام) ، وبعد هذا المديح والثناء يعود زيدان ليقول عنه : " يجدر بمن كان هكذا أن يكتب له

---

(1) عبد المتعال الصعيدي : القضايا الكبرى في الإسلام ، مكتبة الآداب ، بدون رقم للطبعة ، سنة 1960م ، ص ، 195 .
(2) الرواية : ص ، 124 .
(3) الرواية : ص ، 124 .

النصر " (1) ؛ وبما أن الزبير لم يكتب له النصر فكأن زيدان بالعبارة السابقة يشكك في كل ما عرف عن ابن الزبير .

أما شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي فقد اغفل زيدان الكثير من مواقفه الشهيرة والتي تصور عنفه وعتوه وسفكه للدماء مثال موقفه من أهل المدينة عندما زارهم بعد انتصاره على ابن الزبير ، وغير ذلك من مواقفه السيئة والتي لا عداد لها والتي أغفلها زيدان عن عمد ؛ ربما إعجابا بهذه الشخصية وربما لأنه سفك دماء الكثيرين من المسلمين .

أما في روايته **أبو مسلم الخراساني** فقد حاول زيدان طمس المعالم المشرقة في التاريخ الإسلامي بما دسه عن زعماء المسلمين ؛ برسمه صورة مقززة لبيت الخلافة عن طريق ذكر أمور لا صلة لها بالإسلام ، مثال تصويره لشخصية المنصور والكيفية التي قتل بها أبا مسلم الخراساني ، يقول في ذلك : " فدهش المنصور لتلك الضوضاء واستغرب جرأة الداخلين عليه بغير استئذان .....ثم رأى - جلنار - بطلة الرواية أقبلت على أبي مسلم وهو مطروح أرضا والدم يسيل من جوانبه وانتشرت قلنسوته عن رأسه فبان شعره وتلوث بالدم .... ورمت جلنار نفسها عليه وجعلت تتمرغ بردائه وتغمس كفيها بدمه وتمسح وجهها ، وتلطم ... حتى لم يبق في الغرفة إلا من تقطع عليه تأثرا " (2) .

حقا أن المنصور قتل أبا مسلم ولكن بغير هذه الصورة المقززة التي حاول زيدان رسمها في روايته ، ونحن لا نقول أن سيرة المنصور مبرأة من العيب ولكننا نرى أنه على الكاتب أن يكتب بأنصاف ودون تحيز . وأنه لا داعي لهذه الصور المقززة التي حاول الكاتب رسمها .

---

(1) الرواية : ص ، 125 .

(2) الرواية : ص ،253 .

وفي مقابل هذه الصورة السابقة نجد في الرواية صورة مثالية فاضلة للكنيسة ورهبانها ، فقد جعل زيدان الأديرة ملجأ الضعفاء ، وملاذا للتائهين والخائفين ، وجلنار بطلة الرواية تفر مع صديق لها إلى دير العذارى ، خوفا من أن يعلم أبو مسلم بأمرها فيفتك بها ، يقول زيدان : " توجه صالح وجلنار إلى دير هند ، فوجده آهلا بالرهبان ، وطلب مقابلة رئيس الدير ، فأخذوه إلى شيخ جليل عليه سيماء الوقار فسلم عليه وأكب على يده يقبلها ، فدعاه الرئيس إلى الجلوس ، ودعا له بالطعام والشراب ، فقال صالح : إنما جئتك – يا حضرة الأب – لأني أريد أن استودعك سرا وأستشيرك فيه ، فأنتم رجال الله ومستودع أسرار خلقه " (1) . وما نستخلصه من هذه العبارة السابقة أنه لا يوجد بين المسلمين من يحفظ السر مثل قسيس النصارى .

وزعم آخر ذهب إليه زيدان في هذه الرواية وهي دعوة افتخار العرب بالنبوة وتحقيرهم من سواهم وهي كذبة كبيرة أجراها المؤلف على لسان أبي مسلم حيث يقول : " ... إننا نعلم يا أعظم الدهاقين أن العرب يفاخروننا بالنبوة ، لأن النبي منهم ، وقد احتقرونا وعاملونا معاملة الرقيق ، ولو استطاعوا ألا يبقوا منا أحدا لفعلوا "(3) وتلك والله كذبة عظيمة فالتعصب مكروه في الإسلام ومنهي عنه تعلم المسلمون من معين المصطفى أنه " لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى " وقبل ذلك قوله تعالى : " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم " (2) فالناس كلهم سواسية لأنهم من أصل وأحد ، ومعيار التفاضل فقط تقوى الله .

---

(1) الرواية : ص ، 224.

(2) سورة الحجرات : آية (13) .

(3) الرواية : ص ، 54.

أما في روايته **العباسة أخت الرشيد** ، فقد جعل زيدان شخصية هارون الرشيد محور روايته ، ومن خلال توظيفه للعناصر الدينية استطاع تصوير الخليفة هارون الرشيد بصورة الحاكم الظالم المستبد ، جاء في الرواية : " فقد تعود ألا يسمع غير التأمين على ما يقول ، والتنفيذ لما يريد ، حقا كان أو باطلا شأن أصحاب السلطة لا سيما في تلك العصور ، كثر المتملقون الذين يتزلفون إلى ولي الأمر بالإطراء والإغراء لا يبالون عواقب تغريرهم فيستبد الحاكم فكرا وقولا وفعلا وينسى ميزان الحق ويسوغ لنفسه ما لا يسوغه لسواه ...." (1) ولم يكتف زيدان بذلك بل جعله سكيرا عابثا لاهيا لا تهمه دنياه ولا آخرته . فقال في ذلك : " ثم جاء صاحب الشراب بمائدة الشراب ، وما تحتاج إليه من الأباريق والأقداح من البللور والذهب والفضة وعليها النقوش ، فلما انتظمت القيان للغناء ، دار الساقي بأباريق الشراب على الرشيد فشرب قليلا " (2) .

قال ابن خلدون في أمر شرب الرشيد للخمر : " ما شاء الله ، وما علمنا عليه من سوء ، وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحابة العلماء والأولياء ، ومحاوراته للفضيل ابن عياض ، وابن السماك ، ومكاتبته سفيان الثوري ، وبكائه من مواعظهم ، ودعائه بمكة في طوافه وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلاة ، وشهود الصبح الأول ، ولقد ثبت أن الرشيد عهد بحبس أبي نواس لما بلغه من انهماكه في المعاقرة حتى تاب وأقلع ، وإنما كان الرشيد يشرب نبيذ التمر على مذهب أهل العراق وفتاويهم فيه معروفة " (3) .

---

(1) الرواية : ص ، 132.

(2) الرواية : ص ، 101 .

(3)) ابن خلدون : المقدمة ، ج1 ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط3 ، تحقيق علي عبد الواحد وافي ، ص ، 19 .

كما ذهب في هذه الرواية إلى أن الرشيد عقد لأخته على جعفر البرمكي لمجرد النظر ، ثم علل زيدان هذا العقد بحب الرشيد للعباسة وجعفر ، وعدم صبره على الابتعاد عنهما . ثم ذهب زيدان إلى أن جعفرا تزوج بالعباسة سرا وأثمر هذا الزواج عن طفلين ،وكل ذلك بدون علم الرشيد .

والحقيقة أن هذه الرواية الباطلة لم ترد عند المؤرخين الثقات ، وعلى رأسهم الطبري في تاريخه وابن الأثير . وقد كشف ابن خلدون كذب هذه الروايات عندما قال : " ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة عن سبب نكبة البرامكة في قصة العباسة أخت الرشيد مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه وأنه لكلفه بها أذن لهما الرشيد في عقد النكاح دون الخلوة به ، لما شغفها من حبه حتى واقعها ، زعموا في حالة سكر فحملت ووشى بذلك الرشيد ، فاستغضب . وهيهات ، وهيهات .....ذلك من منصب العباسة في دينها ، وأبويها وجلالها ، إنها بنت عبد الله بن عباس ، ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال ، هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده ، والعباسة بنت المهدي بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفاء ابن عبد الله ترجمان القرآن ابن العباس عم النبي (صلى الله عليه وسلم) فهي ابنة خليفة ، وأخت خليفة ، محفوفة بالملك العزيز ، والخلافة النبوية ....كانت أكثر أيام طهرها مشغولة بالصلاة ، ودرس القرآن الكريم ولزوم المحراب ، رضي الله عنها وعن أخيها أجمعين . (1)

والحقيقة أن قصة العباسة هذه إنما هي من وضع البرامكة أو أعوانهم عن قصد ، وقد هدفوا بها إذلال الرشيد الذي نكبهم . وقد ذهب خير الدين الزركلي إلى إن كتاب الخيال الغربيين هم من روج لها ونشرت عنها عدة قصص منها ما

---

(1) ابن خلدون : المقدمة ، ج1 ، ص ، 300 .

نشره (لاهارب) بالفرنسية و(لافون هامار) بالألمانية . (1) ونحن نقول إن كل ما أورده زيدان عن الرشيد والعباسة لم يكن إلى محض كذب وافتراء يقول الإمام ابن جرير الطبري عن الرشيد في تاريخه : " كان الرشيد يصلي في اليوم مائة ركعة ، إلى أن فارق الدنيا ، إلا أن تعرض له علة ، وكان يتصدق في اليوم من صلب ماله بألف درهم ....." (2) .

كما شوه زيدان أيضا في هذه الرواية سيرة الشاعر الزاهد أبي العتاهية . وصوره مكارا يلاحق النخاسين . مع أن سيرة هذا الشاعر مع الرشيد ليس فيها ما يشوبها . بل أنه كان كثيرا ما يوعظ الرشيد ويذكره ، قال الرشيد لأبي العتاهية عظني فقال له : أخافك ، فقال له أنت آمن . فأنشده :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس * إذا تسترت بالأبواب والحرس

وأعلم بأن سهام الموت قاصدة * لكل مدرع منا ومترس

ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها * إن السفينة لا تجري على اليبس

فلما سمعها الرشيد جعل يبكي وينتحب . (3)

ووعظ أبو العتاهية الرشيد بأبيات أخرى فبكى وانتحب ، جاء فيها :

خانك الطرف الطموح أيها القلب الجموح

لدواعي الخير والشر دنو ونزوح

هل لمطلوب بذنب توبة منه نصوح (4)

أما في روايته (**شجرة الدر**) فقد وظف العناصر الدينية ليصل بالقارئ إلى عدد من الحقائق منها : إن شجرة الدر لم تصل إلى العرش إلا بسبب حبها لعز الدين أيبك ؛ وزير زوجها ، وإنها اضطرت للتنازل عن العرش بسبب اعتراض أمير المؤمنين .

---

(1) خير الدين الزركلي : الأعلام ، ج5 ، ص ، 198.

(2) ابن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ، ج 8 ، ص ، 347 .

(3) أبو الفرج الأصفهاني : مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان ، ج4 ، ص ، 166.

(4) أبو العتاهية : الديوان ، تحقيق ، شكري فيصل مكتبة دار الملاح ، دمشق (د، ت ، ط) ، ص ، 97.

وهدف زيدان من وراء ذلك ؛ التعريض بمكانة المرأة في الإسلام ، على أساس أن الخليفة رفض ولاية شجرة الدر ، وهذا ما نلاحظه في الحوار الذي أجراه زيدان بين شجرة الدر وركن الدين بيبرس ، حيث قالت عن المستعصم : " أعني المستعصم صاحب بغداد ، الذي استعظم أن يتولى أمر المسلمين امرأة ، ولم يستعظم أن يتولاه رجل ساقط ضعيف الرأي مشتغل باللهو والقيان وسماع الغناء " . (1) وكأني بزيدان يريد من ذلك تقديم وجهة نظره في قضية ولاية المرأة المسلمة وإن لم يصرح بذلك ، إلا أنه حاول أن يدس ذلك بين طيات روايته .

أما في روايته **أسير المتمهدي** نجده وقد صور أنصار المهدي الدراويش بالسذج والأغبياء من ذلك قوله : " وبعد قليل رأى أفواجا من الدراويش تسير مهرولة ، ويتقدمها أربعة يحمل كل اثنين منهم آنية كبيرة من النحاس شد عليها رق من الجلد ، ومعهما ثالث ينقر عليها نقرات تقلق الأذن ولكن الدراويش يطربون لها " (2) . زيدان الذي سافر إلى السودان مترجما لأعلام الاحتلال وعلى رأسهم (اللورد كرومر) نجده في هذه الرواية يصف المهدي بالمتمهدي ويصف رجاله بالعصاة المتمردين ، يقول في هذه الرواية عن المهدي : " رجل نوبي يقال له محمد أحمد ... التفت حوله عصابة قوية عرفوا بالدراويش وجاهروا بعصيان الحكومة ، فحاولت قمع ثورتهم مرارا فلم تفلح واستفحل أمرهم " (3) . وما لاحظناه في هذه الرواية حرص زيدان على تسمية أنصار المهدي بالعصاة في أكثر من موضع في الرواية .

كما حشد زيدان في هذه الرواية الكثير من العناصر الدينية ، مقتبسا من القرآن بعض العبارات والألفاظ ، من ذلك قوله : " " إذا كان لا بد من سفرك فصبر جميل والله المستعان " (4)

---

(1) الرواية : ص ، 597.

(2) الرواية : ص ، 83 .

(3) الرواية : ص ،113- 114 .

(4) الرواية : ص، 115 .

وقوله : " الرأي أن ننتظر الفرج من عند الله فإنه على كل شيء قدير "(1) . وهي على الجملة اقتباسات غير مستحسنة وإن اعتبرت نوعا من تضمين المعنى القرآني .

وأيضا جاء في هذه الرواية قول الكاتب " ثم وقف أحد الأسرى يقرأ سورة المبايعة وهم يرددونها بعده ....وهي بسم الله الرحمن الرحيم ، بايعنا الله ورسوله ومهديه ، بعنا أرواحنا وعيالنا في سبيل الله ، فلا نهرب من الجهاد ولا نزني ولا نسرق ولا نشرب الخمر ولا نعصيه في معروف "(2) . وهذا تحريف واضح وخلط بين لكلام الله تعالى ، وهو مناف لعزة القرآن وقداسته ، فليس في كتاب الله عز وجل سورة تسمى المبايعة وبهذا النص الذي ذكره الكاتب ، وزيدان هنا وقع في إفك وبهتان عظيم على الإسلام وعلى القرآن ، وحتى لو كان مسيحيا ولا يحفظ بعضا من أي القرآن ، فإن ذلك لا يسوغ له العبث بالقرآن الكريم .

أما في روايته **صلاح الدين الأيوبي** فقد وظف العناصر الدينية بهدف تشويه سيرة صلاح الدين الأيوبي ، متهما إياه تارة بالخيانة وتارة بنقض العهد وخيانة الأمانة عن طريق التزوير . ذهب في هذه الرواية إلى أن الخليفة العاضد ، لما ضعف أمره واستولى عليه المرض استدعى صلاح الدين ، وأوصاه بأهله خيرا لا سيما أخته ، جاء في الرواية على لسان العاضد : " ....هذه يا صديقي أختي سيدة الملك ، التي بعثت تخطبها ، وهؤلاء أبنائي ، وكبيرهم داوود هذا إني تارك أمرهم إليك "(3) ثم قام زيدان بعد ذلك بإظهار استهانة صلاح الدين بهذه الأمانة التي اؤتمن

---

(1) الرواية : ص ، 194.

(2) الرواية : ص ، 286.

(3) الرواية : ص ، 136.

عليها فقال : " إن صلاح الدين حاصر قصر الخليفة بعد وفاته مباشرة وأخذ كل ما فيه ، ومن فيه ، فأهدى وباع وأطلق وأعتق ولم يحتفظ إلا بسيدة الملك " (1)

إلا إن الحقيقة التي سجلتها كتب التاريخ أن قصة الوصية من العاضد لصلاح الدين لا وجود لها البتة ، والدليل على ذلك ما أثبته ابن الأثير في تاريخه قائلا : " ولما اشتد المرض على العاضد أرسل إلى صلاح الدين يستدعيه فظنها خدعة فلم يمض إليه فلما توفي ، علم صدقه فندم على تخلفه عنه " (2) . وعلى هذا فالوصية لا تعدو ان تكون مجرد زعم من زيدان أراد اتخاذه دليلا على خيانة صلاح الدين ونقضه للعهد .

ومع أن الرواية تحمل عنوانها وموضوعها صلاح الدين فإنها لا تتحدث عن أمجاده وبطولاته وبذلك تبتعد عن الإنصاف والموضوعية ، وترتدي ثوب الحقد والتعصب ، فماذا بقي من سيرة صلاح الدين إذا استبعدت بطولاته ومآثره الشهيرة في الذود عن الإسلام والدفاع عن مقدساته . والرواية كما لاحظنا أغفلت كل ذلك عن عمد ولم تورد إلا خبر خيانته للعهد ونقضه للميثاق وتنكره للوصية التي أوصاه بها العاضد وهو على فراش الموت .

وصلاح الدين كما تتحدث عنه كتب التاريخ والسيرة كان حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى إذا جاء وقت صلاة وهو راكب نزل فصلى ، وما قطعها إلا في مرضه الذي مات فيه ثلاثة أيام اختلط ذهنه فيها ، أما صدقة النوافل فإنه استنفذ أمواله كلها فيها ، كان يحب سماع القرآن ، واجتاز يوما على صبي صغير بين يدي والده وهو يقرأ القرآن ، فاستحسن قراءته فوقف عليه وعلى أبيه مزرعة ، وكان

---

(1) الرواية : ص ، 144.

(2) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، دار الفكر بيروت ، سنة 1978م ، ج9 ، ص ، 102.

شديد الحياء خاشع الطرف ، رقيق القلب ، سريع الدمعة ، محبا للعدل ، يجلس كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره القضاة والفقهاء ويصل إليه الكبير والصغير والشيخ والعجوز ، وما استغاث إليه أحد إلا أجابه وكشف ظلامته ......وكان طاهر اللسان والقلم ما شتم أحدا ولا كتب بيده ما فيه أذى لمسلم " . (1)

وهكذا وظف زيدان العناصر الدينية في رواياته بغرض الإساءة إلى تاريخ الإسلام وأعلامه والتشكيك في رجالاته وبطولات أصحابه .

---

(1) جمال الدين يوسف بن تغردي بردي : النجوم الزاهرة في أحوال ملوك مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، بدون رقم طبعة أو تاريخ ، ج6 ، ص ، 9-11-10.

روايات تاريخ الإسلام في ميزان النقاد

رأينا أن نبدأ حديثنا باستعراض لآراء الباحثين والمفكرين والعلماء والأدباء في تقدير جرجي زيدان ووزنه بموازين الإنصاف من وجهات نظر مختلفة لأصحاب هذه الآراء ، ومهما اقتربت الآراء ومهما اختلفت حول زيدان تبقى حقيقة أن الرجل شغل تفكير الجميع.

والحق أننا لم نجد مؤلفاً من المؤلفين ولا مؤرخاً من المؤرخين تعرض للنقد والتجريح مثلما تعرض زيدان فقد اختلف فيه الناس ما بين مادح وقادح ، وتناولته أقلام بالثناء وأخرى بأقذع الألفاظ وتعرضت مؤلفاته لنقد لم نشهد له مثيلا فيما صدر من كتب لمؤلفين في عهده.

تباينت الآراء حول روايات زيدان، ونكاد نلمس اتجاهين متناقضين، اتجاه رافض لها واتجاه مؤيد ، ورأينا أن نبدأ بالاتجاه المؤيد لهذه الروايات :

الدكتور طه حسين : الذي قال : أن زيدان هو الذي نقل إلى الأدب مذهب من مذاهب الأدب الأوربي هو القصص التاريخي. [1]

أما الدكتور محمد حسين هيكل فقد قال :

" جرجي أفندي زيدان من اكبر كتاب التاريخ في مصر بل لا أبالغ إذا قلت انه الرجل الوحيد المتفرغ في الوقت الحاضر لكتابة التاريخ. [2]

([1]) محمد عبد الغني: سلسلة أعلام العرب ، ص 39.

([2]) محمد حسنين هيكل : أوقات الفراغ : ط2، القاهرة، عام 1968م ، ص 215.

أما أنيس المقدسي :

فقد قال ناقداً روايات زيدان : " لا نعرف سلسلة من القصـص التاريخيـة حظيت من إقبال الخاصة والعامة بما حظيت به هذه السلسلة. فقد مر على وفـاة صاحبها ما يقارب نصف قرن وهي حية يقرأها الجيل بعـد الجيـل، وتجـاوزت شهرتها العالم العربي فترجم بعضها إلى عدة لغات شرقية وغربية ومع أن القصد منها تاريخي في الدرجة الأولى فقد وفق زيدان جدا في وضـعها بهـذا القالـب القصصي الممتع . إذ خلق لكل منها مشكلة ، أو سرا يتشوق القارئ إلى معرفته وربطه بحادثة غرامية ينتصر فيها الخير والنبل على الشر والفساد.

ويمتاز زيدان بأمانته التاريخية حتى انه يثبت فيها مصادره كأنه يكتب تاريخيا لا رواية، ومهما قيل فيها فإنها عمل روائي تاريخي ممتاز ويحق لزيدان أن يلقـب بإمام هذا الفن في أدبنا الحديث.[1]

أما عبد الغني: فقد قال عن روايات زيدان :

" على الرغم مما وجه إلى كتب زيدان من انتقادات كثيـرة فـي معركـة طويلة موصولة، فإنها كانت تروج رواجا عظيما عند القراء وطبعـت مـراراً ، وترجمت إلى لغات كثيرة، أوربية وشرقية، وقد حظيت روايات زيدان التاريخيـة برواج عظيم لم تصادفه مؤلفات في عصره ولا في الجيل الذي بعده، والحـق أن كتب زيدان راجت ونجحت واقبل الناس عليها بما فيها هي نفسها مـن صـحة وصلاحية ومسوغات للرواج، لا بالعوامل الأخرى التي قد تؤتي بعض الثمـرات العاجلة ولكنها لا تبقى على المدى الطويل، كغنى المؤلف أو مركزه الاجتماعي أو نفوذه في الدولة أو تنظيم الدعاية له وحشد المهللين حوله وهي عوامـل لا تبقـى طويلاً

([1]) أنيس المقدسي: الفنون الأدبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة ، ص 517.

وإذا أفادت بعض الحين فانا لا تضفي الصحة على العمل أو الإنتاج في ذاته.[1]

أما الدكتور عبد المحسن طه بدر: فقد نقد روايات زيدان التاريخية قائلاً: جرجي زيدان المؤسس الكبير لهذا التيار من الروايات التي تحاول الجمـع بـين التعلـيم والتسليم، وقد كتب جرجي زيدان عدداً كبيراً من هذه الروايات، واسـتغرق فـي كتابتها زمناً طويلاً امتد من أواخر القرن لتاسع عشر إلى أن جاوز العقـد الأول من القرن العشرين، وحظيت رواياته بشهرة كبيرة واهتمام بالغ بين جمهوره مـن إنصاف المثقفين ، وما تزال تحظى بهذا الاهتمام عند نفس الجمهور إلى عصـرنا الحالي، بل أن الاهتمام بهما تجاوز النطاق المحلي، فترجمت إلى كثير من لغـات الشعوب الإسلامية مثل الفارسية والهندية. وذلك لان جرجي زيدان كـان قـادرا على تفهم عصره وجمهوره الذي أعطاه في رواياته ما يرضى حاجته إلى التعليم وحاجته إلى التسلية.[2]

ومن نقد الدكتور محمد يوسف نجم لزيدان: والذي تأرجح فيه ما بين مدحه وذمه قوله مادحاً له: كان همه الأوحد عرض التاريخ العربي بأسلوب قصصـي سـهل ليشوق العامة التي لا جلد لها على المثابرة والتوافر على دراسـة التـاريخ فـي مصادره. وأنا أرى انه وفق إلى بلوغ غايته هذه. وقد أثرت قصته في مجـرى الفن ا لقصصي في الأدب العربي الحديث، فإنها برواجها وانتشارها قوت الإنتاج القصصي وحببته إلى الكتاب والقراء ثم أن قصصه هذه كانت نقلة كبيرة وخطوة واسعة، وهي الخطوة الكبيرة الثانية بعد قصص سـليم البسـتاني، وظـل كتـاب القصص التاريخي عندنا يسيرون على هديها حتى قامت المدرسة الحديثة وعالجت كتابة القصة التاريخية الرومانسية.[3]

وقد نقده نقدا لاذعاً في ذات الكتاب عندما قال: " ننبه إلى وجـوب الحـذر مـن موقفنا من بعض ما يورد المؤلف من المعلومات التاريخية، ونبدي شكنا في

([1]) محمد عبد الغني: سلسلة أعلام العرب، ص 134-137

([2]) د/ عبد المحسن بدر : تطور الرواية العربية الحديثة في مصر ، ص 111-112.

([3]) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث ، ص 206-207

قيمتها كمادة تاريخية معتدة ... ولولا الاعتبارات الزمنية، لعددنا أكثر قصـص زيدان أعمالا هزيلة، إلا أن إقدامه المبكرة على هذا العمل الشـاق، يشـفع لـه ويجعلنا نغض الطرف عن أخطائه الفنية الكثيرة.[1]

حسين أحمد أمين:

يرى في نقده لزيدان انه أكثر احتفالا بوقائع ومظاهر حضارة الإسلام في حقبـه المتتالية وان عظمة زيدان تتجلى في التزامه الصارم بالحيدة إزاء الصراع الـذي يروى أحداثه، وما يبدو من بعض الخلل، مرده ليس إلى عجـز وقصـور فـي الموهبة والعلم لدى زيدان بل إنما سببه العجلة، والإحساس بفداحة المهمـة التـي فرض على نفسه أن يؤديها في مجتمع العربي المتخاف في سنوات معدودات.[2]

أما عباس محمود العقاد فانه يقول في شأن زيدان :

" أن جرجي زيدان من كتاب ما يسميه هو بالحاسة الاجتماعيـة، ونسـميه نحـن بكتاب الاستواء والطبع السليم، نقرأ جرجي زيدان في جميع موضوعاته فإذا هـو مطبوع السداد والاستقامة السواء. وهي جدول وليست بشلال، وهي بنت الـدوان وليست بنت الفلتات واللمحات".[3]

ويقول فيه مصطفى لطفي المنفلوطي :

" تطلع الشمس في كل صباح من شرقها على هـذه الكائنـات، ناطقهـا وصامتها ، حيها وميتها، جامدها وسائلها، فتستمد منها كل مادة حياتها التي

([1]) محمد يوسف نجم : القصة في الأدب العربي الحديث، ص 194.

([2]) حسين أحمد أمين: تقديم ودراسة الأمين والمأمون ، مطبعة دار الهلال بدون تاريخ للطبعة ، ص 60.

([3]) أنور الجندي، من أعلام الفكر والأدب، القاهرة سنة 1964، ص 87.

تقومها، أو صورتها التي تتشكل بها. وكذلك كان جرجي زيدان في سماء هـذا البلاد. لقد كان زيدان روحاً عالية تمنيناها، فلما وجدناها نعمنا بها قليلاً ، ثم فقدناها ونحن أحوج ما نكون إليها".[1]

أما الدكتور يعقوب صروف:

فانه يقول عن مؤلفات زيدان : " له مؤلفات عديدة ممتعة في آدابها تشهد له بسعة الاطلاع وأصالة الرأي ، والبراعة في التبويب والتنسيق فكان لهذه الكتـب شـأن كبير شرقاً وغرباً وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية.

وبحث في تواريخ دول الإسلام وألف فيها كتابا جليلاً ، وبنا على نوادرها سلسـلة من الروايات التاريخية الفكاهية، جميع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارئ".[2]

ويقول الأستاذ مارون عبود :

" أن لزيدان فضلاً جزيلاً على النهضة الحديثة، فهو من أركانها الكبار قـد علـم الناس تاريخهم وسلاهم معاً".[3]

ويقول لويس شيخو:

" على أننا لا ننكر انه أن أحد أركان النهضة الأدبية الجديدة في الشرق الأدنى".[4]

ويقول الهاشمي : " من أهل النهضة الحديثة .... جرجي زيـدان المتـوفى فـي 1331هـ - 1914م.[5]

([1]) مجلة الهلال : عدد سنة 1914 – وفاة جرجي زيدان

([2]) مجلة المقتطف : عدد سبتمبر 1914م – وفاة جرجي زيدان

([3]) مارون عبود : رواد النهضة الحديثة، بيروت عام 1952م ، ص 172.

([4]) لويس شيخو اليسوعي : الآداب العربية في الربع الأول من القرن ا لعشرين ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت سنة 1926م ، ص 71.

([5]) السيد أحمد الهاشمي: أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ج2 ، 218.

الدكتور محمد حامد شوكت :

يقول عن زيدان: " انه بذل جهده في توسيع الثقافة التاريخيـة، لا سـيما نـواحي الحرب والسياسة والحياة الاجتماعية في التاريخ الإسلامي الوسيط، وحـاول أن ينتفع بمطالعته في الثقافة الغربية، متـأثراً بمحـاولات علـم الـنفس للعواطـف والنزعات، والحب والبغض، وفتح بذلك باب الاجتهاد والإرشاد لمـن يواصـل الكتابة في هذا الباب فهو رائد له فضل التضحية والجهاد، وقد ترك لمـن بعـده مواصلة الاجتهاد في تمثيل التاريخ والتعبير عنه في فن ذي وحـدة أعمـق وذي معنى أكثر إنسانية".[1]

ويقول المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال:

" جرجي زيدان يعتبر الرائد الأول في كتابة القصة التاريخية".[2] ويتفق معه فـي الرأي صالح احمد العلي الذي يقول: " أن زيدان كان رائد الروايات التاريخية".[3]

([1]) محمد حامد شوكت: الفن القصصي في الأدب المصري الحديث، القاهرة بدون تاريخ للطبعة ، ص 151-152.

([2]) جمال الدين الشال: التاريخ والمؤرخون في مصر، القاهرة ، سنة 1958، ص 185- 186

([3]) لجنة من الأستاذة : الأدب العربي في أثار الدارسين، بيروت سنة 161م ، ص 44.

ثانيا: الاتجاه الرافض لزيدان ورواياته :

محمد سرور بن نايف زين العابدين:

قال: لا اعرف أحدا من الصليبيين في دنيا العرب، عمل على تلويث تاريخنا الإسلامي كما فعل جرجي زيدان لقد أمضى سنين عمره يكتب وكان محرفا كذاباً في معظم ما حشره من أخبار وتوليفات في كتبه وكانت مهمته في هذه الحكاية تلخيص أقوال الحاقدين والمستشرقين الماكرين وإخراجها تارة باسم تاريخ التمدن الإسلامي وأخرى باسم روايات تاريخ الإسلام، وما كنت مهتما بقراءة مؤلفاته لولا ما شاهدته من انتشارها بين الشباب الذين لا يعرفون تاريخ أمتهم وسيرة نبيهم محمد (صلى ا عليه وسلم) ويأخذونها على أنها حقائق، تترك في نفوسهم وعقولهم انطباعا سيئاً عن أعلام المسلمين.

لقد صور خلفاء المسلمين وعظمائهم بأبشع الصور وأحطها فتارة يتحدث عن استبدادهم وطغيانهم، وتارة يتخيل قصصاً غرامية يلصقها بهم، وفي غير هذه وتلك يزعم بأنهم مغامرون،يعيشون من اجل المرأة ومتاع الدنيا، وإذا مر ذكر النصارى تراه يشيد بهم ، وينعتهم بأحسن النعوت وأجلها.[1]

فؤاد دوارة :

يرى عدم تثبت جرجي زيدان في معلوماته فهو ينقل روايات ضعيفة مغرضة، مثل ما أورده في رواية (17 رمضان) من اتهامات لعلي بن أبي طالب (رضي ا عنه). كما انه يورد الأحداث بصورة مخلة، ولم يعن بتقديم صورة حية متكاملة للشخصيات الرئيسية في تلك الأحداث، مع شرح خلفياتها السياسية والاجتماعية بالقدر الكافي .

([1]) محمد سرور بن نايف زين العابدين، دراسات في السيرة النبوية، دار الأرقم، برمنجهام ط3 سنة 1988 ، ص 193.

كما رأى أن زيدان في هذه الروايات يستهدف هدفاً خفياً يتمثل في صرف القراء عن التعمق في دراسة ماضيهم المرتبط بمشكلات واقعهم وآمال مستقبلهم، كما هو معروف من الارتباط الوثيق بين الماضي والحاضر وخروج المستقبل من رحم الحاضر.[1]

أما شوقي أبو خليل فانه يقول :

يواجه تاريخنا العربي وأعلامه محاولة مدروسة دقيقة ، لتزييفه وإفساده، وتمييع قيمه ومثله، وهي محاولة لم نشهد اخطر من سمومها وطعناتها ودسائسها ... كل ذلك في عرض روائي جذاب شيق هدفه طرح أرضية تاريخية وفكرية واسعة لإثارة الشبهات حول تاريخنا وتراثنا وآدابنا ورجالاتنا. سموم حقيقية قدمت إلى شباب جيلين في امتنا العربية، عن طريق قصص تقوم على الحبكة الغرامية الخيالية، عملت عنوان " روايات تاريخ الإسلام" لجرجي زيدان.

وروجت دار الهلال لهذه الروايات الغرامية، خلال أكثر من ثلاثة أرباع القرن ... وأذاعتها في مختلف أرجاء الوطن العربي.[2]

([1]) فؤاد دوارة : تقديم ودراسة رواية 17 رمضان، مطبعة دار الهلال ، سنة 1985م.

([2]) شوقي أبو خليل: جورجي زيدان في الميزان ، دار الفكر ط3 ، عام 1982م ص 308 – 309 - 310

الكاتب والمفكر الإسلامي أنور الجندي :

يقول: " منذ توفي مؤسس الهلال عام 1914 ولا تزال آثاره تجد اهتماماً كبيراً من جهات بعينها فما تلبث بين وقت وآخر أن تظهر روايات الهلال مطبوعة طباعة فاخرة. تلك الروايات التي تزيل هيبة زعماء الإسلام وأبطاله في نظر الشباب المسلم وتجعلهم يحسون نحوهم بانتقاص شديد ، وهذه هي المحاولة الخطيرة وراء مظاهر براعة التصوير الفني والعاطفي لكن الحقيقة أن جرجي شوه التاريخ الإسلامي برواياته الفاسدة. حيث اعتمدت عليه المخابرات الأجنبية وكان عضوا في الجمعيات الماسونية في الشرق العربي، ورافق الحملة النيلية إلى السودان عامة 1884م بصفة مترجم في قسم الاستخبارات، ثم عاد إلى بيروت فدرس فيها اللغتين العبرانية والسريانية ورحل إلى لندن عام 1890 ورجع إلى مصر فأنشأ مجلة الهلال ، وقد خدم الاستشراف والتغريب في هذه المرحلة خدمات جليلة منها موقفه من السلطان عبد الحميد والجامعة الإسلامية وهو موقف خصومة وكراهية، كذلك فقد وسع جرجي زيدان دائرة الخلاف بين الصحابة وجدد الخلافات بين الأمويين والعباسيين وجرى في ذلك مجرى المستشرقين.

وفي بداية حياته وضع تحت إعداد دقيق وخاصة خلال إقامته في لندن حيث اتصل بمعاهد غير المسلمين للعمل في الشرق، وان إعادة النظر في كتابات جرجي زيدان تكشف بوضوح انه يمثل اتجاه الاستشراف والنشر والتغريب حاملاً شبهاته وسمومه وعاملاً على غرسها في أبحاث التاريخ الإسلامي.[1]

([1]) أنور الجندي: إعادة النظر في كتابات المعاصرين في ضوء الإسلام، دار الاعتصام، بدون رقم للطبعة سنة 1985م ، ص 169-172.

سيد حامد النساج :

انتهى من خلال دراسته التي قدمها لرواية ارمانوسة إلى عدد من الحقائق نجملها فيما يلي:

1- استبعاد ورغبة جرجي زيدان في إحياء التراث العربي، من خلال هذه الروايات ولكن إرادة التفرد بين أقرانه من معاصريه كاليازيجي والشدياق والبستاني ونقولا حداد هي التي سيطرت عليه. .

2- تحيز زيدان الواضح للأقباط المسيحيين في مصر من خلال حديثة عنهم وذكره لعاداتهم وأفكارهم وتقاليدهم .

3- عدم اعتماده على المصادر الدينية المعتمدة، والمرتبطة بالعقيدة الإسلامية وكتب التفسير والسيرة، وكيف يمكن عن الإسلام وتاريخه وقادته وفرقه دون التسلح بالأدوات والمعارف الخاصة بذلك.

4- زيدان فصل بين الماضي والحاضر وحال دون معايشة القارئ المعاصر لحاضره وتمثله الجيد لماضيه.

5- الكسل الفني الملحوظ في رواياته والذي دفعه إلى نقل صفحات وصفحات من كتب التاريخ باللغة التي دونت بها دون إمعان فكر أو تبديل والمعتمد في ذلك أن يختار المنعطف والحادثة ويؤلف بين الشخصيات ويشكل لغة الحوار في صياغة جديدة ومن خلال رؤية جديدة.(1)

---

(1) د/ سيد النساج : تقديم ودراسة رواية ارمانوسة المصرية، مطبعة دار الهلال ،/ 1984م.

د/ طه وادي :

أما الدكتور طه وادي فانه في أول دراسته لرواية احمد بن طولون يطرح سؤالا فحواه، إلى أي حد التزم زيدان بالشعار الذي رفعه لهذه السلسلة روايـات تاريخ الإسلام؟ وهل ما كتبه كان حقاً؟ وإذا كان فاني التـاريخ مـن الإسـلام. وينتهي وادي من خلال هذه الدراسة إلى النتائج التي جاء منها :

1- إيهام جرجي للقارئ بصدقه التاريخي عن طريق ذكر مصادر لا يهتم فيها بذكر اسم الكتاب كاملاً ولا اسم مؤلفه.

2- اختار لبطل الرواية اسماً قبطيا – دميانة – ولم يظهر احمد بن طولـون في دائرة الأحداث إلا للحظات خاطفة وكأنه يكتب حاكية عاطفية تصـور حياة فتاة مسيحية.

3- عدم إخلاص الكاتب للتاريخ ولا للفن فقد ظلم الشخصـية التـي سـمى الرواية باسمها وبقيت مجرد مشجب تعلق عليه أحداث الحكاية لا الرواية.

4- المنظور الروائي :

انتهى طه وادي من خلال دراسته وكشفه للعلاقة بين المضمر الغائـب والمعلـن الحاضر فيما تبناها زيدان من وجهة نظر أراد أن يطرحها في هذه الروايـة مـن خلال الجدول التالي :

المضمر الغائب	الغائب الحاضر
رواية	حكاية
تاريخية	عاطفية
إسلامية	مسيحية
البطل احمد بن طولون	البطلة دميانة

فوادي يرى أن زيدان لم يلتزم بشيء مما صرح به فما أعلنه هو ما أراد أن ينفيه وما أضمره هو ما أراد أن يثبته.[1]

سيد بن حسين العفاني :

يقول عن روايات جرجي زيدان : أما المجال الذي استطاع زيدان أن يبث فيه سمومه فهو مجال القصص فقد ألف عدداً من القصص تحت اسـم روايـات الإسلام ودس فيها كثيراً من الدسائس والمؤامرات والأهواء وحاول إفساد مفهـوم الشخصية والبطولة الإسلامية حيث أساء إساءة بالغة إلى الأعلام من أمثال هارون الرشيد وعبد الرحمن الناصر والأمين والمأمون وغيرهم.

وما زالت هذه الروايات تظهر بين وقت وآخر مطبوعة طباعـة فـاخرة لتخـدع الشباب بذلك الأسلوب القصصي المسموم.[2]

ويقول الدكتور عبد الرحمن صالح العشماوي:

" أن جرجي زيدان قد بذل جهداً كبيراً فيما كتب، وصدق مع نفسه وقلبـه، فعرض على المسلمين تاريخهم الإسلامي عرضا روائياً يـتلاءم مـع معتقـداه النصرانية ومنطلقاته النفسية والفكرية، وبذلك جهداً كبيراً أيضا في الـربط بـين أجزاء رواياته، وان كانت أدواته الفنية واللغوية قد قصرت به عن المستوى الفني المطلوب في مجال الرواية التاريخية.[3]

([1]) طه وادي: دراسات في نقد الرواية، الهيئة المصرية للكتاب، 1989م ، ص 100- 104.

([2]) سيد بن حسن العفاني: أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، النشار دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع ا لسعودية – جدة ، ص 476.

([3]) عبد الرحمن صالح العشماوي: وقفة مع جرجي زيدان ط2 ، 2003م ، الناشر مكتبة العبيكان، ص 94.

ويقول الدكتور محمد السيد الوكيل: " ومن أشهر من افتـرى وزيـف التـاريخ الإسلامي في العصر الحديث الكاتب المسحي جرجي زيدان الذي اسـتتر بـرداء العروبة وتوارى خلف شعارات القومية ومهد له الأعـلام الغـرب ليلعـب دوره الطبيعي في كتابه التاريخ الإسلامي مشوهاً مبتوراً ، يزينه بأسلوب رقيق ممتع، ويغلفه بعناوين زاهية براقة ويقدمه في صورة غرامية أخاذة".[1]

الشيخ أحمد حسين المدني : في كتابه " نبش الهذيان من تاريخ جورجي زيـدان" والذي رد عليه زيدان بكتاب عنوانه (رد رنان على نبش الهذيان) ومما جاء في نقد الشيخ أمين المدني لزيدان :

قوله : " أن التاريخ المنسوب إلى جرجي زيدان المسيحي المدرس للغة العربيـة بالمدارس اليسوعية بمصر طالما تبجح في مؤلفه ومدح نفسه وتاريخه وأطنب في وصفه، مع ما في هذا التاريخ من الكذب والبهتـان والخلـط والتغييـر لأسـماء المشاهير من العرب، والتحريف في أسماء الصحابة والخلط في نفس التاريخ الذي هو المقصود بالذات ، والعلة الأولى في نشر هذا التاريخ بمصر مع ما عليه من الكذب هو أن المصريين لما أغفلوا أمر بلادهم واستولى علـى بعـض أمـرائهم الجهل المركب ، دخل فيهم نصارى الشام وامتزجوا بهم امتـزاج اللحـم بالـدم واستحوذوا عليهم من الجهات الست، ولم يتركوا شفيعا يتوسلون بـه إلـيهم إلا قدموه، يستغلونهم بالأكاذيب، والدعاوى المموهة، والأزرار الألماس الملصقة فـي رقابهم،وبأمثال هذه الأكاذيب والاتهامات التي لا تروج إلا على ضعفاء العقـول، اعتبرهم بعض الأعيان وروج لبضائعهم وجرنالاتهم مع عدم التأمل

([1]) أمين بن حسن المدني: نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان ، تحقيق مازن المطبقاني ، ط1، المدينة المنورة، مكتبة ابن القيم، 1410هـ، المقدمة ، ص 6.

لما هي محشوة به من الإضلال وطالما ألفوا تواريخ وكتبوا ما هو مفترى وما هو مخازن للخلط والهذيان حتى أنهم ألفوا، تأليف يدعون الناس فيه إلى مذهب (الماسون)، وطبعوا بمصر كل هذا بمرأى ومسمع من بعض الأمراء المصريين ، فان كنت لا تدري مصيبة وان كنت تدري فالمصيبة أعظم.[1]

ومن أشهر ناقديه أيضا المصلح الإسلامي :

شلبي النعمان: مؤسس جمعية ندوة العلماء في لكهنو بالهند في مقالة ، ونشرة هذا النقد مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ رضا على حلقات المجلد 15 عام 1330هـ - 1912م مما جاء فيه: أن الدهر دار العجائب ومن إحدى عجائبه أن رجلاً من رجال العصر .... يؤلف في تاريخ التمدن الإسلامي كتابا يرتكب فيه تحريف الكلم وتمويه الباطل وقلب الحكاية والخيانة في النقل، وتعمد الكذب ما يفوق الحد وينتشر هذا الكتاب بمصر وهي قبة الإسلام وغرة البلاد ...

ثم يزداد انتشارا في العرب والعجم ... وكنتن مشغولا فيما مضى بأمر ندوة العلماء بالهند لكن لما عم البلاء واتسع الخرق وتفاهم الشر، لم أطق الصبر، فاختلست من أيامي أوقاتا وتصدين للكشف عن عوار هذا التأليف والإبانة عما فيه من أنواع الافك والتحريف والتدليس.[2]

([1]) أمين بن حسن المدني: نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان ، ص 15.

([2]) سيد بن حسين العفاني: أعلام وأقزام في ميزان الإسلام ، ص 476.

أما الدكتور عمر الدسوقي حسن: فانه يقول عن هذه الروايـات" هـذه السلسـلة الطويلة التي بلغت أكثر من عشرين قصة ، مستمدة من التاريخ الإسلامي، مكتوبة كلها بأسلوب صحفي،خالية من التحليل النفسي، والنظريات الفلسفية، ومـا هـي العبرة من إيراد التاريخ في قالب قصة لم تكتمل شروطها الفنية ولم يحـافظ فيـه على الحقائق".(1)

الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار :

قال: عندما تقدم زيدان – صاحب الهلال- بمؤلفه تاريخ التمدن الإسـلامي إلى نظارة المعارف المصرية وطلب منها أن تقرره للتدريس في مدارسها عهدت النظارة إلى بعض أساتذتها بمطالعته. فتبين لهم أن فيه غلطاً كثيراً، وانـه غيـر جدير بان يعتمد عليه في التدريس فرفضته نظارة المعارف، فانتقـدت الأسـاتذة الذين طالعوا الكتاب لأنهم لم ينشروا على الناس أغلاطه، ولكننا حملنا ما يصـدر عن الرجل من أخطاء لم ينشروا على الناس أغلاطه، ولكنها ترجع إلى عدم فهـم بعض المسائل، ولكن ظهر لنا مما كتبه بعد ذلك ومن بعض حديثـه معنـا ومـع غيرنا من أصحابه، انه يكاد يكون من الشعوبية الذين يتحـاملون علـى العـرب ويفضلون العجم عليهم.(2)

أما الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق فقد كان من اشد النقاد رفضا لاتجاه زيدان فقال ناقدا له : " لم يكن جرجي زيدان مصرياً أصـيلا بل كان من هؤلاء النازحين الذي آوتهم مصر ورحبت بهم وأنزلتهم منزلة التكريم من أمثال أصحاب المقتطف (وشبلي شميل) و (يعقوب صروف) فلم يرعوا ذمة ولم

---

(1) عمر الدسوقي حسن : في الأدب العربي الحديث ، ج1 ،ط4 ، دار الفكر العربي، 1959م ، ص 94.

(2) مجلة المنار ، ج2، عام 1931م، 1313هت ، ص 59-60.

يقدروا حرمة ولا كرامة، وإنما غلبهم سوء الطبع، وساقهم لـؤم النزعـة، إلـى الإساءة إلى الجو الإسلامي بل إلى الجو المسيحي – الذين أفسح لهم مكاناً رحيبـاً يسوده الأمن والاطمئنان وتمثلت هذه الإساءة في نشر الإلحاد، والمادية والشك كما عاشوا في كنف الاستعمار يسيرون في ركابه ويمكنون له في الأرض ...[1]

د/ أحمد الشرباصي: قال عن روايات زيدان : " أن هذه الروايات لا تليق بالمسلم قراءاتها لأنها وضعت لتشويه التاريخ الإسلامي وقلب أموره رأساً علـى عقـب، والنيل من جلاله وجمله، وكأنما كانت هذه الروايات نتيجة لحظة أريد بها مسـخ التاريخ الإسلام في أنظار أهليه، حتى يفقدوا اعتزازهم بما فيه ولسنا نرسل القول إرسالا بلا دليل، بل بين أيدينا أدلة وبراهين ، فهذه الروايات أولا: تشمل في كثر من مواقفها على حوادث مصطنعة وأمور مختلفة، ولعل صاحبها يوهم قراءه بأن هذا من قواعد الفن القصصي لجذب القراء وإثارة الاهتمام، ولكن هذا أن صح في القصة الخيالية لأنه لا يصح بحال من الأحوال في القصة التاريخية.[2]

([1]) د/ عبد الحليم محمود: هذه حياتي، ط دار المعارف ، ص 112

([2]) د/ احمد الشرباصي : يسألونك عن الدين والحياة، دار الجيل بيروت، بدون رقم للطبعة سنة 1980م ، ص 484.

اختلاف الآراء حول زيدان ومؤلفاته:

أول ما يلحظه القارئ لهذه الآراء السابقة أنها اتخذت اتجاهين متناقضين:

الاتجاه الأول : الاتجاه المؤيد لاتجاه زيدان والذي يراه رائدا من رواد العمل الروائي القصصي ومؤرخاً لا يشق له غبار في مجال التاريخ، وصحفيا رائدا من أصحاب المجلات الأكثر ذيوعاً وانتشاراً في زمانها.

والاتجاه الثاني : الاتجاه الرافض لزيدان ومؤلفاته والذي يرى في زيدان مسيحياً متطفلاً على التاريخ الإسلامي ، ورجلا يحيط به الغموض والإلغاز ، من فقير معدم قادم من بيروت إلى مصر إلى صاحب اكبر مجلة، إلى صلات ممتدة بمستشرقين من شتى بقاع الأرض إلى تأثر بمنشوراتهم وكتبهم، إلى اتهام بالعمالة والعمل على إفساد التاريخ الإسلامي والإساءة إلى أعلامه.

وجرجي زيدان نفسه كان مدركاً لاختلاف النقاد حوله عندما قال: " فليس في الدنيا جمهور استحكم فيه اختلاف المشارب والأهواء والأغراض مثل قراء العربية فهم مختلفون موطناً ومشرباً وتربية فلا يتأتى للكاتب إرضاؤهم جميعاً ولو أوتي علم الأولين والأخريين".[1]

([1]) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، ج2 ، منشورات دار مكتبة الحياة، ط2، 1978م ، ص 20.

موقفه من نقاده :

كان زيدان يرى أن انتقاد الكتب له فائدة وله نفع وانه لا يحيط بأي حـال من قدر الكاتب ولا يذهب بفضله يقول في ذلك : " لا جدال في أن الانتقاد أكثـر فائدة من التقريظ وقد يتبادر إلى الأذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها أو يذهب فضل أصحابها وهو خلاف الواقع. وإذا رأينا له مثل هذا التـأثير أحيانـاً فـلأن الكاتب المنتقد لم يكن يستحق عناية المنتقدين ، ولو ترك بلا انتقاد لكن أسرع إلى السقوط. أما الكتب المهمة فإنها تزداد بالانتقاد شيوعاً ورواجا ويـزداد أصـحابها رسوخا في عالم الشهرة.[1]

وذلك لا ينفي انه كان لهذا النقد موقعه من نفس زيدان لما نلمسه في قولـه : " لا تظن كاتباً من كتاب النقد لاقى ما لقيناه من الانتقاد أثناء انشغالنا بهذه الصناع منذ بضع وعشرين سنة.[2]

ولا نقول إن زيدان كان يقف مكتوف اليدين حيال ما يوجه إليه من نقد، بل انه في أحياة كثيرة كان ينبري للرد على ناقديه ويبين موضع التحامل فيما وجه له من نقد، كما فعل في رده على كتاب " نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيـدان" لأمين حسين المدني، والذي رد عليه زيدان بكتاب (رد رنان على نبش الهذيان) وكما رد على غيره من ناقديه.

([1]) جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية، ج3 ، ص 4.

([2]) المرجع السابق، ج 3 ، المقدمة ، ص3.

وذلك لا ينفي انه كان في أحيان كثيرة لا يبالي بنقاده بل انه لا يكلف نفسه عنـاء الرد عليهم بل يمضي في مسيرته وغايته التي وضعها نصب عينيه.

وما لا نستطيع قوله أن زيدان لم يكن يأخذ بما يوجه إليه من نقد. فزيدان إذا رأى النقد سليماً أو يصح عنده اخذ به وغير صحيح في الكتاب في الطبعة الجديدة، أو يشير إلى التصحيح فيما يلي من أجزاء الكتاب. وما لا يصح عنده من النقد يغفله ولا يشير إليه.[1]

بل انه كان يجمع الانتقادات التي توجه إليه من شتى الأنحاء بشتى الوسائل ، ويقوم بالتمحيص والتدقيق فيها، فإذا استقر عنده صحتها وسلامة وجهة النظـر فيها نشرها في آخر أجزاء الكتاب أن كان ذا أجزاء أو في الطبعة الجديدة.

كما في ذيل الجزء الرابع من " تاريخ آداب اللغة العربية" حيث نشر فيه كثيرا من الاستدراكات والاصطلاحات على ضوء الانتقادات التي نشرت حـول الأجـزاء الثلاثة السابقة من هذا الكتاب. بل أن زيدان نفسه كان يرجو ويلح على قرائه أن يعملوا على تنبيهه إذا أخطأ حتى يتمكن من استدراك الأخطاء أن صحت يقول في ذلك : " لأني استحي من الحق إذا عرفته أن لا ارجع إليه ".[2] وكان إذا أحس أن هنالك شيئا أو أشياء قد فاتت عليه في مؤلف من مؤلفاته يطلب من جمهور القراء الكتابة إليه حتى ينبهوه .

قال بعد انتهائه من تأليف كتابه تراجم مشاهير الشرق وعندما أحس بأن

---

(1) محمد عبد الغني حسن : سلسلة أعلام العرب، ص 128.

(2) جرجي زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ص 7.

بعض التراجم ربما تكون قد فاتت عليه: " فلا يخلو أن يكون فاتنا ذكـر بعـض المشاهير من رجالنا فنرجو من أهل الاطلاع أن ينبهونا إلى ذلك ويبعثوا إلينا بما يعلمونه من تراجم أولئك الرجال، لندرجها في ملحق نجعله جزءا ثالثاً لهذا الكتاب أن شاء ا .[1]

أن زيدان كاتب اختلف الناس كلا بحسب رؤيته وثقافته، وان كان ذلـك لا ينبغي أن زيدان حمل التاريخ الإسلامي مالا يحتمل في روايته التاريخيـة وفـي بعض مؤلفاته وقد حاول زيدان التمسك بسعة الصدر في كل ما وجه إليه من نقـد وان كان في بعض الأحيان يتعزى بما يوجه إليه من نقد من مثال قوله : " فانك لا تكاد تجد كتاباً مهما لم يتناوله الأدباء بالانتقاد من كتاب العين للخليل إلـى كتـاب النحو لسيبويه فشعر المتنبي وأبي تمام وغيرهما من فحـول الشـعراء وفطاحـل الأدباء في العصر العباسي، وقد زادت رغبة الأدباء في النقد في العصور التاليـة فلم ينج احد من كبار المؤرخين واللغويين من انتقاد أو تقريع كمـا أصـاب ابـن الأثير وان خلكان والفيروز آبادي وابن خلدون والمقريزي والزبيدي وغيرهم".[2]

([1]) جرجي زيدان : من تراجم مشاهير الشرق، مطبعة الهلال القاهرة سنة 1910م ، ص7.

([2]) محمد عبد الغني : سلسلة أعلام العرب، ص131.

خلاصة :

وفي ختام هذا الفصل نقول انه من خلال بحثنا المضني في روايـات زيـدان لا نستطيع أن ننكر تحامله على التاريخ الإسلامي وتشويهه لسيرة أبطاله من أمثـال رجالات الصدر الأول الذين حاول تشويه صورتهم في روايته (فتاة غسان) ومن وصفهم ونعتهم بالبطش والنهب. ومن مثل رواية (ارمانوسة المصـرية) التـي اظهر فيه المسلمين عربا سذجاً بسطاء أغبياء وفي روايته (عذراء قريش) حاول تشويه سيرة الخليفة عثمان بن عفان والخليفة على بن أبي طالب رضي ا عنهما، وعائشة أم المؤمنين رضي ا عنها. ولم يسلم خلفاء بني أمية من ذلك التشـويش وهذا ما نلمسه في روايته (17 رمضان) وفي روايته (فتح الأندلس) عمل علـى تشويه صورة طارق بن زياد وموسى بن نصير. كما شوه سيرة عبـد الـرحمن الغافقي في روايته (شارل عبد الرحمن) أما في روايته (العباسة أخت الرشيد) فقد تعمد تشويه سيرة هارون الرشيد. وطال هذا التشويه غيـر هـؤلاء مـن أمثـال المعتصم، وأحمد بن طولون، وعبد الرحمن الناصر والظاهر بيبـرس، وقطـز ، ومحمد أحمد المهدي ...

ولم يكتف زيدان بذلك بل انه ذهب إلى ابعد من ذلك عندما أثار الشـكوك حـول الفتوحات الإسلامية الخالدة في رواياته ، واصفاً أصحابها بالنسب تـارة وتـارة بالبطش والفتك، وفرض الجزية والخراج والظلم تارة أخرى.

كما نلاحظ أيضا أن زيدان كان يختار من التاريخ الإسلامي الفتـرات العصـبية التي تتسق بالقلق السياسي والتي تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين مغفلا بـذلك الفترات المشرقة من التاريخ الإسلامي – وما أكثرها- مركزا فقـط علـى تلـك الفترات الحرجة العصبية من ذلك التاريخ، فوجد تربته الخصبة في إحداث الفتنـة الكبرى ، وأبو مسلم الخراساني، والأمين والمأمون ، والعباسة والرشيد، وشـجرة الدر، وغيرها من رواياته التي نماها بتشويهه وتزييفه للتاريخ الإسلامي.

وفي مقابل ذلك نجده في رواياته يرفع من شأن كل ما هو مسيحي مسلطاً الأضواء على صور الصلبان والقديسين ومياه المعمودية المقدسة ... وزيت مصباح الدير...

كما نقل مسرح أحداث رواياته إلى الأديرة والكنائس راسماً للرهبان والقسيسين صورة مثالية تتجلى فيها معاني الأمن والأمان والاحترام والرأي السديد لا سند عليها ولا دليل من مثل ادعائه باستهانة عبد الملك بن مروان بالقرآن الكريم ومن مثل دعواه بأن المنصور والمعتصم بنيا كعبتين في بغداد وسامراء .

ثم أخيرا اعتماده في هذه الروايات على جملة من المراجع غير موثوق بمادتها وجملة من مراجع لمستشرقين.

وأخيراً نقول أهمل زيدان عن عمد الشخصيات التاريخية التي تناولها في رواياته ، ومال إلى صنع شخصيات وأحداث خيالية أخذت الحيز الأكبر من الروايات، ولعل السبب في ذلك يكمن في هروبه من حقائق التاريخ الإسلامي الناصعة، ولعل السبب في ذلك يمكن في هروبه من حقائق التاريخ الإسلامي الناصعة، وتحيزه السافر لنصرانيته التي حالت بينه وبين الإنصاف لتاريخ الإسلام.

الخاتمة

وبعد : فإنني أحمد الله سبحانه حمدا طيبا على أن هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

أرجو من الله أن أكون وفقت فيما قصدت إليه في هذا البحث الذي أحتوى على مقدمة وبابين وخاتمة . وقد وضحت في المقدمة الأسباب التي دفعتني لاختيار هذا الموضوع بالذات ، وأهميته مع ندرة الدراسات التي سبقته ، كما بينت الصعوبات التي واجهتها في البحث ، وقمت باستعراض أبواب وفصول البحث المكونة من الباب الأول والذي جاء بعنوان : (زيدان حياته وعصره) ، والمتمثل في فصلين ، جاء في الفصل الأول منه بعنوان (إطلالة على العصر) ، وقسمته ثلاثة مباحث ، تناولت في المبحث الأول سبل الحياة السياسية والاجتماعية والدينية . وتناولت في المبحث الثاني منه الحياة الأدبية ، وفي المبحث الثالث عرفت بأهم أعلام الأدب في هذه الفترة . وجاء الفصل الثاني بعنوان : (زيدان سيرة وآثارا) ، وقسمته ثلاثة مباحث . عرفت في المبحث الأول منه بمؤلف روايات تاريخ الإسلام (جرجي زيدان) ، ثم المبحث الثاني الذي تناولت فيه ثقافته والمبحث الرابع الذي تناولت فيه أهم أعماله الأدبية .

وجاء الباب الثاني بعنوان (روايات تاريخ الإسلام) وقسمته خمسة فصول ، الفصل الأول جاء بعنوان (بين يدي الروايات) ، وقسمته مبحثين ، عرفت في المبحث الأول منه الرواية في اللغة والاصطلاح ، وبينت تطورها التاريخي حتى عصرنا الحديث ، وكان المبحث الثاني تعريفا بعناصر بنائها ،

ثم جعلت الفصل الثاني بعنوان : (تعريف عام بروايات زيدان التاريخية) ، وقسمته مبحثين ، المبحث الأول عرفت فيه بزمان تأليف الروايات ، وفي المبحث الثاني وضحت الأغراض التي من أجلها وضع زيدان رواياته .

ثم جعلت الفصل الثالث لعناصر القصة الزيدانية ، وقسمته ثلاثة مباحث ، تناولت في المبحث الأول الشخصيات ، وفي المبحث الثاني الحوار ، وفي المبحث الثالث تناولت الأحداث .

أما الفصل الرابع فقد أفردته لتوضيح دور العناصر الدينية في الرواية ،

وأفردت الفصل الخامس للنظر في آراء النقاد في روايات تاريخ الإسلام .

وقد خرجت من بحثي هذا بالعديد من النتائج أهمها :

- افتقاد زيدان للروح العلمية والحيدة الموضوعية في رواياته التاريخية ، فقد غضت هذه الروايات الطرف عن كل موقف شجاع أو أصل من أصول الدين ، وسلطت أضوائها على المواقف السلبية لكي تحط من قدر المسلمين ، وتصرف أنظارهم عن حضارتهم .

- لم يتجه زيدان إلى التاريخ الإسلامي لإبراز أمجاده ، وكان متأثرا بنظرة المؤرخين الغربيين إلى العالم الإسلامي .

- من ناحية الشكل فإن الأحداث تقوم على علاقة بين بطلي القصة ، وتحول الدسائس دون التقائهما .

- ومن حيث المضمون فأنه لم يلجأ إلى الفترات المشرقة من التاريخ الإسلامي ، بل اتجه إلى الفترات التي تمثل صراعا بين مذهبين سياسيين أو كتلتين متصارعتين على السلطة .

- شخصيات رواياته متشابهة ونمطية فهو لا يهتم برسم شخصياته .

- الزمن في رواياته يسير في خط تصاعدي له بداية ونهاية .

- جاءت المصادر التي استقى منها زيدان التاريخ الإسلامي في مجملها مصادر ضعيفة لا يؤخذ بها .

- افتقار الروايات لعناصر التشويق واعتمادها على المفاجآت والمصادفات وعنصر اللغز أو السر .

- القصص الغرامية التي زرعها زيدان في رواياته أتت شاذة في موقعها من أحداث التاريخ وشخوصه .

- أسلوب زيدان الأسلوب الصحفي البسيط الخالي من الشاعرية والجمال .

- جاء الحوار بأنواعه الثلاثة الجيد والمتوسط والعادي متناسبا مع مستوى الشخصية ولكن ليس في كل الحالات وهذا يعني عدم مراعاة زيدان لتأثير البيئة على الشخصية ثقافية أو اجتماعية .

وفي نهاية المطاف العلمي لا يسعني إلا أن أوصي بدراسة بعض جوانب الرواية أو القصة السودانية . من هذه التوصيات :

- دراسة الزمان في الرواية السودانية .

- نقترح أيضا دراسة إحدى التقنيات الفنية في الرواية السودانية (الزمن أو المكان أو الشخصية أو الحدث) وموازنتها برواية الدول العربية الأخرى أو الأجنبية .

ثبت المصادر والمراجع

أولا :

1- القرآن الكريم

ثانيا :

2- الإنجيل

ثالثا :

المراجع العامة

*** إبراهيم السعافين :**

3- تطور الرواية العربية الحديثة ، ط2 ، بيروت لبنان 1987م .

*** أبو عبيدة بن عبد الله بن عبد العزيز البكري :**

4- معجم ما استعجم ، طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1945م .

*** أبو المحاسن (جمال الدين بن تغردي بردي) :**

5- النجوم الزاهرة في أحوال مصر والقاهرة ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ط ، وزارة الثقافة .

*** أبو العتاهية :**

6- الديوان ، تحقيق شكري فيصل ، دار الملاح للطباعة والنشر ، دمشق .

*** أبو الفرج الأصفهاني (علي بن الحسين) :**

7- الأغاني ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، بيروت – لبنان .

*** ابن الأثير :**

8- الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت ، سنة 1979م ، بدون رقم للطبعة .

*** ابن منظور (ابو الفضل جمال الدين محمد) :**

9- لسان العرب ، دار صادر بيروت ، ج7 ، ط3 ، 1994م

*** أحمد الشرباصي :**

10- يسألونك عن الدين والحياة ، دار الجيل بيروت ، بدون رقم للطبعة سنة 1980م

*** أحمد أمين :**

11- زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ط2 ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة 1975م .

*** احمد حسن الزيات :**

12- تاريخ الأدب العربي ، دار نهضة مصر القاهرة ، ط24 .

*** احمد بن حجر العسقلاني :**

13- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن باز ، دار الفكر للطباعة والنشر .

*** أحمد حمد النعيمي :**

14-الزمن في الرواية العربية المعاصرة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ط1 ، 2004 .

*** أحمد شوقي :**

15- ديوان الشوقيات لأمير الشعراء ، راجعه وضبطه ، يوسف البقاعي ، الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، ط1 ، 2004م .

*** أحمد فارس الشدياق :**

16- كشف المخبأ عن فنون أوربا ، ط2 ، بيروت 1885م .

*** أحمد محمد الحوفي :**

17- التراث الروحي والشعر الحديث ، ط2 ، القاهرة 1965م .

*** أمين حسن المدني :**

18- نبش الهذيان من تاريخ جرجي زيدان ، تحقيق مازن المطبقاني ، ط1 ، المدينة المنورة ، 1410 هـ .

*** أنور الجندي :**

19- إعادة النظر في كتابات المعاصرين في ضوء الإسلام ، دار الاعتصام 1985م

20- من أعلام الفكر والأدب ، القاهرة 1964م .

*** أنيس المقدسي :**

21- الفنون الأدبية وأعلامها في عصر النهضة الحديثة ، دار العلميين ، ط5 ، يوليو 1990م .

*** أنيس النصولي :**

22- أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر ، طبعة دار ابن زيدون ، بيروت 1985م .

*** بولس مسعد :**

23- لبنان والدستور العثماني ، ط2 ، دار المعارف ، مصر 1909م .

* الترمذي :

24- الجامع الصحيح في كتاب المناقب ، دار الكتب العلمية بيروت .

*** تشارلتن :**

25- فنون الأدب ، ترجمة زكي نجيب محمود ، سلسلة الفكر الحديث ، العدد الثاني لجنة التأليف والنشر والترجمة ، القاهرة 1945م .

*** جرجي زيدان :**

26- سلسلة روايات تاريخ الإسلام ، دار الجيل ، بيروت - لبنان ، ط2 ، 1988م .

27- تاريخ التمدن الإسلامي ، طبعة دار الهلال ، الناشر مؤسسة المنشورات الحديثة ، 1959م .

28- من تراجم مشاهير الشرق ، مطبعة الهلال القاهرة ، سنة 1910م ،

29- تاريخ آداب اللغة العربية ، منشورات مكتبة الحياة ، ط2 ، 1978م .

30- تاريخ مصر الحديث ، مطبعة الهلال القاهرة ، سنة 1925م .

*** ابن جرير الطبري (أبو جعفر محمد) :**

31- تاريخ الرسل والملوك طبعة دار المعارف ، (د ، ت ط) .

*** جمال الدين الشال :**

32- التاريخ والمؤرخون في مصر ، القاهرة سنة 1958م .

*** جميل بيهم :**

33- الحلقة المفقودة في تاريخ العرب ، ط2 ، بيروت 1950م .

*** جودت الركابي :**

34- الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار ، دار الفكر المعاصر ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1996م .

*** جورج أنطنيوس :**

35- يقظة العرب ، ترجمة حيدر الركابي ، ط1 ، مطبعة الترقي ، دمشق 1946م .

*** جورج يزبك :**

36- بيروت في التاريخ طبعة دار الثقافة ، بيروت 1925م .

*** حسن إبراهيم :**

37- تاريخ الإسلام الديني والثقافي والاجتماعي ، النهضة المصرية ، ط2 ، سنة 1967م

*** حسين أحمد أمين :**

38- تقديم ودراسة الأمين والمأمون ، مطبعة دار الهلال ، سنة 1985م .

*** حسين قباني :**

39- فن كتابة القصة ، دار الجيل بيروت ، ط3 ، 1973م .

*** حسين محمد علي :**

40- الأدب العربي الحديث ، مكتبة الرشد ، ط4 ، 2002م الرياض .

*** حنا الفاخوري :**

41- تاريخ الأدب العربي ، ط3 ، المطبعة البوليسية ، 1960م .

*** حيدر أمين الشهابي :**

42- لبنان في عهد الأمراء الشهابين ، طبعة المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، 1933م

*** ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :**

43- المقدمة ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ط3 ، تحقيق علي عبد الواحد وافي .

*** خليل مطران :**

44- الديوان ، الناشر دار مارون عبود ، سنة 1977م .

*** رشاد رشدي :**

45- القصة القصيرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط3 ، 1970م .

*** (الرازي) محمد بن أبي بكر :**

46- مختار الصحاح ، دار القلم ، 1940م ، بدون رقم للطبعة .

*** (الزر كلي) خير الدين :**

47- الأعلام ، « قاموس تراجم » دار العلم للملايين ، بيروت لبنان .

*** سامي عزيز :**

48- الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزي ، دار الكتاب العربي ، سنة 1985م ،

*** سيد حامد النساج :**

49- تقديم ودراسة رواية أرمانوسة المصرية ، مطبعة دار الهلال ، 1984م .

*** سيد حسن العفاني :**

50- أعلام وأقزام في ميزان الإسلام ، الناشر دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع ، السعودية – جدة .

*** سيد قطب :**

51- النقد الأدبي أصوله ومناهجه ، دار الشروق ، بيروت والقاهرة ، ط5 ، 1983م

*** السيد احمد الهاشمي :**

52- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ج2 .

*** السيد مرسي أبو ذكرى :**

53- القصة في الأدب المعاصر ، دار الطباعة الحديثة ، 1988م .

*** سليمان البستاني :**

54- عبرة وذكرى ، طبعة مطبعة الأخبار ، مصر 1908م .

*** سهيل إدريس :**

55- القصة في لبنان ، القاهرة سنة 1957م .

*** شفيق البقاعي :**

56- أدب عصر النهضة ، طبعة دار العلم للملايين ، بيروت 1990م .

*** شكري عياد :**

57- القصة القصيرة في مصر ، معهد البحوث والدراسات العربية ، 1967م .

*** شوقي أبو خليل :**

58- جرجي زيدان في الميزان ، دار الفكر ، ط3 ، سنة 1982م .

*** صلاح لبكي :**

59- لبنان الشاعر ، دار الحضارة بيروت ، 1964م .

*** عبد الحميد جودة السحار :**

60- القصة من خلال تجاربي الذاتية : الناشر مكتبة مصر ، القاهرة .

*** عبد الرحمن صالح العشماوي :**

61- وقفة مع جورجي زيدان ، الناشر مكتبة العبيكان ، ط2 ، 2003م .

*** عبد الرحمن الكواكبي :**

62- طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد ، طبعة مطبعة المعارف ، مصر ، (د ، ت، ط) .

*** عبد المحسن طه بدر :**

63- تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1870- 1938) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط5 .

*** عز الدين إسماعيل :**

64- الأدب وفنونه ، ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي القاهرة ، (د، ت، ط) .

*** عمر الدسوقي :**

65- في الأدب الحديث ، دار الفكر العربي ، ط4 ، 1959م .

*** عمر رضا كحالة :**

66- معجم المؤلفين ، « قاموس تراجم » ، طبعة مطبعة الترقي ، دمشق ، 1957م .

أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، مؤسسة الرسالة ، ج3 ، ط4 ، بيروت ، 1982م.

*** علي جواد الطاهر :**

67- مقدمة في النقد الأدبي ، منشورات المكتبة العالمية بغداد ، ط2 ، 1983م .

*** عيسى اسكندر المعلوف :**

68- تاريخ المشايخ اليازجيين ، طبعة دير المخلص ، بيروت ن 1940م .

*** الطاهر احمد مكي :**

69- القصة القصيرة دراسة ومختارات ، دار المعارف بمصر ، ط5 ، 1988م .

*** طه حسين :**

70- من حديث الشعر والنثر ، دار المعارف ، القاهرة .

*** طه وادي :**

71- تاريخ الرواية المصرية ، دار النشر ، مصر ، القاهرة ، ط2 ، 1997م .

72- دراسات في نقد الرواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة 1989م .

*** فاتح عبد السلام :**

73- الحوار القصصي تقنياته وعلاقاته السردية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، بيروت ، 1999م .

*** فؤاد دوارة :**

74- تقديم ودراسة رواية 17 رمضان ، طبعة مطبعة دار الهلال ، سنة 1983م .

*** فيليب حتى :**

75- تاريخ العرب ، ترجمة أنيس فريحة ، دار الثقافة بيروت ، 1959م .

76- سورية والسوريون من نافذة التاريخ ، طبعة نيويورك ، 1962م .

*** فيليب طرازي :**

77- تاريخ الصحافة العربية ، المطبعة الأدبية ، بيروت ، ط2 ، 1913م .

*** كارل بروكلمان :**

78- تاريخ الأدب العربي ، ترجمة عبد الحليم النجار ، طبعة دار المعارف ، مصر 1960م .

* كمال اليازجي :

79- رواد النهضة الأدبية في لبنان الحديث ، 1800 – 1900م ، ط1 ، بيروت ، 1962م .

* لجنة من الأستاذة :

80- الأدب العربي في آثار الدارسين ، بيروت ، سنة 1960م .

* لويس شيخو :

81- الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ط2 ، 1926م .

* مارون عبود :

82- رواد النهضة الأدبية الحديثة ، دار العلم ، بيروت ، ط1 ، 1952م .

83- صقر لبنان ، دار العلم ، بيروت ، ط2 ، 1957م .

* محمد حسين هيكل :

84- أوقات الفراغ ، ط2 ، القاهرة ، 1968م ، بدون رقم للطبعة .

* محمد حامد شوكت :

85- الفن القصصي في الأدب المصري الحديث ، القاهرة ، (د ، ت ، ط) .

* محمد زغلول سلام :

86- دراسات في القصة العربية الحديثة ، الناشر منشاة المعارف بالإسكندرية ، 1983م .

* محمد سرور بن نايف زين العابدين :

87- دراسات في السيرة النبوية ، دار الأرقم ، برمنجهام ، ط3 ، 1988م .

* محمد عبد الغني حسن :

88- سلسلة أعلام العرب ، جرجي زيدان ، الهيئة المصرية للطباعة والنشر والتأليف ، 1970م .

*** محمد غنيمي هلال :**

89- النقد الأدبي الحديث ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، الفجالة ، القاهرة .

90- الأدب المقارن ، دار العودة ، ودار الثقافة بيروت ، ط5 .

*** محمد فريد بك المحامي :**

91- تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق إحسان حقي ، دار النفائس ، بيروت ، ط2 ، 1983م .

*** محمد كرد علي :**

92- خطط الشام ، طبعة دمشق ، 1925م ،

*** محمد يوسف نجم :**

93- فن القصة ، دار الثقافة بيروت ، ط7 ، 1979م .

94- القصة في الأدب العربي الحديث ، (1870- 1914) ، طبعة دار الثقافة بيروت ، (د ، ت ، ط) .

*** محمود تيمور :**

95- الأدب الهادف ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ط1 ، 1959م .

94- دراسات في القصة والمسرح ، ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب القاهرة .

*** ميخائيل مشاقة :**

96- مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان ، ط1 ، مصر 1908 .

*** ولي الدين يكن :**

97- المعلوم والمجهول ، طبعة مطبعة الشعب ، القاهرة ، 1990م .

*** (اليازجي) ناصيف :**

98- رسالة تاريخية في أحوال لبنان في عهده الإقطاعي ، حققها ونشرها الخوري أنطوان ، ط1 ، بيروت ، 1951م .

رابعا : المجلات والدوريات :

* مجلة الهلال / عدد سنة 1893- 1894 – 1895- 1907م .

* مجلـة المشـرق / مجلـة كاثلوكيـة شـرقية تبحـث فـي العلـم والأدب والفـن ، السـنة الثامنة والعشرين ، 1930م .

* مجلة المقتطف / عدد سنة 1914م .

* مجلة المنار ، ج2 ، سنة 1931م .

* الموسـوعة العربيـة العالميـة / الناشـر أعمـال الموسـوعة للنشـر والتوزيـع ، ط1 ، الرياض ، 1996م .